مختصر

تاريخ دمشق لابن عساكر

للإمام محمّد بن مكرّم المعروف بابن منظور

٦٣٠ هـ - ٧١١ هـ

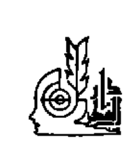
الجزء الأوّل

فضائل الشام وخطط دمشق

تحقيق

روحيّة النحاس　　رياض عبد الحميد مراد　　محمّد مطيع الحافظ

دار الفكر



الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
(١٥٠٠ نسخة)

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإفشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم





كلمة للناشر

في سنة ١٩٥١ م أخرج مجمع اللغة العربية بدمشق إلى النور مجلداً واحداً من الكتاب الضخم (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر ، فعرف الناس فضل هذا الكتاب العظيم وقدره ، واستعادت الذاكرة ثناء القدماء عليه ، سواء من الذين ترجموا لابن عساكر أم من غيرهم .

وعلى الرغم من مثبطات التفكير في نشر هذا الكتاب ، بسبب حجمه الكبير (٨٠ مجلدة) ، وصعوبة الحصول على كل أجزائه المخطوطة ، فقد غدا بين أيدي الناس منه اليوم سبع مجلدات مطبوعة ، وقرابة نصف (التهذيب) الذي صنعه بدران المتوفى ١٣٤٦ هـ .

ثم إن (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) بدمشق ، اهتبل مناسبة مرور تسع مئة سنة على ولادة (ابن عساكر) ، فأقام عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م بدمشق ، مهرجاناً تاريخياً كبيراً ألقيت فيه أبحاث جليلة متأنية .

هناك تلاقت الآراء في أن الأمل غير وطيد بجمع كل أجزاء الأصل المطول لتاريخ ابن عساكر ، وفي ضرورة البحث في كتب التاريخ والتراجم عما هو منقول من ابن عساكر لسد ثغرات النقص في الكتاب الكبير ، وفي ضرورة تضافر الجهود ابتغاء التعجيل بنشر هذا المؤلَّف العظيم .

هذا المهرجان ، وما طرح فيه من أفكار ومناقشات حرك فينا رغبة صادقة

في أن تقوم دارنا ـ دار الفكر ـ بدور فعال ، تسهم به في تحقيق ما تلاقت عليه الآراء ، وهفت إليه النفوس . وشيئاً فشيئاً انقلبت الرغبة إلى عزيمة ، والفكرة إلى عمل .

وأشار علينا بعض الفضلاء من أهل العلم بالتوجه إلى مختصر ابن منظور ، ورأوا فيه ما يخدم التاريخ الأصل ، ويتمم نواقصه ، فشرح الله تعالى صدورنا لذلك ، ودأبنا في جمع أجزائه المخطوطة ، وشكلنا لهذا الغرض لجان تحقيق ومراجعة ، ووضعنا منهجاً للتحقيق ، يهدف إلى تقديم نص صحيح موثق واضح ، دون إثقاله بالتعليقات إلا ما كان ضرورياً منها .

وكانت البداية بعون الله تعالى وتوفيقه ، وصدرت المجلدات الأولى من (مختصر تاريخ دمشق) ، وكان مما أثلج صدورنا أننا سرنا بالتعاون مع الإخوة الفضلاء من المحققين ، على درب الوفاء للعزيمة التي عقدناها ، راجين المولى حُسن العمل وتمامه ، وستصدر المجلدات التالية تباعاً ، كلما تم العمل بواحد منها أو أكثر ، بحول الله تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

دمشق ٢٨ ربيع الأول (الأنور) ١٤٠٤ هـ
١ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤ م

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أولاً ـ ابن عساكر وابن منظور

نحمدك اللهم على ما أوليتنا ، وأنعمت علينا حمداً يليق بكرمك وإحسانك ، ونصلي على نبيك المصطفى صلاة نتقرب بها إليك ، ونسلم عليه تسليماً خالصاً لوجهك الكريم .

وبعد . فليس من شك في أن تراث أمة من الأمم مرآة حضارتها عَبر القرون . منه نعرف علاقات أفرادها بعضهم ببعض ، ومنه نكشف مدى صلتها بالدول النائية عنها أو الدانية منها . ومنه كذلك نستشف حربها وسلمها ، جهلها أو علمها .

وتراث أمتنا العربية واسع الآفاق ، متعدد الألوان ، موغل في الزمن . ويقف تاريخ ابن عساكر واحداً من هذا التراث العظيم . إنه كتاب غني عن التعريف . ترجم فيه مصنفه لكل من دخل مدينة دمشق من الأماثل والأفاضل ، أو اجتاز بنواحيها من العلماء والأكابر ، وتوسّع في عمله حتى ترجم للمخنثين والمغمورين . فرسم بذلك لبلاد الشام الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، في جاهليتها وصدر إسلامها ، في العصر الراشدي وفي العصر الأموي ثم ذهب بعيداً في عصر بني العباس حتى وصل إلى عصره (القرن السادس) .

إنه تاريخ امتد قروناً وقف له مؤلفه جلّ عمره . وانتهى بوفاته سنة ٥٧١ هـ .

يقع الكتاب في قسمين رئيسين ، خصّ ابن عساكر القسم الأول منه بمدينة دمشق ، فتحدث عنها حديثاً مستفيضاً : اشتقاق تسميتها ـ فضائل أهلها ـ طيب هوائها ـ سنة افتتاحها ـ شرف جامعها ـ حصر مساجدها ـ الأنهار المحتفرة بها . وتسمية أبوابها ونسبة

هذه الأبواب . وذلك كله بعد أن ذكر اشتقاق اسم (التاريخ) ومبتدئه ، وتطرق إلى تاريخ الهجرة النبوية ، واشتقاق تسمية الأيام والشهور .

تلك هي مقدمة التاريخ الكبير .

أما القسم الثاني من الكتاب فقد ضمّنه تاريخ بلاد الشام مقتفياً في ذلك طريقة المحدّثين من حيث العناية بالسند كالعناية بالخبر . وحين ترجم للقواد والخلفاء والأمراء ، لم يفُتْه أن يسوق تراجمَ المحدّثين والفقهاء والشعراء . متبعاً ترتيب الحروف العربية بادئاً بمن اسمه أحمد قبل من اسمه إبراهيم تبرّكاً بالرسول الكريم .

فليس غريباً وفوائد الكتاب لا يعدّها عادّ ، ولا تقع عليها يدُ حاصرٍ أن يحظى حديثاً باهتمام الباحثين دراسة ، مثلما حظي قديماً بعناية المؤرخين اختصاراً وتذييلاً ومنتخبات[1] .

وقد بدأ المجمع العلمي (مجمع اللغة العربية بدمشق) اهتمامه بإخراج الكتاب في عهد رئيسه الأول الأستاذ محمد كرد علي ، ثم تتابع هذا الاهتمام في عهد الدكتور حسني سبح ، فظهرت منه أجزاء . لكن الصعوبات ما زالت تعوق طريق إخراجه كاملاً . ومن أهمها أنه لا سبيل للحصول على نسخة واحدة كاملة « وإنما اجتمع لدى المجمع نسخ ناقصة وأجزاء متفرقة »[2] .

وإننا لنجد فيما جُمع خرماً هنا ، ورطوبة أو أَرَضة هناك مما يتعذر تحصيله أو إيجاد وسيلة إلى ترميمه ؛ فلم يبق والحالة هذه مندوحة عن اللجوء إلى المختصرات ، لأن الصورة تبقى هي نفسها أو تكاد ، ونعني صورة بلاد الشام الحضارية ، وإن تكن صورة ذات إطار كبير وأسسٍ عامه .

وقد لجأنا إلى مختصر ابن منظور لأنه يخدم التاريخ الأصل ، بل لا يكاد ينفصل عنه . ولهذا اعتُمد عليه في بعض المواضع[3]

---

(١) انظر مقدمة الدكتور صلاح الدين المنجد للمجلدة الأولى ص ٢٧ ، وما كتبه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي . الطبعة الثانية ج ٦ / ٧١ .

(٢) انظر مقدمة الدكتور شكري فيصل جزء (عاصم ـ عائذ) ص ١٢ .

(٣) انظر جزء (عبادة ـ عبد الله بن ثوب) ص ٤١٥ حاشية (١) .

مختصر ابن منظور إذن يتم كثيراً من النقص في النسخ المخطوطة لابن عساكر ، أو يملأ الفراغ في التراجم المبتورة في النسخ المتيسرة ، ولا غنى للمحقق في واحد منهما عن لآخر . وعسى أن يكون نشر هذا المختصر مشجعاً على إكمال نشر الأصل .

قرأ ابن منظور الكتاب ووعاه ، ثم أقدم عليه يختصره من ناحيتيه : الأسانيد والمتون . هذب السند حتى لم يُبق إلا على جزء يسير منه أحياناً ، وهذب الروايات ، فحذف المتعدد منها تارة ، وجمع بين روايات في رواية واحدة تارة أخرى . ولعلّ صنيعه هذا قرّبه من عمل المؤرخين بقدر ما أبعده من طريقة المحدّثين .

وكان في ذلك كله أميناً ، يختصر من غير تَزيُّد في العبارة ، ولا تبديل في ألفاظ الرواية . ولهذا كثيراً ما كان يشير بحرف « ط » فوق اللفظ أو في هامش الورقة كلما انبهم عليه لفظ ، أو أشكل عليه معنى ، أو وقف على رواية غامضة . وربما أشار إلى ذلك بكلمة « كذا » أو اكتفى بوضع « ضبّة » فوق اللفظ .

إن عمله هذا يجعلنا نطمئن إلى أننا ـ حين نقرأ مختصر ابن منظور ـ لسنا بعيدين عن رواية ابن عساكر نفسها . وهذه مزيّة مشجعة على إخراج الكتاب .

والنسخة التي حصلنا عليها بخط ابن منظور نفسه . وقد كتبت بين ٦٩٠ ـ ٦٩٥ هـ ، أي بعد وفاة ابن عساكر بما يزيد على القرن بقليل ، فهي إذن نسخة قريبة عهد بالأصل . الأمر الذي يضفي عليها قيمة أكبر .

ثانياً ـ ابن عساكر[1]

نشأ ابن عساكر في بيئة علمية جعلت منه حافظاً ، متقناً ، ثقة ، فضلاً عن تحصيله العلم من جهة أبيه وأمه .

---

(١) للتوسع في ترجمته انظر مقدمة الدكتور صلاح الدين المنجد للمجلدة الأولى ، ومقدمة الدكتور شكري فيصل لجزء (عاصم ـ عائذ) ، و(الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسع مئة سنة على ولادته) ـ طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٧٩ م بدمشق و (ابن عساكر في ذكرى مرور تسع مئة سنة على ولادته) ـ ترجمة ابن عساكر في المراجع القديمة والحديثة ، وفهارس المخطوطات طبع سنة ١٩٧٩ م .

وهو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، الملقب بعد وفاته بابن عساكر . صحب أبوه كبار الفقهاء في عصره ، وقرأ أخوه الأكبر القرآن بالروايات ، وكان أخوه الثاني قاضياً ، ولأبناء أخيه هذا يدٌ في نشر الحديث وتدريسه . أما جده لأمه يحيى بن عبد العزيز فقد سمع محدّثَ دمشق عبد العزيز بن أحمد الكتاني . ولم يكن خالاه أبو المعالي وأبو المكارم بأقلّ شأناً وهما القاضيان بدمشق .

لا غرو بعد هذا أن ينشأ على حب العلم ، فعاش اثنتين وسبعين سنة حفَل معظمها بالتلقّي والتحديث والتأليف . سمع الحديث ، وكاتب فيه ، ورحل من أجله ، وواتته ذاكرة حافظة ، وذهن وقّاد ، ونهم لا يشبع ، فأتقن الحديث رواية ودراية ، وتصدّر دار السُّنّة بدمشق ولما يبلغ الخامسة والثلاثين ، ثم انصرف إلى التأليف والتصنيف ، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقرّبه نور الدين زنكي وبنى له دار السُّنّة ، وحضر مجالس الحديث عنده ، وأجلّه صلاح الدين الأيوبي أيضاً ، ولزم مجالس تدريسه ثم حضر جنازته إلى حيث دفن بالباب الصغير بدمشق ، بعد أن أسبغ عليه معاصروه ألقاباً تليق بعلمه وإتقانه ، فهو الحافظ ، وهو الثقة ، وهو ناصر السُّنّة .

وقد كثرت تآليفه ، وتنوعت موضوعات كتبه . ولكن تاريخه الكبير يكاد يكون أجلّها وأعظمها شهرة . وقد سماه « تاريخ مدينة دمشق ـ حماها الله ـ وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها » . ألّفه على مراحل ، ثم وكل أمر تبييضه إلى ابنه القاسم الذي بيّضه بخطه .

وقد لقي الكتاب عناية واهتماماً بدءاً من ابن المصنف « القاسم » (ت ٦٠٠ هـ) الذي ذيّله وانتخب منه ، وانتهاءً بالتهذيب الذي صنعه عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ) وإن يكن عمله غير كامل . وبين هذين التاريخين تقع مختصرات عدة ومنتخبات شتى للكتاب ، منها مختصر ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ .

ثالثاً ـ ابن منظور

آ ـ اسمه ونسبه :

هو جمال الدين ، أبو الفضل محمد بن مُكَرَّم بن علي ـ وقيل رضوان ـ بن أحمد بن أبي القاسم بن حَبْقَة[1] ، ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي المصري .

وتقف بعض المصادر عند جده « ابن منظور » الذي إليه نُسب ، وبه عُرف[2] ، ويقف بعضها الآخر عند جده « أحمد »[3] . ولكن المؤلف نفسه أورد نسبه كاملاً متصلاً إلى آدم عليه السلام في كتابه لسان العرب[4] .

وقد أجمعت المصادر على أن ولادته كانت سنة ٦٣٠ هـ ـ واختلفت في مكان هذه الولادة . فمنهم من أغفله[5] ، ومنهم من قال : إنه ولد في طرابلس الغرب[6] ، ومنهم من قال : إنه ولد في مصر[7] .

ورجح الأستاذ علي الفقيه حسن أن تكون ولادته في طرابلس الغرب ، لأن جده الأعلى (رويفع بن ثابت) كان حاكماً عليها ، وفيها مات ودفن . وأسرته ما زالت هناك إلى يومنا الحاضر ، ولا زال أعقابهم « آل المكرّم » إلى اليوم بتاجوراء التابعة لطرابلس الغرب . ولا ننسى أن ابن منظور نفسه تولّى قضاء طرابلس الغرب[8] .

---

(١) في بغية الوعاة : « حقة » . وما هنا عن لسان العرب .

(٢) بغية الوعاة ٢٤٨/١ ، والأعلام ٣٢٩/٧ ، ومعجم المؤلفين ٤٦/١٢ .

(٣) فوات الوفيات ٣٩/٤ ، والدرر الكامنة ٢٦٢/١ .

(٤) لسان العرب : « جرب » .

(٥) الدرر الكامنة ٢٦٢/٤ ، وبغية الوعاة ٢٤٨/١ ، وفوات الوفيات ٣٩/٤ .

(٦) المجلة الجديدة بالقاهرة س ٣ ، ع ٣ ، ص ٢٦ ـ ٢٩ ، والأعلام ٣٢٩/٧ ، ومعجم المؤلفين ٤٦/١٢ ، ومجلة مجمع اللغة العربية ٤٦٦/٣٢ ـ ٤٦٩ .

(٧) مجلة الزهراء ج ٧ ـ ٨/م ٤٧٧/٥ « نقلاً عن التاج » ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٧/١ ، وتراث الإنسانية ٣٥٥/١ ، وانظر أيضاً مقدمة الأستاذ إبراهيم الأبياري لكتاب مختار الأغاني ص (م) .

(٨) مجلة مجمع اللغة العربية ٤٦٦/٣٢ ـ ٤٦٩ .

ومهما يكن من أمر ولادته فإن نسبته إلى مصر إن لم تكن لحقته بسبب ولادته فيها فبسبب آخر هو أنه قضى معظم فتوّته وشبابه في مصر يتلقى العلوم على علمائها .

ب ـ حياته العلمية :

في بيئتـه الصغيرة ، وهو لا يزال فتى صغيراً ، يلهو في مرابع طفولتـه ، كانت أذنـاه وعيناه تتفتحـان على رؤى وأصـداء علميـة نبهت الفتى الـذكي الفطن . فقـد نقل لنـا ابن منظور في مقدمة كتابه نثـار الأزهـار ـ وهو الجزء الأول من كتـابـه سرور النفس الـذي اختصر فيه كتاب فصْل الخطاب للتيفاشي ـ شيئاً من ذلك فقال :

« كنت في أيام الوالد ـ رحمه الله ـ أرى تردّد العقلاء إليـه وتهافت الأدبـاء عليـه ، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي العبسي في جملتهم ، وأنـا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ، ولا أشـاركهم فيما يلقونـه ، غير أني كنت أسمعـه يـذكر للوالـد كتـابـاً صنّفـه ، أفنى فيـه عمره ، واستغرق دهره ، وأنـه سماه (فصـل الخطـاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) وأنه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب ... وكنت شـديـد الشوق إلى الوقوف عليه . وتوفي الوالد رحمه الله في سنـة خمس وأربعين وستمائـة ، وشغلت عن الكتـاب ... » ولكنـه حصل بعـدئـذ ـ سنـة ٦٩٠ هـ ـ على أجزاء متفرقـة من مسوّدة الكتاب فرتّبه وهذّبه فكان ما سماه بنثار الأزهار وسرور النفس .

بالإضافة إلى هذا الجو العلمي الذي يرسمه لنا هذا النص نجد فيه أيضاً شيئاً آخر هو منزلة أبيه العلمية ووفاته سنة ٦٤٥ هـ . وما نعلمـه عن الأب لا يتجـاوز مـا ورد هنـا إلا قليلاً وهو أنه كان فاضلاً .

إن ما سمعه من أبيه ومن هذا العالم جعله يميل إلى العلوم صغيراً ، ويشغف بها ولّما يبلغ الحلم .

فقد ذكر مترجموه أربعة من مشايخه ولم يذكروا غيرهم ، وهم :

١ ـ مرتضى بن أبي الجود حاتم بن المسلم الحارثي[1] المتوفى سنة ٦٣٤ هـ .

---

(١) ترجمته في العبر ١٤٠/٥ ، وتذكرة الحفاظ ١٤١٩/٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٦ .

٢ ـ عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله بن الطُّفَيْل[١] المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .

٣ ـ يوسف بن عبد المعطي بن منصور بن المخَيِّلي[٢] المتوفى سنة ٦٤٢ هـ .

٤ ـ علي بن الحسين بن علي بن منصور البغدادي الحنبلي[٣] المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .

والذي يسترعي النظر في هذه المرحلة أن جميع مشايخه ماتوا قبل أن يبلغ الحلم ، فبعد وفاة أبيه سنة ٦٤٥ هـ لا نسمع أنه أخذ عن شيخ غير هؤلاء ، وكأن الحياة شدَّته إلى مشاغلها فأنسته العلم والعلماء .

وأما تلامذته فلا يذكر مترجموه إلا أربعة منهم وهم : ابنه قطب الدين والبرزالي والسُّبكي والذهبي .

كذلك لا نعلم السَّنَة التي تولّى فيها ديوان الإنشاء بمصر ، والسنة التي ولي فيها قضاء طرابلس ، وكل ما نجده قول مترجميه : « خدم في ديوان الإنشاء طول عمره وولي قضاء طرابلس » .

ويُجمعون على أنه كان صدراً رئيساً فاضلاً في الأدب مليح الإنشاء عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ . ويستدلّون على ذلك بكتبه أولاً وبتولّيه القضاء وديوان الإنشاء ثانياً .

ثم إنهم يوردون له نماذج من شعره ، فيها دعابة وظرف ، نختار منها النموذج التالي[٤] :

الناس قد أثموا فينا بظنّهمُ	وصدّقوا بالذي أدري وتدرينا
ماذا يضرّك في تصديق قولهمُ	بأن نُحقّقَ ما فينا يظُنّونا
حَملي وحَملُك ذنباً واحداً ثقةً	بالعفوِ أجملُ من إثمِ الورى فينا

ويقولون إنه كان يتشيّع بلا رفض ، وأنه عمي في آخر عمره ، وأنه توفي بمصر سنة إحدى عشرة وسبع مئة .

---

(١) ترجمته في العبر ١٥٢/٥ ، والنجوم الزاهرة ٣١٧/٦ .

(٢) ترجمته في العبر ١٧٣/٥ ، وتذكرة الحفاظ ١٤٢٨/٤ وفيها أنه توفي سنة ٦٤١ .

(٣) ترجمته في العبر ١٧٨/٥ ، والنجوم الزاهرة ٣٥٥/٦

(٤) فوات الوفيات ٣٩/٤ ، والدرر الكامنة ٢٦٢/٤

ج ـ مؤلفاته :

يمكننا أن نميّز نوعين اثنين في مؤلفات ابن منظور ، وكلا النوعين يرجعان إلى أصل واحد هو جمع الأخبار واختصارها ، والنوعان هما :

الأول : يعتمد على جمع الأخبار وتبويبها :

ـ إما تبويباً ألفبائياً كما في لسان العرب .

ـ وإمّا تبويباً فكرياً كما في أخبار أبي نواس .

والثاني : يعتمد على اختصار المطولات كالأغاني ، وتاريخ ابن عساكر والعقد الفريد .

وإن ولعه بالاختصار نبّه القدماء إليه حتى قال ابن حجر :

« وكان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة : اختصر الأغاني ، والعقد ، والذخيرة ، ونشوار المحاضرة ، ومفردات ابن البيطار ، والتواريخ الكبار . وكان لا يملّ من ذلك . قال الصفدي : لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطوّلاً إلا وقد اختصره »[1] . بل إن كثيراً منها تركها مكتوبة بخطه . قال ابنه قطب الدين : « إنه ترك بخطه خمس مئة مجلدة ، ويقال إن الكتب التي علقها بخطه من مختصراته خمس مئة مجلدة »[1] . فهل هذا من مبالغات ابنه نقلها عنه معظم الذين ترجموا له ؟.

أما اختيار ابن منظور الاختصار على التأليف فذلك أمر يعود بعضه إلى شخصيته التي استوعبت هذه الكتب . ولعل جلّه يرجع إلى عصره (القرن الثامن الهجري) .

وسنورد ما وجدنا من مؤلفات ابن منظور ومختصراته مرتبة على أحرف الهجاء :

١ ـ أخبار أبي نواس (ط)

٢ ـ اختصار كتاب الحيوان للجاحظ (٢٥٥ هـ)

---

(١) الدرر الكامنة ٤/٢٦٣

٣ ـ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس . في مجلدين . هذب فيه كتاب فصل الخطاب بمدارك الحواس الخمس لأولي الألباب لأحمد بن يوسف التيفاشي (٦٥١ هـ) .

٤ ـ لسان العرب (ط)

٥ ـ لطائف الذخيرة ، اختصر فيه ذخيرة ابن بسام (٣٠٣ هـ) .

٦ ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني (ط)

٧ ـ مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٥٧١ هـ) . وهو كتابنا هذا .

٨ ـ مختصر [ذيل] تاريخ بغداد للسمعاني (٥٦٢ هـ) . منه مكروفلم في مجمع اللغة العربية بدمشق .

٩ ـ مختصر زهر الآداب وثمرة الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (٤٥٣ هـ) في أربعة أجزاء

١٠ ـ مختصر صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) .

١١ ـ مختصر العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٧ هـ)

١٢ ـ مختصر مفردات ابن البيطار (٦٤٦ هـ) . كتاب في الطب . منه نسخة مخطوطة في التيمورية .

١٣ ـ مختصر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (جامع التواريخ) لأبي علي التنوخي (٣٨٤ هـ) منه نسخة في الأمبرزيانه .

١٤ ـ مختصر يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي (٤٢٩ هـ) .

١٥ ـ المنتخب والمختار في النوادر والأشعار . منه نسخة في شستربتي .

١٦ ـ نثار الأزهار في الليل والنهار . وهو الجزء الأول من سرور النفس (ط) .

د ـ مظان ترجمته :

آ ـ الكتب العربية

(خ) فهرس المؤلفين بالظاهرية

(ط) ١ ـ آداب اللغة ١٤١/٣

٢ ـ إيضاح المكنون ـ البغدادي ٣٤١/١

٣ ـ بغية الوعاة ـ السيوطي ١٠٦

٤ ـ حسن المحاضرة ـ السيوطي ٢١٩/١ ، ٣٠٧
٥ ـ الدرر الكامنة ـ ابن حجر ٢٦٢/٤
٦ ـ روضات الجنات ـ الخوانساري ٢٠٣
٧ ـ شذرات الذهب ـ ابن العماد ٢٦/٦
٨ ـ الفهرس التمهيدي ٤٢٥
٩ ـ فهرس المخطوطات المصورة ـ فؤاد السيد ٣٢٩/١ ، ٤٦/٢ ، ١٣٤ ، ٢٦٢
١٠ ـ فهرس المخطوطات المصورة ـ لطفي عبد البديع ٢٣٥/٢
١١ ـ فهرست الخديوية ١٨١/٤
١٢ ـ فوات الوفيات ـ ابن شاكر الكتبي ٢٦٥/٢
١٣ ـ كتبخانه سنده ـ كوبرلي زاده محمد باشا ٧٥ ، ٩٠ ، ١٠٢
١٤ ـ كتبخانه عاشر أفندي ٧٠
١٥ ـ كتبخانه عموجه حسين باشا ٣٦
١٦ ـ كتبخانه ولي الدين ١٥١
١٧ ـ مرآة الجنان ـ اليافعي ٢٥١/٤
١٨ ـ مصفى المقال ـ آغا بزرك
١٩ ـ مفتاح السعادة ـ طاش كبري ١٠٦/١
٢٠ ـ نكت الهميان ـ للصفدي ٢٧٥
٢١ ـ هدية العارفين ١٤٢/٢

ب ـ المجلات

١ ـ المجلة الجديدة بالقاهرة س ٣ ، ع ٣ ، ص ٢٦
٢ ـ الزهراء ٤٧٦/٥
٣ ـ لغة العرب ٦٤٣/٨ ، ٧٤٦
٤ ـ مجلة المجمع العلمي العربي ٤٦٦/٣٢
٥ ـ مجلة معهد المخطوطات ٢٦٩/٥

جـ ـ الكتب الأجنبية :

1- Arabic manuscripts in the princeton 109

2- Brockelmann: g,11: 21, 22, s,11: 14,15

3- Huart 380

رابعاً ـ نسخة المختصر

هي نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة . وكان المعهد قد صورها من المكتبات التركية (مكتبة أحمد الثالث ، ومكتبة كوبريلي)[1] وغيرهما . وثمة جزء من النسخة نفسها في مكتبة غوتا برقم ١٧٧٦ ، وجميع ذلك بخط ابن منظور نفسه .

ومقياس النسخة ١٨/٢٤ سم . في كل ورقة ٢١ سطراً ، وفي كل سطر ١١ كلمة تقريباً .

والخط نسخي مقروء معظمه ، إلا ما كان من رسم بعض الحروف كرسم الفاء والواو . فكثيراً ما كان ابن منظور يصل الواو بما يليها من حروف الكلمة فتلتبس بالفاء على القارئ .

وإهمال النقط واضح إلا في القليل ، الأمر الذي يجعل قراءة بعض الألفاظ صعباً إن لم يكن متعذراً أحياناً .

ونادراً ما تُضبط الأعلام . وما أكثر ما تُرك ذلك .

تقع النسخة في تسعة وعشرين جزءاً . على غلاف كل جزء تملكات ، منها لابن حجي ، ولابن الطحان (٩٢١ هـ) ولمحمد بن أحمد بن إقبال العلائي . وعلى بعضها وقف لمكتبة أحمد الثالث .

أما الأجزاء :

---

(١) انظر مجلة المورد ـ المجلد الرابع ـ العدد الرابع سنة ١٩٧٥ م ص ٢٨٧ ، وفهرست المخطوطات المصورة ج ٢ ـ التاريخ ـ القسم الأول رقم ٤٥١ ، والقسم الثاني برقم ٧٨٨ ، والقسم الثالث ص ٢٦٢ ، والقسم الرابع ص ٣٧٠

١ ـ فالجزء الأول يشمل مقدمة تتحدث عن مدينة دمشق ، وأبواباً من السيرة النبوية الشريفة .

٢ ـ والجزء الثاني يتضمن تتمة أبواب السيرة .

وقد آثرنا أن نضمّ ما ورد من أبوابها في الجزء الأول إلى تتمتها في الجزء الثاني ، فنجعلها في جزء مستقل هو الجزء الثاني . ويكون الجزء الأول خاصاً بمدينة دمشق .

٣ ـ والجزء الثالث تبدأ به التراجم من أحمد بن أحمد بن وركشين ...

ثم تتوالى بعد ذلك مقسّمة على الأجزاء بالطريقة نفسها التي التزمها ابن عساكر ، من حيث الترتيب المعجمي لأسماء المترجمين وأسماء آبائهم وأجدادهم .

وإذا كان ابن منظور لم يجعل خاتمة مختصره في تراجم النساء كما فعل ابن عساكر فإنّه لم يهملهُنّ على الإطلاق ، وإنما جاءت الترجمة لهن خلال التسلسل الهجائي لتراجم الرجال . أما الكنى فوردت في نهاية المختصر .

خامساً ـ نهج التحقيق

لما كانت الغاية من التحقيق تقديم النص صحيحاً مطابقاً للأصول ، وتوثيقه نسبةً ومادةً ، وتوضيحه وضبطه اتبعنا المنهج الآتي :

آ ـ كتابة النص :

أهمل ابن منظور نقط الحروف غالباً ، وعلى الأخصّ نقط الياء الأخيرة سواء وقعت موصولة أم مفصولة . وكثيراً ما كان يسهل الهمزات ، ويتبع « واو » المضارع الدال على المفرد الغائب ألفاً . وقد تتداخل عنده بعض الحروف فتتعذر قراءة بعض الكلمات .

وقد أخذنا أنفسنا باعتماد قواعد الإملاء الحديثة من النقط الكامل ، وتثبيت الهمزات ، وجهدنا في التفريق بين الحروف الملتبسة ، وأثبتنا ما يمليه المعنى .

أما رسم المئة التي تأتي معدودة فإن للمحدثين فيها أشكالاً . هي مثلاً « خمائة » و« خمسمئة » و « خمس مئة » . وقد آثرنا الرسم الأخير لأن ابن منظور نفسه اختاره . وجعلنا أرقام أوراق المخطوطة ضمن النص بين معقوفتين .

ب ـ توضيح معالم النص :

١ ـ قسمنا النص بحسب أفكاره ، فخصصنا للفكرة الجديدة فقرة جديدة .

٢ ـ اهتممنا قدر المستطاع بوضع علامات الترقيم من نقط ، وفواصل ، وإشارات تعجب أو استفهام ، ونحو ذلك مما يزيد النص وضوحاً .

٣ ـ استخدمنا المعقوفات لما استدركناه على مادة الكتاب سواء أستعنّا على ذلك بالرجوع إلى المصادر وأمّات الكتب ، أم ما ساق إليه المعنى وحده .

٤ ـ استعملنا نوعين من حروف الطباعة ، فجعلنا حروف المتن أكبر من حروف الأسانيد .

أما ما نقله ابن منظور من تعليقات ابن عساكر على المتن أو على السند فقد بدأنا به فقرة جديدة ، وجعلناه بحرف المتن .

٥ ـ وضعنا الآيات القرآنية بين قوسين مزهرتين .

جـ ـ ضبط النص :

قمنا غالباً بشكل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والشواهد والمشتبه من الأعلام ، والغريب من الألفاظ . وما قد يلتبس من التراكيب . مستفيدين في بغيتنا هذه من المصادر الموثوق بها .

د ـ التعليق على النص :

لم نشأ أن نغرق الكتاب بمزيد من الحواشي . فاجتزأنا بالمفيد من التعليقات . مع الاهتمام بالنقاط التالية :

١ ـ الرجوع إلى تاريخ ابن عساكر . المطبوع منه والمخطوط . عند تيسّر نسخ جيدة يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها .

ولم نعتمد نسختي الظاهرية المخطوطتين (أسعد باشا ، وسليمان باشا) إلا في القليل ، لأنها كثيرتا التصحيف والتحريف . وأثبتنا من الفروق بين مختصر ابن منظور وبين تاريخ ابن عساكر ما فيه غناء .

٢ ـ ذكر مظانّ الترجمات حين تدعو الحاجة ، كأن يكون هناك خلاف في اسمه أو نسبه أو كنيته . أو يكون فيه تصحيف أو تحريف .

٣ ـ الاكتفاء بتعريف موجز للأعلام والمواضع وما في حكمها من غير استقصاء .

٤ ـ ذكر اسم المصدر أو المرجع ـ الجزء والصفحة ـ في الحاشية . أما المعاجم فقد كنّا نذكر أسماءها والمادة المعنيّة غالباً .

هـ ـ التخريج :

١ ـ خرّجنا الآيات فذكرنا اسم السورة ورقمها ثم رقم الآية ، في الحاشية .

٢ ـ شرحنا الغريب من الأحاديث النبوية ، والألفاظ الواردة في النص .

٣ ـ لم نخرج الشعر تخريجاً كاملاً ، وإنما أشرنا إلى الدواوين إن كان للشاعر ديوان . ورجعنا أحياناً إلى كتب الأدب . ولم نفصّل في اختلاف الروايات .

٤ ـ لم نلتزم بالعودة إلى الكتب التي نقل منها المؤلف .

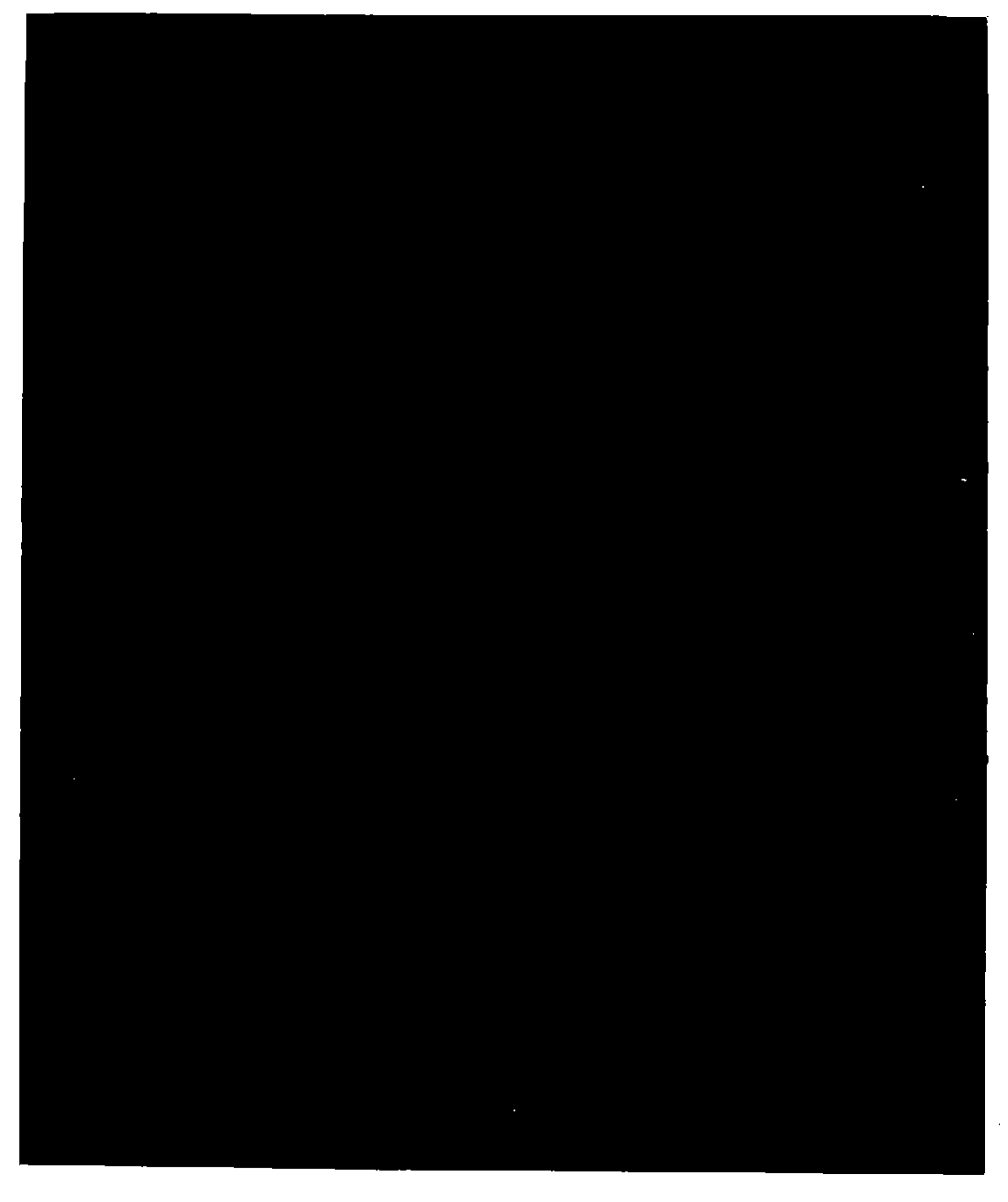
وبعدُ . فإننا نتوجه إلى الله تعالى عزّ وجلّ أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه بعيداً عن كلّ رياء أو تلهّف لشهرة .

ويطيب لنا أن نخصّ بالشكر « دار الفكر » والقائمين عليها لما دأبوا عليه من الوقوف وراء كلّ عمل تراثيّ من شأنه أن يعيد صرح أمتنا الفكري . فشكر الله لهم ذلك ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

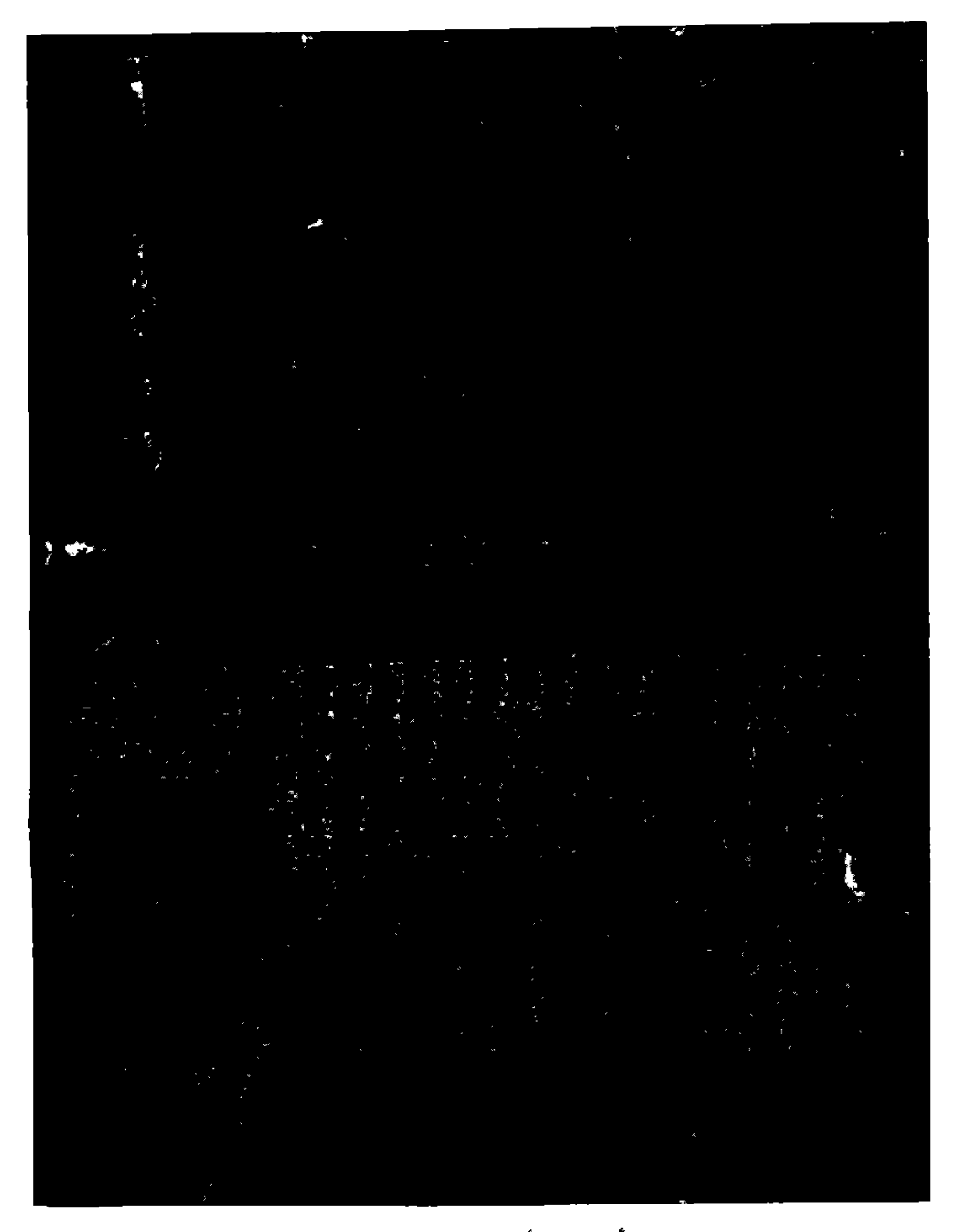
﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

دمشق : ٢٢ المحرم الحرام ١٤٠٣ هـ
٨ تشرين الثاني ١٩٨٢ م

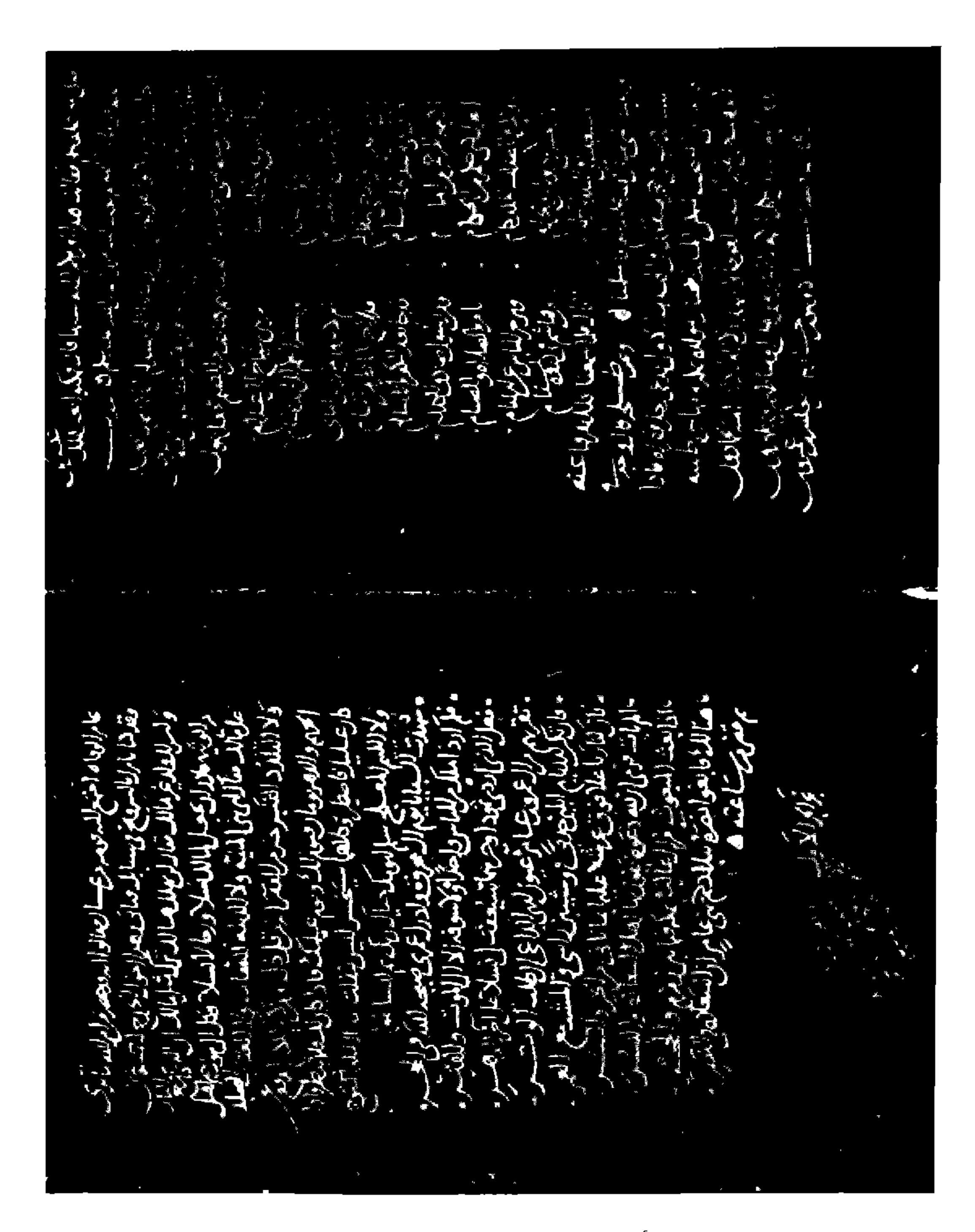
روحية النحاس   رياض مراد   محمد مطيع الحافظ



ورقة عنوان الكتاب وعليه التملكات



الورقة الأولى من الأصل بخط العلامة ابن منظور



الورقة الأخيرة من الجزء الأول من تقسيم ابن منظور



الوجه الأخير من الورقة الأخيرة من الجزء الأول

[١ / ب] بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين[١]

[٢ / أ] باب اشتقاق اسم التاريخ والفائدة بالعناية به

قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُل هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحجّ ﴾[٢] ، بالأهلة يدرَكُ عددُ الأعوام ، وتعرَفُ أوقاتُ الحج والصيام ، ويُعتبر بها انقضاء عِدد النساء من بعولتهن ومدة حملهنّ ووضع أجنتهنّ ، ووقت مَحِلّ الديون اللازمة ، وتصرُّم مُدَد عقود الأجائر[٣] ، واختلاف الفصول ، وبها تُحدّ حوادث الأمم الخالية

وفي كتاب الخراج لقدامة قال :

تأريخ كلّ شيء آخره ، وهو في الوقت غايتُه والموضع الذي انتهى إليه . يقال : فلان تأريخ قومه ، أي إليه ينتهي شرفهم . ويقال : وَرَّختَ الكتاب توريخاً ، لغة تميم ، وأرّخته تأريخاً ، لغة قيس . ولكلّ مملكة وأهل ملّة تاريخ . وجماع القول في تواريخهم أنهم يؤرخون بالوقت الذي تحدث فيه حوادث مشهورة هامة .

بإسنادنا عن المصنف عن مشايخه عن ابن عباس :

في قوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾[٢] قال : نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمة وهما رجلان من الأنصار ، قالا : يا رسول الله ، ما بالُ الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدقّ حتى يعود كما

---

(١) بعد هذه اللفظة بياض في الأصل بمقدار وجه ورقة ، سقطت معه خطبة الكتاب .

(٢) سورة البقرة ١٨٩/٢ .

(٣) كذا في الأصل . وفي تاريخ ابن عساكر « الإجارات »

كان ، لا يكون على حالٍ واحدٍ ؟! فنزلتْ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنّاس ﴾[1] في حَلّ دَيْنهم ولصومهم ولفطرهم وعِدّة نسائهم والشروط التي تنتهي الى أجل معلوم .

وبسنده عن قتادة في هذه الآية قال :

فجعلها الله سبحانه لصوم المسلمين وإفطارهم وحَجّهم ومناسكهم وعدد نسائهم ومحالّ ديونهم في [٢/ب] أشياء ، والله أعلم بما يُصلح خلقه . وقال عز وجل ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسَاب ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاّ بالحقّ يُفَصِّلُ الآياتِ لقَوْمٍ يَعْلَمون ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة ١٨٩/٢ .

(٢) سورة يونس ٥/١٠ .

باب في مبتدأ التاريخ واصطلاح الأمم عليه

وبسنده عن مشايخه عن أنس عن النبي ﷺ

أن جبريل حدّثه قال : مضى من الدنيا ستة آلاف وسبع مئة سنة . قال : وكل قطرة مطر تنزل من السماء يوكَّلُ بها مَلَكٌ من الملائكة يضعها موضعها قال : ونبأ في الأرض من الأنبياء مئة ألف وأربعون ألفاً وثلاث مئة من المرسلين حتى جاء سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء لانبيَّ بعده . قال : وما بقي من الدنيا إلا كما بقي من النهار إذا غابت الشمس [وبقي حمرة الشمس][1] على الحيطان .

وبسنده عن ابن عباس قال :

كانت فترتان : فترة بين إدريس ونوح عليهما السلام ، وفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما ، فكان أول نبي بعث إدريس بعد آدم ، فكان بين موت آدم وبين أن بُعث إدريس مئتا سنة ، لأن آدم عاش ألف سنة إلا أربعين عاماً ، ووُلد إدريس وآدم حيّ فمات آدم وإدريس ابنُ مئة سنة ، فجاءته النبوة بعد موت آدم بمئتي سنة ، وكان في نبوته مئة سنة وخمس سنين ، فرفعه الله وهو ابن أربع مئة سنة وخمس سنين ، وكان الناس من آدم إلى إدريس أهل ملة واحدة متمسكين بالإسلام وتصافحهم الملائكة ، فلما رُفع إدريس اختلفوا وفتر[2] الوحي فيما بين إدريس ونوح مئة سنة ، وكانت نبوة نوح ألف سنة إلاّ خمسين عاماً وعمّر بعد الغرق خمسين عاماً ، ويقال مئتي عام والله أعلم . وكان سام بن نوح بعدما مات نوح ابنَ مئة سنة وعاش [٣/أ] بعده مئتي سنة . وكان بين نوح وهود ثمان مئة سنة وعاش هود أربع مئة سنة وأربعاً وستين سنة . وكان بين هود وصالح مئة سنة . وعاش صالح ثلاث مئة سنة إلا عشرين عاماً . وكان بين صالح وبين إبراهيم ست مئة سنة وثلاثون سنة .

(١) بياض في الأصل واستدرك من المجلدة الأولى من الأصل المطبوع ص ٢٤

(٢) ليست تتمة الخبر في المطبوع .

وعاش ابراهيم مئة سنة وخمساً وسبعين سنة ، وقيل مئتي سنة وسنة . وعاش إسماعيل مئة سنة وتسعاً وثلاثين سنة . وعاش إسحاق مئة سنة وثمانين سنة . وعاش يعقوب بن إسحاق مئة سنة وتسعاً وأربعين سنة . وكان بين موسى وإبراهيم سبع مئة سنة وكان الأنبياء بين موسى وعيسى متواترة وكذلك بين نوح الى موسى . قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرى ﴾[1] بَعْضُها على إثْرِ بَعْضٍ ﴿ كُلَّما جاء أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فأتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً ﴾ الى قوله : ﴿ ثم أَرْسَلْنا مُوسَى وأخاه هَارُونَ ﴾[1] فمن زعم أنه يعلم عدتهم وأسماءهم إلا الله فقد كذب ، إن الله يقول لنبيِّه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[2] . وكان بين موسى وعيسى - فيما رُوي عن كعب - ست مئة سنة ، وفيما روي عن ابن عباس خمس مئة سنة .

وبإسناده عن محمد بن إسحاق بن يسار قال :

كان من آدم إلى نوح ألف ومئتا سنة ، ومن نوح الى إبراهيم ألف ومئة واثنتان وأربعون سنة ، ومن إبراهيم إلى موسى خمس مئة وخمس وستون سنة ، ومن موسى الى داود خمس مئة وتسع وستون سنة ، ومن داود إلى عيسى ألف وثلاث مئة وست وخمسون سنة ، ومن عيسى الى محمد ﷺ ست مئة سنة ، فذلك خمسة آلاف وأربع مئة واثنتان وثلاثون سنة ، وهذا الإجمال صحيح .

وبإسناده عن عكرمة قال :

كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

وعن ابن عباس قال :

كان بين موسى بن عمران وعيسى بن مريم ألف سنة وتسع مئة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وإنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم [٣/ب] وكان بين ميلاد عيسى والنبي ﷺ خمس مئة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء وهو قوله عز وجل : ﴿ إذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَين فَكَذّبوهُما فَعزَّزْنا بثَالِثٍ ﴾[3] والذي عُزِّز به

(١) المؤمنون ٢٣/٤٤ - ٤٥

(٢) المؤمن ٤٠/٧٨

(٣) يس ٣٦/١٤

شمعون ، وكان من الحـواريين ، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيهـا رسـولاً أربـع مئـة سنـة وأربعاً وثلاثين سنة وإن حواريي عيسى بن مريم كانوا اثني عشر رجلاً ، وكان قـد تبعـه بشر كثير ولكنه لم يكن فيهم حواري إلا اثنا عشر رجلاً ، وكان من الحواريين القَصّار والصيّـاد ، وكانوا عمالاً يعملون بأيـديهم ، وإن الحواريين من الأصفيـاء ، وإن عيسى حين رُفع كان ابن اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر ، وكانت نبوتـه ثلاثين شهراً ، وإن الله رفعـه بجسـده ، وإنـه حيّ الآن ، وسيرجع الى الـدنيـا فيكون فيهـا ملكاً ثم يموت كما يمـوت النـاس ، وقريـة عيسى تسمّى ناصرة ، وأصحابه يسمَّوْن الناصريين ، وكان يقال لعيسى : الناصري ، فلـذلـك سميت النصارى .

وبالإسناد عن أبي الوليد هشام بن عمار قال :

بلغني أنّ من آدم إلى يوم غرقت الأرض ألفي سنة ومئتي سنـة واثنتين وأربعين سنـة ، ومن يوم غرقت الأرض إلى أن ظهر إبراهيم ألف سنـة وخمس عشرة سنـة ، ومن أيـام إبراهيم إلى خروج بني إسرائيل من مصر أربعَ مئـة سنـة وثمـانين سنـة ، ومن خروج بني إسرائيـل إلى بنيان بيت المقدس سبعَ مئة سنة وستاً وأربعين سنة ، ومن بنيان بيتِ المقـدس إلى أن سبـاهم بخت نـاصر[1] أربعَ مئـة سنـة وعشرين سنـة ، ومن بخت نـاصر[1] الى خروج عيسى بن مريم ست مئة سنة وثلاثين سنـة وستـة أشهر ، ومن عيسى إلى أن بَعثَ الله محمـداً ﷺ بـالحق ست مئة سنة وإحدى وعشرين سنة .

وبسنده عن ابن شهاب

أن قريشـاً كانت تعـدّ قبل عـدد رسـول الله ﷺ من زمن الفيـل ، كانـوا يعـدّون بين الفيل وبين الفِجار أربعين سنة ، وكانوا يعدّون بين الفجار وبين وفـاة هشـام بن المغيرة ست سنين ، وكانوا يعدّون بين وفاة هشام وبين بنيان الكعبـة تسع سنين ، وكانوا يعـدون [٤/أ] بين بنيان الكعبة وبين أن خرج سيدنا رسول الله ﷺ إلى المـدينـة خمس عشرة سنـة ، منهـا خمس سنينِ قبل أن ينزّل عليه ثم كان العدد بعدُ .

---

(١) كذا في الأصل .

وبه عن كعب قال :

بدأ الله خلق السماوات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ثم جعل مع كل يوم ألف سنة .

وبإسناده عن الزهري والشعبي قالا :

لما هبط آدم من الجنة وانتشر ولده أرّخ بنوه من هبوط آدم ، فكان ذلك التاريخ حتى بعث الله نوحاً فأرّخوا ببعث نوح ، حتى كان الغرق فهلك مَن هلك ممن كان على وجه الأرض ، فلما هبط نوح وذريّته وكلٌّ مَن كان في السفينة إلى الأرض قسمَ الأرضَ بين ولده أثلاثاً : فجعل لسامٍ وسطاً من الأرض ، وفيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسَيْحان وجيحان وفَيْسون وذلك ما بين فَيْسون الى شرقي النيل ، وما بين مَنْخَر ريح[1] الجنوب إلى مَنْخَر الشمال ، وجعل لِحامٍ قسمة غربي النيل فما وراءه الى منخر ريح الدَّبور ، وجعل قسم يافث في فيسون فما وراءه الى منخر ريح الصَّبا . فكان التاريخ من الطوفان الى نار إبراهيم . فلما كثر ولد إسماعيل افترقوا : فأرّخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف ، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى ، ومن مبعث موسى إلى ملك سليمان ، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى ، ومن مبعث عيسى إلى مبعث سيدنا رسول الله ﷺ . وأرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم إلى بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل ثم أرّخوا من بناء البيت حتى تفرقت معدّ ، فكان كلما خرج قوم من تهامة أرّخوا مخرجهم ، ومن بقي بتهامة من بني إسماعيل يؤرخون من خروج مَعَدّ وفِهر وجُهينة من بني زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤي ، فأرّخوا من موت كعب بن لؤي إلى الفيل ، فكان التاريخ من الفيل حتى أرّخ عمر بن الخطاب من الهجرة ، وذلك سنة سبع عشرة أو ثمانٍ عشرة .

وبسندنا عنه عن مشايخه عن عبد العزيز بن عمران قال :

لم يزل للناس تأريخ ، كانوا يؤرخون في الدهر الأول من هبوط آدم من الجنة [٤/ب] لم يزل ذلك حتى بعث الله نوحاً فأرّخوا من دعاء نوح على قومه ، ثم أرّخوا من الطوفان ، ثم لم يزل كذلك حتى حُرّق إبراهيم فأرخوا من تحريق إبراهيم ، وأرّختْ بنو

---

(١) في الأصل والتاريخ : « الريح الجنوب » . وما أثبتناه من تاريخ الطبري ١٩٣/١ ، ومنخر الريح : موضع هبوبها .

إسماعيل من بنيان الكعبة ، ولم يزل كذلك حتى مات كعبُ بن لؤي فأرّخوا من موته فلم يزل كذلك حتى كان عام الفيل فأرّخوا من عام الفيل . ثم أرّخ المسلمون بعدُ من مُهاجَر سيدنا رسول الله ﷺ . وقد كان للعرب أيضاً تأريخ .

وقال أبو عبيدة :

لم يزل لفارس تأريخ يعرفون أمورهم به ، وتأريخ حسابهم منذ هلك يَزْدَجرد بن شهريار .

قال : ولبني إسرائيل تأريخ آخر بسنيّ ذي القرنين .

ذكر اختلاف الصحابة في التاريخ

وما نقل فيه من الاتفاق منهم

وباسنادنا عنه عن مشايخه عن الزهري

أنّ رسول الله ﷺ أرّخ التأريخ حين قدم المدينة في شهر ربيع الأول .

قال أبو حفص :

وقدم ﷺ المدينة يوم الاثنين ارتفاع النهار لثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

وعن ابن شهاب

أن النبي ﷺ أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع .

وقد رُوي ابتداء التأريخ ، ولم يبيَّن مَن أمر به .

قال : والمحفوظ أن الآمر بالتأريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وروي عن ابن عباس قال :

كان التأريخ في السنة التي قدم فيها رسول الله ﷺ المدينة .

وفي رواية عن محمد بن سهل والبخاري :

وفيها ولد عبد الله بن الزبير .

وبسنده عن عمرو بن دينار قال :

كان التأريخ في عشر سنين من سني رسول الله ﷺ ، وفي تلك السنة ولد ابن الزبير .

وبسنده عن سهل بن سعد قال :

أخطأ الناس العدد ، لم يعدّوا من مبعث النبي ﷺ ، ولم يعدّوا من متوفاه ، إنما عدّوا من مَقْدَمه المدينةَ .

وكان تأريخ قريش في الجاهلية بمكة من مُتَوَفّى هشام بن المغيرة .

وبسنده عن ميمون بن مهران [٥ / أ] قال :

وقع إلى عمر رضي الله عنه صكٌ مَحِلُّه[1] في شعبان فقال عمر : أي شعبان هذا ؟ الذي مضى أو الذي هو آت أو الذي نحن فيه ؟ ثم جمع أصحابَ رسول الله ﷺ فقال لهم : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه فقال قائل : اكتبوا على تأريخ الروم ، فقيل : إنه يطول ، وإنهم يكتبون من عدد ذي القرنين ، وقال قائل : اكتبوا على تأريخ الفرس ، فقيل : إن الفرس كلما قام ملك طرحَ ما كان قبله ، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ، فوجدوه أقام بها عشر سنين فكَتَب أو فكُتب التأريخ على هجرة رسول الله ﷺ .

وبسنده عن ابن سيرين

أنّ رجلاً من المسلمين قدم من أرض اليمن فقال لعمر : رأيت شيئاً يسمونه التأريخ ، يكتبون من عام كذا وشهر كذا ، فقال عمر : إن هذا لحسنٌ فأرّخوا ، فلما أجمع على أن يؤرخ شاور ، فقال قوم : مولد النبي ﷺ ، وقال قوم : بالمبعث ، وقال قائل : حين خرج مهاجراً من مكة وقال قائل : الوفاة حين توفي . فقال : أرّخوا خروجَه من مكة إلى المدينة . ثم قال : بأيّ شهر نبدأ فنصيّره أوّلَ السنة ؟ فقالوا : رجب ، فإنّ أهل الجاهلية كانوا يعظمونه ، وقال آخرون : شهر رمضان ، وقال بعضهم : ذو الحجة فيه الحج ، وقال آخرون : الشهر الذي خرج من مكة ، وقال آخرون : الشهر الذي قدم فيه . فقال عثمان : أرّخوا المحرّم أول السنة ، وهو شهر حرام ، وهو أول الشهور في العدّة ، وهو منصرف الناس عن الحج ، فصيّروا أول السنة المحرم فكان أول ما أرخ في الإسلام من مهاجَرِ النبي ﷺ ، فقال الناس : سنة إحدى وسنة اثنتين إلى يومنا هذا ، وكان التأريخ في سنة سبع عشرة ، ويقال في سنة ست عشرة في ربيع الأول .

---

(١) حَلَّ الدَّيْنَ يحِلُّ : وجب ، وحان مَحِلّ الدَّيْن . « أساس البلاغة » .

وعن ابن المسيب قال :

أوّلُ مَنْ كتب التاريخ عمر ، لسنتين ونصف من خلافته ، فكتبه لستٍّ عشرةَ من المحرم ، بمشورةٍ من علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما .

وعن محمد بن عمر قال :

حجّ عمر في سنة [٥ / ب] ستٍّ عشرةَ وخلَّف على المدينة زيد بن ثابت ، وفيها كُتب التأريخ في شهر ربيع الأول ، يعني أن في ربيع الأول كُتب التأريخ لا أنّه جُعل ابتداء التأريخ من ربيع الأول ، وإنما جُعل من المحرم .

ذكر تاريخ الهجرة

وبإسناده عن أبي حفص الفَلاَّس :

قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين ، ارتفاعَ النهار لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .

وعن يزيد بن أبي حبيب

أنّ النبي ﷺ أقام بمكة عشراً ، وخرج منها في صَفَر ، وقدم المدينة في شهر ربيع الأول .

وقال ابن القَوّاس :

كان أول المحرم سنة الهجرة ، يوم الخميس اليوم السابع عشر من أفروردين ماه سنة ثلاث وثلاثين لكسرى ابرواز ، واليوم الثامن من أيار سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة لذي القرنين .

القول في اشتقاق تسمية الأيام والشهور

وعن ابن عباس قال :

إن الله تعالى خلق يوماً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ثم خلق خامساً فسماه الخميس . فخلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، ولذلك يقول الناس : يوم ثقيل ، وخلق موضع القرى والأشجار يوم الأربعاء ، وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس ، وخلق الإنسان يوم الجمعة ، وفرغ من الخلق يوم السبت .

وعن أبي عمرو بن العلاء المقرئ :

كانت العرب في الجاهلية يسمُّون الأحد أوّلَ ، والاثنين أهْوَن ، والثلاثاء دِبار[1]، والأربعاء جُبار ، والخميس مُؤنِس ، والجمعة عَرُوبَة ، والسبت شِيار .

قال : وكان أبو عمرو بن العلاء يقول :

إنما سُمّيَ المحرمُ لأنّ القتالَ حُرّم فيه ، وصَفَرٌ لأن العرب كانت تنزل فيه بلاداً يقال لها صَفَر[2]، وشهرا ربيعٍ كانوا [٦ / أ] يَرْبَعُون فيهما ، وجُمادَيان كان يَجْمدُ الماء فيهما ، ورَجَبٌ كانوا يُرَجّبون فيه النخلَ ، وشعبانٌ تَشَعَّبتْ فيه القبائل ، ورمضانٌ رَمَضَتْ فيه الفِصال من الحرّ[3]، وشَوّالٌ شالَتْ الإبل بأذْنابها للضِراب ، وذو القعدة قعدوا فيه عن القتال ، وذو الحجة كانوا يحجّون فيه . فأما أول السنة فالمحرّم .

---

(١) في اللسان والقاموس « جبر ، دبر » : الثلاثاء جبار والأربعاء دبار . ودبار فيهما بالضم أو بالكسر .

(٢) هو جبل بنجد . معجم البلدان والمشترك وضعاً « صفر » .

(٣) قال ابن الأثير : « وهي أن تحمى الرمضاء وهي الرمل فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها » النهاية واللسان « رمض » .

وبسنده عن ابن عباس

في قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾[1] قال : هو المحرم فجر السنة .

وبسنده عن عُبيد بن عُمير قال :

المحرم شهر الله ، وهو رأس السنة ، فيه يُكْسَى البيت ، ويُؤَرَّخُ التاريخ ، ويُضْرَبُ فيه الوَرِق ، وفيه يومٌ تابَ فيه قومٌ فتاب اللهُ عليهم .

---

(١) سورة الفجر ٨٩ / ١

السبب الذي حمل الأئمة

على أن قيّدوا المواليد وأرّخوا التواريخ

وبسندنا عنه عن مشايخه عن أبي عمر الخراساني قال : قال سفيان الثوري :

لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ . أو كما قال أبو عمر .

وبسنده عن حفص بن غياث قال :

إذا اتّهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين ، يعني احسبوا سنّه وسنّ من كتب عنه .

وقال حسان[1] بن زيد :

لم نستعن على الكذابين بمثل التاريخ ، تقول للشيخ : سنة كم ولدت ؟ فإذا أقرّ بمولده عرفنا صدقه من كذبه .

قال أبو حسان[2] الراوي :

فأخذتُ في التاريخ ، فأنا أعمله من ستين سنة .

قال الحسن بن الربيع :

قدمت بغداد فلما خرجتُ شيَّعَني أصحاب الحديث ، فلما برزتُ الى خارج ، قال لي أصحابُ الحديث : توقفْ فإن أحمد بن حنبل يجيء ، فتوقفت ، فجاء أحمد بن حنبل ، فقعد فأخرج ألواحه فقال : يا أبا علي أمْلِ عَليّ وفاةَ عبد الله بن المبارك ، في أي سنةٍ مات ؟ فقلت : سنة إحدى وثمانين ، فقيل له : ما تريد بهذا ؟ فقال : أريد الكذابين .

---

(١) في هامش الأصل « حماد بن زيد » ، وهو إشارة إلى أن ابن عساكر سيصحح اسم الراوي في آخر الخبر . انظر تاريخ دمشق نسخة الظاهرية ذات الرقم (٣٣٦٦) ق ١٢/ ب والمطبوع ٤٦/١

(٢) هو أبو حسان الزيادي « ابن عساكر » . مخطوطة الظاهرية » ١٢/ ب

قال أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ :

ينبغي لطالب الحديث ومَن عُني به أن يبدأ بكَتْبِ حديثِ بلده ، ومعرفة أهله ، وبفهمه وضبطه حتى يعلم صحيحه وسقيمه ، ويعرف أهل الحديث به وأحوالهم معرفة تامة [٦/ ب] إذا كان في بلده علمٌ وعلماءُ قديماً وحديثاً ، ثم يشتغل بعدُ بحديث البلدان والرحلة فيه .

ذكر أصل اشتقاق تسمية الشام

وبإسنادنا عنه عن مشايخه عن هشام بن محمد عن أبيه قال :

كان الذي عَقَدَ لهم ـ يعني ولد نوح عليه السلام ـ الألوية ببابل يوناطن[1] بن نوح ، فنزل بنو سام المَجْدَلَ سُرّةَ الأرض ، وهو فيما بين ساتيدَما إلى البحر ، وفيما بين اليمن إلى الشام ، وجعل الله النبوّةَ والكتابَ والجمالَ والأُدْمةَ والبياضَ فيهم ، ونزل بنو حام مجرى الجَنوب والدَّبور ويقال لتلك الناحية الدَّارُوم ، وجعل الله فيهم أُدْمةً وبياضاً قليلاً وأعمر بلادَهم وسماءهم ورفع عنهم الطاعون ، وجعل في أرضهم الأَثْل والأَراكَ والعُشَرَ والغافَ والنخلَ ، وجرت الشمس والقمر في سمائهم . ونزل بنو يافث الصَّفون مجرى الشمال والصَّبا ، وفيهم الحمرةُ والشقرةُ ، وأخلى الله أرضَهم فاشتدّ بردُها ، وأجلا سماءها ، فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية ، لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدي والفرقدين ، وابتُلوا بالطاعون ، ثم لحقتْ عاد بالشِّحْر ، فعليه هلكوا بوادٍ يقال له مُغيث ، فلحقت بعدهم مَهْرَة بالشِّحْرِ ، ولحقت عَبيل بموضع يثرب ، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عَبيلاً فنزلوا موضع الجُحْفَة ، فأقبل سيلٌ فاجتَحَفَهم فذهب بهم فسميت الجُحْفَة . ولحقت ثمودُ بالحِجْر وما يليه فهلكوا ثَمَّ . ولحقت طَسْم وجَدِيس باليمامة ، وإنما سميت اليمامة بامرأةٍ منهم ، فهلكوا . ولحقت أُمَيْم بأرض أُبار فهلكوا بها وهي بين اليمامة والشِّحْر ولا يصل إليها اليوم أحد ، غلبت عليها الجن ، وإنما سُمّيتْ أبار بأُبار بن أميم . ولحقتْ بنو يقطن بن عامر باليمن فسميت [٧/أ] اليمن حيث تيامَنوا إليها . ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشأم فسميت الشأم حين تشاءموا إليها ، وكانت الشأمُ يقال لها أرض بني كنعان ، ثم جاءت بنو إسرائيل فقتلوهم بها ، ونَفَوْهم عنها ، فكانت

---

(١) كذا في الأصل . وفي تاريخ الطبري ٢٠٨/١ : « بوناظر » .

الشـأم لبني إسرائيل ، ووثبت الروم على بني إسرائيل ، فقتلوهم وأجلَوْهم إلى العراق إلا قليـلاً منهم . وجاءت العربُ فغلبوا على الشام .

وكان فالغ ـ وهو فـالخ بن أرْفَخْشـذ بن سـام بن نوح ـ هو الـذي قسم الأرض بين بني نوح كما سمينا في الكتاب .

قال : ويقطن هو قحطان بن عـابر بن شـالخ . وطَسْم وأُميم وعِمْليق وهو عَريْب بنو لوذ[1] بن سام بن نوح . وثمود وجَديس ابنا جاثر[2] بن إرم بن سـام بن نوح . وعـادٌ وعَبيل ابنا عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح . والروم بنو لنطن[3] بن يونان بن يـافث بن نوح عليـه السلام .

قال أبو الجلد[4] :

الأرض أربعةٌ وعشرون ألف فرسخ ، منها ألفُ فرسخ للعرب ، ولسائر الناس البقيةُ .

قال :

والشـام فيـه وجهـان : يجوز أن يكون مـأخـوذاً من اليـد الشُؤْمَى : وهي اليسرى ، ويجوز أن يكون فُعلى من الشُؤْم ، وقد أشأم : أتى الشام .

وقال أبو الحسين بن فارس :

أمـا الشّـأم فهو فَعْلٌ من اليـد الشُؤْمى : وهي اليسرى ، يقـال : أخـذ شـأمـةً أتى على يسـاره ، وشـأمتُ القومَ ذهبتُ على شمالهم . وقـال قوم : هـو من شُـوم الإبـل وهي سـودهـا وحِضارها[5] هي البيض . ورجل شآمٍ من أهل الشام .

وقال ابن المقفّع :

سُمّيت الشام بسام بن نوح ، وسام اسمه بالسريانية شام وبالعبرانية شيم .

---

(١) في القاموس المحيط والمجلدة الأولى من ابن عـساكر ص ٧ : « لاوذ » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي تاريخ الطبري ٢٠٤/١ : « غاثر » .

(٣) رسمت اللفظة في المتن مضطربة وفوقها ضبة ، وفي الهامش مايلي : بيانه : لنطن .

(٤) عند ابن عساكر ٨/١ « أبي الخلد »

(٥) في الأصل بفتح الحاء والذي في اللسان « حضر » بالكسر .

وقال الكلبي :

سُمِّيت الشام بشاماتٍ لها حمر وسود وبيض ، ولم ينزلها سام قط .

وقيل :

سُمّيت الشام لأنها عن شمال الأرض كما أن اليمن أيمن الأرض .

وقالوا :

تشاءم للذين نزلوا الشام .

وقال بعض الرواة :

اسم الشام الأول سورية ، وكانت أرضَ بني إسرائيل ، قُسّمت على اثني عشر سهماً فصار لكل قسمٍ [٧/ب] تسعة أسباط ونصف في مدينةٍ يقال لها شامرين وهي من أرض فلسطين ، فصار إليها مَتْجَر العرب في ذلك الدهر ، ومنها كانت مِيرتُهم فسمَّوا الشام بشامرين ثم حذفوا فقالوا الشام .

ذكر تاريخ مدينة دمشق ومعرفة من بناها

قال إسحاق بن أيوب القرشي :

جَيْرون من بناء سليمان بن داود ، بَنَتْه الشياطين ، وكان الشيطان الذي بناه يُدعى جيرون ، وهي سقيفة مستطيلة على عُمُد ، وسقائف على عُمُد وحوله مدينة تُطيف بجيرون .

وقال خُصَيْف :

لما هبط نوح من السفينة وأشرف من جبل حِسْمَى[١] رأى تَلَّ حرّان[٢] بين نهرين : جلاب وديصان فأتى حرّانَ فخطّها ، ثم أتى دمشق فخطّها . فكانت حرّانُ أولَ مدينة خُطت بعد الطوفان ، ثم دمشق .

وقيل :

إن أصحاب الرسّ كانوا بحَضُور[٣] فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له حنظلة بن صفوان فكذّبوه وقتلوه ، فسار عاد بن عوص بن إرَم بن سام بن نوح بولده من الرَّسّ فنزل الأحقاف ، وأهلك الله أصحابَ الرَّسّ . وانتشر ولد عاد في اليمن كله ، وفشوا مع ذلك في الأرض ، حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص دمشق وهي مدينتها ، وسماها جيرون وهي إرم ذات العماد . وليس أعمدةُ الحجارة في موضع أكثرَ منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرَم بن سام بن نوح نبياً إلى عاد يعني إلى أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه فأهلكهم الله .

---

(١) حِسْمى : أرض ببادية الشام قرب تبوك (معجم البلدان)

(٢) تل حران قرية بالجزيرة على طريق الموصل والشام والروم ، بينها وبين الرها يوم وبينها وبين الرقة يومان

(٣) حضور : بلدة باليمن من أعمال زبيد

وقيل :

جَيْرون وبَريد كانا أخوين ، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد ، وهما اللذان يُعرف جَيْرون وبابُ البَريد بدمشق بهما .

وقال منصور بن يحيى بن سعيد الموصلي :

المدن القديمة : الكعبةُ ومصرُ ودمشقُ والجزيرةُ والأُبُلَّةُ[1] [٨/ أ] ونينَوَى[2] وحَرّانُ والسُّوسُ[3] الأقصى .

وقال وهب بن مُنَبه :

دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل ، وكان حبشيّاً وهبه له نمرود[4] بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق ، فسمّاها على اسمه ، وذلك بعد الغرق ، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له ، وسكنها الروم بعد ذلك بزمان .

وحكي :

أن بيوراسب الملك الكيوناني بنى مدينة بابل ، ومدينة صور ، ومدينة دمشق .

وحكى الدمشقيون قالوا :

كان في زمن معاوية بن أبي سفيان رجلٌ صالحٌ بدمشق وكان يقصده الخضر عليه السلام في أوقاتٍ يأتيه فيها ، فبلغ معاويةَ بن أبي سفيان ذلك فجاء إليه راجلاً فقال له : بلغني أن الخضر ينقطع إليك فأُحبّ أن تجمع بيني وبينه عندك ، فقال له : نعم ، فجاءه الخضر عليه السلام ، فسأله الرجل ذلك فأبى عليه وقال : ليس إلى ذلك سبيل . فعرّف الرجل ذلك لمعاوية فقال : قل له : قد قعدنا مع مَن هو خير منك وحدثناه وخاطبناه وهو محمد رسول الله ﷺ ، ولكن سَلْهُ عن ابتداء بناء دمشق ، كيف كان ؟ فقال : نعم ، صرتُ

---

(١) الأبلة بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة

(٢) نينوى : قرية بالموصل

(٣) السوس : بلدة بالمغرب

(٤) نمرود يجوز فيها الإهمال والاعجام كما في التاج « نمرد ونمرذ » .

إليها فرأيت موضعها بحراً مستجمعاً فيه المياه ، ثم غبت عنها خمس مئة سنة ، ثم صرت إليها فرأيتُها غيضةً ، ثم غبت عنها خمس مئة سنة ، ثم صرت إليها فرأيتها بحراً كعادتها الأولى ، ثم غبتُ عنها خمس مئة عام ، وصرتُ إليها فرأيتها قد ابتدئ فيها بالبناء ، ونَفرٌ يسيرٌ فيها .

وقال أبو البَخْتري :

ولد إبراهيم على رأس ثلاثة آلاف ومئة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة . قال : وذلك بعد بنيان دمشق بخمس سنين .

وقيل : إن دمشق بناها دمسقس غلام الاسكندر .

قالوا : لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السدّ بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسار يريد المغرب ، فلمّا أن بلغ الشام وصعد على عقبة دمّر أبصر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق وكان هذا [٨ / ب] الوادي الذي يجري فيه نهر دمشق غيضة أرز . والأُرزة التي وقعت في سنة ثلاث مئة وثلاث عشرة من بقايا تلك الغيضة . فلما نظر ذو القرنين إلى تلك الغيضة وكان هذا الماء ـ الذي في هذه الأنهار اليوم مفترق ـ مجتمعاً في وادٍ واحد . فأخذ الإسكندر ، ذو القرنين ، يتفكر كيف يبني فيه مدينة ، وكان أكثرُ فكرِه وتعجُّبه أنه نظر إلى جبل يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها ، وكان له غلام يقال له دمسقس على جميع ملكه . ولما نزل ذو القرنين من عقبة دمّر سار حتى نزل في موضع القرية المعروفة بيلدا من دمشق على ثلاثة أميال ، فلما نزل ذو القرنين أمر أن يحفر له في ذلك الموضع حَفيرة ، فلما فعلوا ذلك أمر أن يردّ التراب الذي أخرج منها إليها ، فلما ردّ التراب إليها لم تمتلئ الحَفيرة : فقال لغلامه دمسقس : ارحلْ فإني كنت نويت أن أُؤَسِّس في هذا الموضع مدينةً ، فأما إذ بان لي منه هذا فما يصلح أن يكون ها هنا مدينة . فقال له : لِمَ ؟ قال : إنْ بُنِيَ هاهنا مدينة فإنها ما يكون يكفي أهلَها زرعُها .

قال :

وعلامة ذلك أن أهل غوطة دمشق لا تكفيهم غلاّتهم حتى يشتروا لهم من المدينة ـ ورحل ذو القرنين حتى صار إلى البَثَنِيّة وحوران ، وأشرف على تلك السّعة ، ونظر إلى تلك التربة الحمراء ، فأمر أن يُناول من ذلك التراب ، فلما صار في يده أعجبه ، فأمر أن

ينزل هنـاك ، وأمر أن يُحْفَر في ذلـك الموضـع حَفيرة ، فلمـا حفروا أمر أن يُردَّ ذلـك التراب الذي حفروا الى المكان الـذي أُخرج منـه ، فردّوه ففضل منـه ترابٌ كثيرٌ ، فقـال ذو القرنين لغلامه دمسقس : ارجع إلى الموضع الذي فيه الأرز إلى ذلك الوادي فاقطع ذلك الشجر وابنِ على حافّةِ الوادي مدينةً وسمّها على اسمك ، فهنـاك يصلح أن يكون مـدينـة ، وهـذا الموضع بحرها[1] ومنه ميرتُها ـ يعني البَثَنِيَّةَ وحوران ـ فرجع دمسقس ورسم المدينة وبناها وعمل لها حصنـاً ، والمـدينـة التي كانت رسم دمسقس هي المـدينـة الـداخلـة ، وعمل لهـا ثلاثـة أبواب جيرون ، مع ثلاثة [٩ / أ] أبواب البريد ، مع باب الحديد الـذي في سوق الأسـاكفـة ، مع باب الفراديس الداخلة . هذه كانت المدينة ، إذا أغلقت هذه الأبواب فقد أغلقت المـدينـة ، وخارج هذه الأبواب كان مرعى فبناها دمسقس وسكنها ، ومات فيهـا . وكان قـد بنى هـذا الموضع الذي هو المسجد الجامع اليوم ، كنيسة يعبد الله فيها إلى أن مات .

وقيل :

إن الذي بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة ، وأن المشتري بيتُهُ دمشق ، وجعل لها سبعة أبواب ، وصوّر على كل باب أحد الكواكب السبعة ، وصوّر على بـاب كيسـان زحل ، فخربت الصور كلها التي كانت على الأبواب إلاّ باب كيسان ، فإن صورة زحل عليـه بـاقيـة الى الساعة .

وقيل :

باب كيسان لزحل ، باب شرقي للشمس ، باب تومـا للزهرة ، بـاب الصغير للمشتري ، باب الجابية للمريخ ، باب الفراديـس لعُطارد ، باب الفراديس الآخر المسدود للقمر .

ولما قدم عبد الله بن علي دمشق وحاصر أهلها ، فلما دخلها هـدم سورهـا ، فوقع منهـا حجر ، عليه مكتوبٌ باليونانية ، فأرسلوا خلف راهب ، فقالوا له : تقرأُ ما عليه ؟ فقـال : جيئوني بقيرٍ فطبعه على الحجر فإذا عليه مكتوب :

« ويلكِ إرمَ الجبابرة مَنْ رامك بسوءٍ قصمه اللهُ ، إذا وهى منك جيرونُ الغربي من باب

---

(١) البحر : الريف . والعرب تسمي المدن والقرى : بحاراً . اللسان : « بحر » .

البريد ، ويلكِ من الخمسة أعين ، نقضُ سورك على يَـدَيْـه ، بعـد أربعـة آلاف سنـة تعيشين رغداً ، فإذا وهى منك جيرون الشرقي أُديل لك ممن تعرض لك »

قـال : فـوجـدنـا الخمسـة أعين : عبـد الله بن علي بن عبـد الله ين عبـاس بن عبـد المطلب[1].

ويقال : إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد داخل المدينة على مسحة مسجد بيت المقدس ، وحمل أبواب مسجد بيت المقـدس فوضعهـا على أبوابـه ، فهـذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب مسجد بيت المقدس .

---

(١) الخبر في قرة العيون في أخبار باب جيرون ٨

[اشتقاق تسمية دمشق]

وأما اشتقاق تسمية دمشق فقيل : دمشق فِعَلّ ، من قول العرب : ناقة دَمْشَق اللحم ، إذا كانت خفيفة . [٩ / ب] . ويقال : إن سيف الدولة سأل عن دمشق : هل يقال فيها دِمَشْقة[١] أم لا ؟ فأجيب إنها لا يقال إلا بغير هاء ، فأعاد الجواب : إن عبد الرحمن بن حنبل[٢] الجمحي قال وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق[٣]: [الطويل]

أبلغْ أبا سفيانَ عنّا بأنّنا على خيرِ حالٍ كانَ جيشٌ يكونها
وأنّا على بابَيْ دِمَشْقَةَ نَرْتَمي وقد حان من بابَيْ دِمَشْقَةَ حَيْنُها

وقيل : إن رجلاً من حكماء الروم قال : إنّما سميت دمشق بالرومية وإن أصل اسمها دوومسكس أي مسكٌ مضاعفٌ لطيبها لأن (دوو) للتضعيف و (مسكس) هو المِسْك ، ثم عُرّبت ، فقيل : دمشق .

ويقال : إنه ولد لإسماعيل بن إبراهيم اثنا عشر رجلاً ، فسمّاهم ، قالا[٤]: ودمّا ، وهو ديما ، وبه سُمّيتْ دُومة الجندل .

وولد للوط أربعة بنين وابنتان ، فأما البنون فاسمهم : مُآب وعمّان وجُلان ، وملكان ، والبنات زغر والريّة . فعمّان مدينة البلقاء سُمّيت بعمّان بن لوط ، ومآب البلقاء سُمّيت بمآب بن لوط ، وعين زُغَر سميت بزُغَر بنت لوط ، والريّة سُمّيت بالريّة بنت لوط .

---

(١) في الحاشية بخط مخالف : « انما قصد دمشقة لأجل الوزن ، والمشهور دمشق بغير هاء والله أعلم »

(٢) في اسم أبيه خلاف عرضه الزركليّ في الأعلام ـ ط دار العلم للملايين ـ ٣ / ٣٠٥ ورجح « حنبل » التي وردت في الأصل دون نقط .

(٣) البيتان في الإصابة ٢ / ٣٩٥

(٤) أي ابن إسحاق والكلبي . وانظر الخبر في طبقات ابن سعد ١ / ٥١

ويقال : سُمّيت صَيْدا التي بالشام بصَيْدون بن صدقا بن كنعان بن حام بن نوح(١)، وهو أول مَنْ وَلَدَهُ إرَم(١)، وسميت أريحا التي بالشام بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وسُمّيت البلقاء ببالق بن عمان بن لوط لأنه بناها وسكنها .

ويقال : البلقاء من عمل دمشق سُمّيت ببلقاء بن شويرة من بني عَمَّان بن لوط ، وهو بناها

ويقال : ولد للوط أربعة ، رجلان مُآب وعمّان ، وامرأتان : زُغَر والريّة . فعمّان مدينة البلقاء سميت بعمّان بن لوط ، ومآب من مدائن البلقاء سُميّت بمآب بن لوط ، وزغر سميت بزُغر ابنة لوط ، والريّة بريّة بنت لوط .

ويقال : إن الكسوة إنما سميت بذلك لأنّ غسان قَتَلَتْ بها رُسُلَ ملك الروم إليه لأخذ الجزية منهم واقتسمت [١٠ / أ] كسوتهم .

وأما مؤتة - مهموزة والهمزة ساكنة - فهي الأرض التي قُتل فيها جعفر بن أبي طالب . وجَيْرون : من قولك : جَرَنَ الشيءُ إذا املاسّ ، والجارن : الأملس من كل شيء .

وجِلّق من قولك : جَلَقَ راسَه إذا حلقه .

والجابية : من الجابية وهي الحوض ، والجمع جوابٍ .

وَأذْرُح من قولك : هو ذَرِيحيّ ، أي شديد الحمرة .

والبلقاء : من البَلَق .

وتدمرُ من قولك : دَمَر أي دخل .

وبيروت : فَيْعول من البُرْت وهو الرجل الدّليل .

وجَبَلة : من الجبل ، وكل شيء اجتمع وعَظُمَ فهو جبل .

وصُور : جمعٌ من جمع صورة ، ويقال : هو من صارَهُ يصُورهُ أي أماله .

وعكّا من قولك : عككْتُه : أي حبستُه ، والعَكّة : شدة الحر .

(١ - ١) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل .

حث النبي ﷺ أمته على سكنى الشام
وإخباره بتكفل الله عز وجل لمن سكنه من أهل الإسلام

وبإسنادنا عن المصنف عن مشايخه عن عبد الله بن حَوالة قال : قال رسول الله ﷺ :

إنكم ستُجنَّدون أجناداً ، جنداً في الشـام ، وجنـداً في العراق ، وجنـداً بـاليمن . قـال : قلت : يا رسول الله : خِرِ لي . قـال : عليكم بـالشـام ، فمن أبى فليلحق بيمنـه ، وليستق من غُدره ، فإنّ الله قد تكفَّل لي بالشام وأهله .

قال سعيد بن عبد العزيز :

وكان ابنُ حَـوالـة رجـلاً من الأَزْد ، وكان مسكنـه الأردنّ ، وكان إذا حـدَّث بهـذا الحديث ، قال : وما تكفّل الله به فلا ضيعةَ عليه .

وفي رواية عبْد الله بن الأسقع قال :

عليكَ بالشام فإنها صفوةُ اللهِ من بلاده ، يسوق إليها صفوتَه من عباده .

وفي حديث آخر عن عبد الله بن حوالة الأزدي أنه قال :

يـا رسول الله ، خِرِ لي بلـداً أكون فيـه ، فلـو علمتُ أنـك تبقى لم أختر على قربـك ، قال : عليك بالشام ، ثلاثاً ، فلما رأى النبي ﷺ كراهيته إياها قـال : هل تـدري مـا يقول الله في الشـام ؟ إنّ الله يقول : يـا شـامُ يـدي عليـك ، يـاشـام [١٠/ ب] أنتِ صفوتي من بلادي ، أُدْخِلُ فيـك خيرةً من عِبـادي ، أنتِ سوط نقمتي وسـوط عـذابي ، أنتِ الأنـدر[1] ، وإليـك المَحْشَر . ورأيتُ ليلـةَ أُسْرِي بي عمـوداً أبيض كأنـه لـؤلـؤة تحملـه المـلائكـة ، قلت : ما تحملون ؟ قالوا : عمود الإسلام ، أُمْرنا أن نضعه بالشام ، وبينا أنا نـائم إذ رأيت الكتـاب

---

(١) الأندر : البيدر ، أو كُدْسُ القمح ، « القاموس »

اختُلِس من تحت وسادتي ، فظننتُ أنّ الله قَد تخلّى[1] من أهل الأرض ، فأتبعته بصري ، فإذا هو بين يدي حتى وُضع بالشام . فمن أبى فليلحق بيمنه ، وليستق من غُدُره ، فإن الله قد توكّل لي[2] بالشام وأهله .

وعن عبد الله بن حوالة قال :

كنا عند رسول الله ﷺ فشكونا إليه العريَ والفقرَ وقلّة الشيء ، فقال رسول الله ﷺ : أبشروا ، فوالله لأنا من كثرة الشيء أخوفني عليكم من قلته ، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله أرض فارس وأرض الروم وأرض حِمْير حتى تكونوا أجناداً ثلاثة : جنداً بالشام ، وجنداً باليمن ، وجنداً بالعراق ، وحتى يُعطَى الرجلُ المئةَ فيتسخّطها .

قال ابن حوالة :

قلتُ : يا رسول الله ، ومن يستطيع الشام وبه الروم ذوات القرون ؟ قال : والله ليفتحنها الله عليكم وليستخلفنّكم فيها حتى تظلّ العصابة البيضُ منهم قمصهم ، المحلّقة أقفاؤهم ، قياماً على الرُّوَيْجِلِ الأسود منكم المحلوق ، وما أمرهم من شيء فعلوه ، وإنّ بها اليوم رجالاً لأنتم أحقر في أعينهم من القِرْدان في أعجاز الإبل .

قال ابن حوالة :

فقلت : يا رسول الله ، اختر لي إن أدركني ذلك . قال : إني أختار لك الشام ، فإنه صفوةُ الله من بلاده ، وإليه يجتبي صفوتَهُ من عباده . يا أهل اليمن ، عليكم بالشام فإنّ صفوةَ الله من أرضه الشامُ ، ألا فمن أباه فليسق من غُدُر اليمن فإن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله .

قال أبو علقمة : فسمعت عبد الرحمن بن جبير يقول :

فعرف أصحاب رسول الله ﷺ [١١/ أ] نعت هذا الحديث في جَزْء بن سُهيل السُّلَمي وكان على الأعاجم في ذلك الزمان ، كان إذا راحوا إلى مسجدٍ نظروا إليه وإليهم قياماً حوله فعجبوا لنعتِ رسول الله ﷺ فيه وفيهم .

---

(١) تخلى منه وعنه . القاموس .

(٢) اللفظة مستدركة في هامش الأصل

قال أبو علقمة :

أقسم رسول الله ﷺ في هذا الحديث ثلاث مرات ، لا نعلم أنه أقسم في حديث مثله[1] .

وعن العرباض بن سارية السلمي عن النبي ﷺ

أنه قام يوماً في الناس فوعظهم موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوبُ وذرفتْ منها العيونُ فقال : أيها الناس ، يوشك أن تكونوا أجناداً مجندة ، جند بالشام ، وجند بالعراق ، وجند باليمن ، فقام عبد الله بن حوالة فقال : يا رسول الله ، إن أدركني ذلك فاختر لي ، قال إني أختار لك الشام فإنه عقر دار المسلمين وصفوة الله من بلاده ، يجتبي إليها صفوتَه من خلقه ، وأما أنتم[2] فعليكم بيمنكم اسقوا من غُدركم ، فإن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله .

وعن عبد الله بن حوالة قال :

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال : يا بن حوالة ، كيف أنتَ إذا أدركتك فتنةٌ تفورُ في أقطار الأرض كأنها صياصي[3] بقر ؟! قلت : ما تأمرني يا رسول الله ؟ قال : عليك بالشام .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

ستخرج نار من حضرموت ، أو من بحر حضرموت ، نار قَبْلَ يوم القيامة تحشر الناس . قال : قلنا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام .

وفي رواية : ستخرج نار من حضرموت تسوقُ الناسَ الى المَحْشَر تَقِيلُ إذا قالوا ، وتسير إذا ساروا .

وعن كعب قال :

توشك نارٌ تخرج من اليمن تسوق الناسَ الى الشام ، تغدو معهم إذا غَدَوْا وتروح معهم إذا راحوا ، فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام .

---

(١) الحديث كله في المعرفة والتاريخ ٢٨٨/٢ ـ ٢٩٠

(٢) كذا في الأصل ، وفي المجلدة الأولى ص ٧١ « وإمّا أبيتم » ولعلها أفضل .

(٣) صياصي : ج صيصة وهي قرن البقر « القاموس »

وعن بَهْزِ بن حَكِيم عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرّ :

إذا رأيتَ البناء قد بلغَ سَلْعاً فعليكَ بالشام . قال : فإنْ حِيلَ بيني وبين ذاك [١١/ ب] أفأضرب بسَيْفي من حال بيني وبين ذلك ؟ قال : لا ، ولكن اسمعْ وأَطِعْ ولو لعبدٍ حبشيّ مُجَدَّع .

وعن بَهْزِ بن حَكِيم عن أبيه عن جده قال :

قلتُ : يا رسولَ الله ، بأبي وأمي ، ما تأمرني ؟ خِر لي ، قال : ها هنا ، ونحا بيده نحو الشام ، إنكم محشورون رجالاً وركباناً تُجَرُّون على وجوهكم .

وعن حَكِيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :

تُحشرون ها هنا ـ وأومأ بيده إلى الشام ـ مشاةً وركباناً وعلى وجوهكم ، تُعرَضون على الله ، على أفواهكم الفِدام[١] ، فأول ما يُعرب عن أحدكم فخذه .

وعن معاوية بن حَيْدَة القشيري[٢]

أنه قدم على النبي ﷺ فقال : والذي بعثك بالحق ما خلصتُ إليك حتى حَلَفْتُ لقومي عَدَدَهَا ـ يعني أنامل كفيّه ـ تالله لا أتّبعك ولا أُومن بك ولا أصدّقك ، وإني أسألك بالله : بم بعثك ربُّك ؟ قال : بالاسلام . قال : وما الإسلامُ ؟ قال : أنْ تُسْلِم وجهَكَ لله ، وتخلّي له نفسَكَ . قال : فما حقُّ أزواجنا علينا ؟ قال : أَطعمْ إذا طعمتَ ، واكسُ إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تُقَبِّح ولا تَهْجر إلا في البيت ، وكيف ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾[٣] ثم أشار قِبلَ الشام فقال : هاهنا تُحشرون ، هاهنا تُحشرون رُكباناً ورجالاً ، وعلى وجوهكم وأفواهكم الفِدام ، وأولُ شيء يُعرب عن أحدكم فخذه .

---

(١) قال ابن الأثير : الفدام ما يشدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه ، أي أنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم ، فشبه ذلك بالفدام . « النهاية فدم »

(٢) في الأصل : معاوية بن حكيم بن حيدة القشيري . وهو معاوية بن حيدة بن معاوية . روى عنه ابنه حكيم . انظر الإكال ٥٧٦/٢ .

(٣) سورة النساء ٤ / ٢٠

وعن عبد الله بن عباس قال :

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أريد الغزوَ في سبيل الله ، فقال : عليك بالشام ، فإن الله قد تكفَّل لي بالشام وأهلهِ . الزمْ من الشام عسقلانَ ، فإنها إذا دارت الرحا في أمتي كان أهلها في راحة وعافية .

وعن أبي أمامة قال :

لا تقوم الساعة حتى يتحوّل خيار أهل العراق إلى الشام ، ويتحول شِرارُ أهل الشام إلى العراق . وقال رسول الله ﷺ : عليكم بالشام .

وعن إياس بن معاوية قال : قال رسول الله [١٢ / أ] ﷺ :

إنَّ الله قد تكفلَّ لي بالشام وأهلِها ، وإنَّ إبليسَ أتى العراق فباضَ فيها وفرّخَ ، وأتى مصرَ فبسط عَبْقَرِيَّهُ[1] واتَّكأَ ، وقال : جبل الشام جبل الأنبياء .

قال : وهذا الحديث مرسل ومنقطع بين رواته

وعن أبي الضحاك قال :

أتيتُ ابن عمر فسألتهُ أين أنزل فقال : إنّ الناصيةَ[2] الأولى من أصحاب رسول الله ﷺ ساروا بأمر رسول الله ﷺ حتى نزلوا الشامَ ، ثم نزلوا حمص خاصةً ، فانظرْ ما كانوا عليه فأْته .

وعن عطاء الخراساني قال :

لما هممتُ بالنقلة من خراسان شاورتُ مَنْ بها من أهل العلم أين يرون أن أنزل بعيالي ، كلُّهم يقول لي عليك بالشام ، ثم أتيتُ البصرة فشاورت مَنْ بها : أين يرون لي أن أنزلَ بعيالي ؟ كلهم يقول : عليك بالشام . ثم أتيتُ الكوفةَ فشاورتُ مَنْ بها من أهل العلم أين يَرَوْنَ لي أن أنزل بعيالي ؟ فكلُّهم يقول لي : عليك بالشام . ثم أتيتُ مكةَ فشاورتُ مَنْ بها مِنْ أهل العلم أين يرون لي أن أنزل بعيالي ؟ فكلهم يقول لي : عليْك بالشام . ثم أتيتُ

---

(١) العبقري : ضرب من البُسُط « القاموس »

(٢) نواصي الناس : اشرافهم « القاموس »

المدينةَ فسألتُ مَنْ بها من أهل العلم : أين يرون لي أن أنزل بعيـالي ؟ فكلهم يقول : عليـك بالشام .

وعن عبد الرحمن بن سابط الجمحي قال :

قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : إن لي رحماً وقرابةً وإن منزلي قد نبـا بي بـالعراق والحجاز فَخِرْ لي فقال : أرضى لك ما أرضى لنفسي ولولدي . عليكَ بدمشق ثم عليك بمدينـة الأسباط بانياس ، فانها مباركةُ السهل والجبل ، نقل الله عنها أهلها حين بدّلوا تطهيراً لها .

بيان أن الإيمان يكون بالشام

عند وقوع الفتن والملاحم

عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ :

أُريتُ عمودَ الكتاب انتُزع من تحت وسادتي فذُهب به إلى الشام ، فأوّلتهُ المُلْكَ .

وزاد في حديث آخر :

ألا وإنّ الإيمان ، إذا وقعت الفتنُ ، بالشام .

[١٢ / ب] وعن مدرك بن عبد الله الأزدي قال :

غزونا مع معاوية مصر فنزلنا بلْبيس[١] فقال عبد الله بن عَمرو لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي أن أقوم على فرسي في الناس ؟ فأذِنَ ، فقام على فرسه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : رأيتُ في منامي أن عمودَ الكتاب حُمل من تحت وسادي ، فأتبعته بصري فإذا هو كالعمود من النور ، فعُمد به إلى الشام . ألا وإنّ الإيمان ، إذا وقعت الفتن ، بالشام ـ ثلاث مرات .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت :

هبَّ النبيُّ ﷺ من نومه مذعوراً وهو يُرَجِّع فقلتَ : مالكَ بأبي أنتَ وأُمّي ؟ فقال : سَلَّ عمودَ الإسلام من تحت رأسي فأوحشني ، ثم رميتُ ببصري فإذا هو قد غُرِز في الشام . فقيل لي : يا محمدُ ، إنّ اللهَ قد اختار لكَ الشام ولعباده ، فجعلها لكم عزًّا ومحشراً ومنعةً

(١) بلبيس ـ عند ياقوت بكسر البائين وعند البكري بفتح البائين ـ قال ياقوت : والعامة تقول بِلُبَيْس ، مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . وانظر معجم ما استعجم ، ومعجم البلدان .

وذكراً . مَن أراد الله به خيراً أسكنه الشام ، وأعطاه نصيباً منها . ومَن أراد به شرّاً أخرج سهماً من كنانته ، وهي معلقة في وسط الشام ـ وزاد في رواية : فرماه بها ـ فلم يسلم في دنيا ولا آخرة .

وعن عبد الله بن حوالة قال : قال رسول الله ﷺ :

رأيت ليلة أُسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، فقلت : ما تحملون ؟ فقالوا : عمود الإسلام ، أُمرنا أن نضعَهُ بالشام . وبينا أنا نائم رأيتُ عمود الكتاب اختُلِسَ من تحت وسادتي فظننتُ أنّ الله قد تخلّى من أهلِ الأرض فأتبعتهُ بصري ، وإذا هو نورٌ ساطع بين يديّ حتى وُضع بالشام .

فقال ابن حوالة : يا رسول الله ، خِر لي ، فقال : عليكَ بالشام .

وعن عبد الله بن حوالة قال :

فَخَرتُمْ يا أهلَ الشام أن قذفَ اللهُ بالفتن عن أيْمانِكم وعن شمائلكم ، والذي نفسُ ابن حوالة بيده لَيَقْذِفَنّكُمُ اللهُ بفتنةٍ يخرج منها زِيافكم[1].

وعن ابن شوذب قال :

تذاكرنا الشامَ . قال : فقلت لأبي سهل : أما بلغك أنه يكون [١٣ / أ] بها كذا ؟ قال : بلى ، ولكن ما كان بها فهو أيسر مما يكون بغيرها .

وقال كعب :

لن تزال الفتنة مَراماً بها مالم تبدُ مِنْ قِبَلِ الشام .

---

(١) درهم زَيْفٌ وزائفٌ ، رديء ، ج زِيافٌ وأزياف اللسان : « زيف » .

ما جاء عن النبي ﷺ

أنّ الشام عند وقوع الفتن عُقْرُ دار المؤمنين

عن سَلَمَة بن نُفَيْل الكِنْدي ، وكان قومه بعثوه وافداً إلى رسول الله ﷺ قال :

بينا أنا مع رسول الله ﷺ تمسّ ركبتي ركبته ، مُستقبلَ الشام بِوجهه ، مُولياً إلى اليمن ظهره - وفي حديث : مولياً ظهره إلى اليمن - إذ أتاه رجلٌ فقال : يا رسول الله ، أذال[1] الناسُ الخيلَ ، ووضَعوا السلاحَ ، وزعموا أنّ الحربَ قد وضعتْ أوزارَها . فقال رسولُ الله ﷺ :

كذبوا بل الآن جاء القتالُ . لا يزال قوم من أمتي يقاتلون على أمر الله عزّ وجلّ ، يزيغ الله بهم قلوبَ أقوامٍ ، وينصرهم عليهم ، حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمرُ الله . الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة . وهو يوحي إليّ أنني مقبوضٌ غير مُلَبَّث ، وأنّكم مُتبعيَّ أفْناداً[2] ، وعقرُ دار المؤمنين بالشام .

وعن كلثوم بن زياد أنه سمع سليمان بن حبيب يخبر

أن أبا الدرداء كان ممن تقدّم إلى حمص ، فبلغ عمر أنه أحدث بها بناء ، فكتب بردّه إلى دمشق ، فردّه فكان بها . فلما قُتل عمر أتاه جلساؤه من أهل حمص يسألونه الرجعة إلى حمص ، فتأبّى عليهم فاستشفعوا عليه بمعاوية ، فقال أبو الدرداء : يا معاوية ، أتأمرني بالخروج من عقر دار الإسلام ؟ !

عُقْر الشيء : أصله .

---

(١) « أذال الناس الخيل : أراد أنهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها » النهاية : ذيل .

(٢) أي ذوي فندٍ أي ذوي عجز وكفر للنعمة . وفي النهاية أي جماعات متفرقين قوماً بعد قوم واحدهم فَنَد . النهاية واللسان : « فند » .

ما جاء في أنّ الشام صفوة الله من بلاده

وإليها يجتبي خِيرتَه من عباده

عن أبي أمامة قال : قال النبي ﷺ :

صفوةُ اللهِ من أرضه الشامُ ، وفيها صفوتُه من خلقِه وعبادِه ، وليَدْخُلَنَّ الجنّـةَ من أمتي ثُلَّةٌ لا حسابَ عليهم ولا عذاب .

وعن أبي أمامة أيضا عن النبي ﷺ [١٣ / ب]قال :

الشـامُ صفوةُ اللهِ من بلاده ، يجتبي إليهـا صفوتَـه من عبـاده . فمن خرج من الشـام إلى غيرها فبسخطةٍ ، ومن دخلها من غيرها فبرحمةٍ .

وعن أنس بن مالك قال :

قلت للنبي ﷺ : يا رسولَ الله ، أينَ النـاسُ يومَ القيامـةِ ؟ فقـال : في خيرِ أرضِ الله وأحبِّها إليه : الشام ، وهي أرضُ فلسطين ـ والإسكندريةَ من خير الأَرضين ـ المقتولون فيها لا يبعثهم إلى غيرها ، فيها قُتلوا ومنها يُبْعثون ، ومنها يُحشرون ، ومنها يدخلون الجنة .

وعن علقمة قال :

قدم كعبٌ على عمرَ المدينةَ فقال له عمر : يا كعبُ ، مـا يمنعُـك من النزول بـالمـدينـةِ فإنّها مهاجَرُ رسول الله ﷺ وبها مدفَنُه . قال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّي وجدتُ في كتابِ الله المُنْزَل في التوراة أنّ الشّـامَ كنزُ الله في أرضـه ، وبهـا كنزُ الله من عبـاده . وأراد عمر العراق ، فقال له كعب : أُعيذُكَ بالله يا أميرَ المؤمنين من العراق ، فـإنّهـا أرضُ مكرٍ وأرضُ السحر ، وبها تسعةُ أعشار الشرّ ، وبها كلّ داءٍ عُضالٍ ، وبها كل شيطانٍ ماردٍ .

وعن كعب قال :

أَحَبُّ ـ يعني البلاد ـ إلى الله تعالى الشامُ ، وأحبُّ الشام إلى الله القدسُ ، وأحبُّ القدسِ إلى الله جبلُ نابلس . لَيَأْتيَنَّ على الناس زمانٌ يتماسحونه[1] بالحبال بينهم .

وعن كعب أنه كان يقول :

يا أهلَ الشام ، إنّ الناسَ يريدون أن يضعوكم ، واللهُ يرفعكم . وإن الله يتعاهدكم كما يتعاهدُ الرجلُ نَبْلَه في كنانته ، لأنها أحبُّ أرضِه إليه ، يُسكنها أحبَّ خلقه إليه ، من دخلها مرحومٌ ، ومن خرج منها فهو مغبونٌ .

وعن كعب أنّه قال :

مكتوبٌ في التوراة أنّ الشام كنزُ الله جلّ وعزّ من أرضه ، بها كنزُ الله عزّ وجلّ من عباده . يعني بها قبور الأنبياء : إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وعن وَهب بن منبّه قال :

إنّي لأجدُ تَرْدادَ الشامِ في الكتبِ حتى كأنّه ليس لله حاجة إلا بالشام .

وعن ثابت بن معبد [١٤ / أ] قال :

قال الله : يا شامُ ، أنتِ خِيْرتي من بلادي ، أُسْكنك خيرتي من عبادي .

---

(١) في التاج : تماسحا إذا تبايعا .

اختصاص الشام

ببسط ملائكة الرحمة أجنحتها عليها

عن زيد بن ثابت قال :

كنّا مع رسول الله ﷺ نؤلّف القرآن في الرقاع ، فقال رسول الله ﷺ : طوبى للشام . فقلنا : لأيٍّ ذلك ؟ قال : إن ملائكة الرحمن - وفي رواية : ملائكة الرحمة - باسطةٌ أجنحتها عليها .

وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ ونحن عنده :

طوبى للشامِ . فقلنا : ما بالهُ يا رسولَ الله ؟ قال : إنَّ الرحمنَ لباسطٌ رحمتَه عليه .

وعن واثلة بن الأسقع قال :

إنّ الملائكةَ تَغْشى مدينَتَكم هذه ، يعني دمشقَ ، ليلةَ الجمعة ، فإذا كانَ بكرة افترقوا على أبواب دمشق براياتهم وبنودهم فيكونون سبعين رجلا ، ثم ارتفعوا . ويدعون الله لهم : اللهم اشفِ مريضَهم ، وردَّ غائبَهم .

دعاء النبي ﷺ للشام بالبركة

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

اللّهم باركْ لنا في مدينتنا ، وفي صاعنا وفي مُدّنا ، وفي يَمننا وفي شامنا ، فقال رجلٌ : يا رسولَ الله ؛ وفي عراقنا ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي صاعنا وفي مُدِّنا ، وفي يمننا وفي شامنا ، فقال رجل : يا رسولَ الله : وفي عراقنا ؟ فقال رسول الله ﷺ بها الزلازلُ والفتنَ ، ومنها يطلع قرنَ الشيطان - وفي رواية : قرنا الشيطان .

وعن عبد الله بن عمر قال :

صلّى رسولُ الله ﷺ صلاةَ الفجر ثم انفتل[1] ، فأقبلَ على القوم فقال : اللهم باركْ لنا في مدينتنا ، وباركْ لنا في مُدِّنا وصاعنا ، اللهم بارك لنا في حَرَمِنا ، وباركْ لنا في شامنا ويَمَننا ، فقال رجل : والعراق يا رسول الله ؟ فسكتَ ، ثم أعادَ فقال : اللهم باركْ لنا في مدينتنا ، وباركْ [١٤ / ب] لنا في مُدّنا وصاعِنا ، اللهم بارك لنا في حَرَمِنا ، وبارك لنا في شامِنا ويَمَننا . قال : قال رجل : والعراق يا رسول الله ؟ ! قال : فسكت ثم أعاد فقال : اللهمَّ بارك لنا في مدينتنا ، وباركْ لنا في مُدِّنا وصاعنا . اللهمّ باركْ لنا في حرمنا ، وباركْ لنا في شامِنا ويمننا . قال : قال رجلٌ : والعراق يا رسول الله ! قال ؟! مِن ثَمَّ يطلعُ قَرنُ الشيطان وتهيج الفتنُ .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال :

اللّهم باركْ لنا في شامنا ، اللّهم باركْ لنا في يمننا ، قال : قالوا : وفي نجدنا ؟ قال : هنالك الزلازلُ والفتنُ وبها يخرج قرنُ الشيطان .

---

(١) انفتل : انصرف « اللسان » .

وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال :

اللهمَّ باركْ لنا في مكّتنا ، وباركْ لنا في مدينتنا ، وباركْ لنا في شامِنا ، وبارك لنا في يَمَنِنا ، وباركْ لنا في صاعِنا ، وبارك لنا في مُدِّنا ، فقال رجلٌ : يا رسولَ الله ، العراق ومصر ؟! فقال : هناك يَنبت قرنُ الشيطان ، وثَمَّ الزلازلُ والفتنُ .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال :

اللهمّ باركْ لنا في شامنا ويَمَنِنا ، فقال رجلٌ : وفي مشرقنا يا رسول الله ؟! قال : من هناك يطلعُ قرنُ الشيطان ، وبها تسعة أعشارِ الشرِّ .

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

اللهمّ باركْ لنا في مدينتنا ، وفي صاعنا ومُدِّنا ، ويمننا وشامِنا ، ثم استقبلَ مطلع الشمس فقال : من هاهنا يطلعُ قرنُ الشيطان ، من ها هنا الزلازلُ والفِتَنُ - وفي رواية : والفَدّادون[1] .

وعن معاذ بن جبل قال : قال النبي ﷺ :

اللهمَّ باركْ لنا في صاعنا ومُدِّنا ، وفي شامِنا وفي يَمَنِنا وفي حِجازنا . قال : فقام إليه رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ، وفي عراقنا ؟! فأمسكَ النبيُّ ﷺ عنه ، فلما كان في اليوم الثاني قال مثلَ ذلك . فقام إليه الرجل[2] فقال : يا رسولَ الله ، وفي عراقنا ؟! فأمسكَ النبيُّ ﷺ عنه ، فلما كان في اليوم الثالث قام إليه الرجلُ فقال : يا رسول الله ، وفي عراقنا ؟! فأمسكَ النبيُّ ﷺ عنه [١٥ / أ] فولّى الرجلُ وهو يبكي ، فدعاه النبي ﷺ ، فقال : أَمِنَ العراقِ أنتَ ؟ قال : نعم ، قال : إنّ أبي إبراهيم عليه السلام همّ أن يدعو عليهم فأوحى اللهُ تعالى إليه : لا تفعلْ ، فإنّي جعلتُ خزائنَ علمي فيهم ، وأسكنتُ الرحمةَ قلوبَهم .

وعن ابن عباس قال :

دعا نبيُّ الله ﷺ فقال : اللّهم باركْ لنا في صاعنا ومُدِّنا ، وباركْ لنا في مَكّتِنا

---

(١) الفدادون : الجمّالون والرعيان والبقّارون والحمّارون والفلاحون وأصحاب الوبر الذين تعلو أصواتهم . وفي الحديث :« هلكَ الفدادون لأنهم جفاة وأهل خيلاء » . « القاموس ، واللسان ، والنهاية : فدن .

(٢) في الأصل : رجل والتصويب من تاريخ بغداد ١ / ٢٤ ـ ٢٥

ومَدِينتنا ، وباركْ لنا في شامِنا ويَمَنِنـا ، فقـال رجل من القوم : يـا نبيَّ اللهِ ، وعراقنـا ؟!
فقال : إن هنا يطلع قَرْنُ الشيطان وتهيجُ الفتنُ ، وإن الجفاء بالمشرق .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ :

اللهمَّ باركْ لنا في مدينتنا ، اللهمَّ باركْ لنا في شامنا ، اللهمَّ باركْ لنا في يَمَنِنا ، فقـال له رجل : يا رسولَ الله ، فالعراق ؟! فإنَّ فيها ميرتَنَا وفيها حاجاتُنـا . قـال : فسكتَ ، ثم أعادَ عليه فسكتَ ، فقال : بها يطلعُ قرنا الشيطان ، وهناك الزلازلُ والفتنُ .

بيان أنّ الشّام أرض مباركة

عن زهير بن محمد قال : حُدثتُ أن رسول الله ﷺ قال :

إنَّ اللّهَ تعالى باركَ ما بين العريشِ والفراتِ ، وخَصّ فلسطينَ بالتقديسِ - يعني التطهُّر .

وعن أبي بن كعب :

﴿ ونَجَّيْناهُ وَلُوطاً إلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنا فِيها ﴾[1] قال : الشام . وما من ماءٍ عذبٍ إلا يخرجُ من تلك الصخرةِ التي ببيتِ المقدسِ .

وعن ابن عباس

في قول الله عزّ وجلّ ﴿ وجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يعني بين مساكنهم[2] ﴿ وبَيْنَ القُرَى الَّتي بارَكْنا فيها ﴾ يعني : الأرضَ المقدَّسة ﴿ قرًى ﴾ فيما بين منازلهم والأرض المقدسة ﴿ ظاهِرَةً ﴾ يعني : عامرة مُخصبة ﴿ وَقَدَّرْنا فيها السَّيْر ﴾ يعني : فيما بين مساكنهم وبين أرض الشام ﴿ سيرُوا فيها ﴾[3] يعني : إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من المقدسة .

وقال معاوية بن أبي سفيان :

إن ربَّكَ قال لإبراهيم : اعمر من العريش إلى الفرات [١٥ / ب] الأرض المباركة . وكان أول من اخْتَتَنَ وقَرى الضيفَ . واخْتَتَنَ وهو ابنُ ثمانين سنةً .

وعن سفيان

في قول الله عز وجل ﴿ وَأَوْرَثْنا القَوْمَ الذّين كانُوا يُسْتَضْعَفونَ مَشارِقَ الأرْضِ

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ / ٧

(٢) في الأصل : « بينهم ، وبين يعني مساكنهم » . سبق قلم .

(٣) سورة سبأ ٣٤ / ١٩

ومَغارِبَها ﴾[1] قال : الشام . وفي رواية عن الحسن قال : مشارق الشام ومَغاربَها .

وعن قتادة

في قوله تعالى ﴿ مشَارِقَ الأرضِ ومغارِبَها الّتي بَارَكْنَا فِيها ﴾ قال : التي بارك اللهُ فيها : الشّامُ .

وعنه

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنا بني إسرائيل مُبَوَّأ صدقٍ ﴾[2] قالَ : بَوَّأَهُمْ اللهُ تبارك وتعالى الشامَ وبيتَ المقدس .

وعن كعب الأحبار قال :

إنّ اللهَ تعالى باركَ في الشامِ من الفراتِ إلى العريش .

وعن كعب قال :

جاء إليه رجلٌ فقال : إني أريدُ الخروجَ أبتغي فضلَ الله . قال : عليك بالشام ، فإنّه ما نَقَص من بركة الأَرَضين يُزاد بالشام .

وعن أبي عبد الملك الجزري قال :

إذا كانت الدنيا في بلاءٍ وَقَحْطٍ كانَ الشامُ في رخاءٍ وعافية ، وإذا كان الشامُ في بلاءٍ وقَحْطٍ كانت فلسطينُ في رَخاءٍ وعافيةٍ[3]، وإذا كانتْ فلسطينُ في بلاءٍ وقَحْطٍ كانتْ بيتُ المقدسِ في رخاءٍ وعافية[3]. وقال : الشامُ مباركةٌ ، وفلسطينُ مقدّسةٌ ، وبيت المقدسِ قُدْس القُدْس .

وروي

أنَّ ذا القرنين لَمّا أَتى العراقَ استنكر قلبه ، فبعثَ إلى تراب الشام فأُتي به فجَلَس عليه فرجَع إليه ما كان يعرف من نفسه .

---

(١) سورة الأعراف ٧ / ١٣٧

(٢) سورة يونس ١٠ : ٩٣

(٣ ـ ٣) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل .

ماجاء في أنّ الشام
الأرض المقدسة المذكورة في القرآن

عن أبي حرب بن أبي الأسود الدئلي عن عمه قال :

لقيتُ أبا ذَرّ بالرَّبَذَة فقال : كنتُ نائماً في مسجد رسول الله ﷺ فمرَّ بي فضربني برِجْله ثم قال : لا أراك نائماً فيه ، فقلت : بأبي وأمي ، غلبَتْني عَيْني فنمتُ ، قال : كيف تصنعُ إذا أُخرجت منه ؟ قال : ألحق بالأرض المقدسة أرضِ الشّام . قال : فكيف تَصْنَع إذا أُخرجتَ منها ؟ قال : قلتُ : أرجع إليه . قال : فكيف تصنعُ إذا أُخرجتَ منه ؟ قال : قلتُ : آخذ سيفي ثم أضرب به . قال : أَو تَصْنَعُ خيراً من ذلك وأقربَ رُشْداً ؟ قال : تسمع لهم [١٦/أ] وتطيع وتنساقُ حيثما ساقوك . قال : فواللهِ لألقيَنَّ الله وأنا مطيعٌ لعثمانَ رضي الله عنه .

وعن أبي ذر قال :

جعَلَ رسولُ الله ﷺ يتلو عليّ هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرجاً ﴾[1] حتى فرغ من الآية . ثم قال : ياأبا ذَرّ ، لو أنّ الناسَ كلَّهم أخذوا بها لكفَتْهم . قال : فجعل يتلُوها ويُردّدها عليّ حتى نعستُ . ثم قال : ياأباذَرّ ، كيف تصنع إن أُخرجتَ من المدينة ؟ قال : قلتُ : إلى السعة والدعة أنطلق حتى أكونَ حمامةً من حَمام مكةَ . قال : فكيف تصنع إن أُخرجتَ من مكةَ ؟ قال : قلتُ : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدّسة . قال : فكيف تصنع إن أُخرجتَ من الشام ؟ قال : قلت : إذن والذي بعثَكَ بالحق أضعُ سيفي على عاتقي . قال : أَوَ خيرٌ من ذلك ؟ قال : تسمعُ وتطيعُ وإن كانَ عبداً حبشياً .

وعن عروة قال :

كان في كتابِ أبي بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد : أنِ اعجلْ إلى إخوانكم

---

(١) سورة الطلاق ٦٥ /٢

بالشام ، فوالله لقريةٌ من قُرى الأرض المقدسة يفتحها الله علينا أحبُّ إليّ من رُسْتاقٍ من رَساتيق العراق .

وعن قيس بن سَكَن قال : سمعتُ علياً ونحن بمَسْكِن[1] يقول :

يا معشر المسلمين المهاجرين ﴿ ادخُلوا الأرضَ المقدَّسةَ الّتي كَتَبَ اللهُ لكُمْ ولا تَرْتَدّوا على أدبارِكُم فتنقَلِبُوا خاسِرِيْن ﴾[2] قال : فتلكؤوا . قال : فلما رأى ذلك ، قال : أفٍ لكم ، إنّها سُنَّةٌ جرتْ عليكم .

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المفسِّر قال :

قولُه ﴿ يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ ﴾ [2] . قال قتادة : هي الشام كلها . وقال عكرمة والسُّدّي : هي أريحا . وقال الكلبي : دمشق وفلسطين . ومعنى المقدسة : المطهّرة ، وتلك الأرض طُهّرت من الشرك ، وجُعلت مسكناً وقراراً للأنبياء .

وعن ثور بن يزيد قال :

قُدْسُ الأرض الشامُ ، وقُدس الشام فلسطينُ ، وقُدْسُ فلسطينَ بيتُ المقدس ، وقُدْس بيت المقدس الجبلُ ، وقُدْسُ الجبل المسجدُ ، وقُدْس المسجد القبّةُ .

وعن وهب أنّه كان يقول :

[١٦/ب] إنّ اللهَ كتب للشام : إني قَدَّسْتُك وبارَكْتُك ، جعلتُ فيك مقامي وأنت صَفْوتي من بلادي ، وأنا سائقٌ إليك صفوتي من عبادي ، فاتّسعي لهم برزقك ومساكنك كما يتّسع الرحمُ إن وُضع فيه اثنان وَسِعَهُ ، وإنْ ثلاثةٌ مثل ذلك ، وعيني عليك بالظلّ والمطر ، من أول السنين إلى آخر الدهر ، فلن أنساك حتى أنسى يميني ، وحتى تنسى ذاتُ الرَّحم ما في رحمها .

وعن الوليد بن صالح قال :

في الكتاب الأوّل : إنّ الله عز وجل يقول : يا شامُ ، أنتِ الأنْدَرُ ، ومنكِ المَنْشَرُ ، وإليكِ المحشر . فيكِ ناري ونوري ، مَنْ دخلك رغبةً فيك فبرحمتي ، ومَنْ خرجَ رغبةً عنكِ فبسخطي ، تَتّسعُ لأهلها كما تَتّسِعُ الرحمُ للولد .

---

(١) موضع قريب من أوانا على نهر دُجيل عند دير الجاثليق « معجم البلدان »

(٢) سورة المائدة ٥ /٢٣

إعلام النبي ﷺ أمته
أن بالشام تسعة أعشار الخير

عن عبد الله بن عمر[1] قال : قال رسول الله ﷺ :

الخيرُ عشرةُ أعشار : تسعةٌ بالشام ، وواحدٌ في سائر البلدان ، والشرُّ عشرةُ أعشارٍ : واحدٌ بالشام ، وتسعةٌ في سائر البلدان . وإذا فَسَدَ أهلُ الشام فلا خير فيكم .

وعن عبد الله بن مسعود قال :

إنّكم بحيثُ تبلبلت الألسنَ بين بابل والحيرة . وإن تسعةَ أعشارِ الخير بالشام ، وعُشْر بغيرها ، وإن تسعةَ أعشارِ الشرِّ بغيرها ، وعُشْرٌ بها - وفي زيادة : وسيأتي عليكم زمانٌ يكون أحبٌّ مالِ الرجل فيه أحْمِرةٌ ينتقلُ عليها إلى الشّام .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

إذا كان سنةُ خمسٍ وثلاثين ومئة خرجَ مَرَدَةُ الشّياطين ، كان حَبَسهم سليمانُ بن داود في جزائر البحور ، فذهبَ منهم تسعةُ أعشارٍ إلى العراق يجادلونهم ، وعشرٌ بالشام - وفي بعض الروايات : يجادلونهم بالقرآن .

وعن كعب قال :

الخيرُ عشرةُ أجزاءٍ : فتسعةُ أجزاء [١٧ /أ] الخير في الشام ، وجزءٌ في سائر الأَرَضين .

وعن أبي إدريس قال :

قدمَ علينا عمرُ بن الخطاب الشامَ فقال : إنّي أُريد آتي العراق ، فقال له كعب الأحبار : أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين من ذلك . قال : وما تكره من ذلك ؟ قال : بها تسعةُ أعشارِ الشرِّ وكلُّ داءٍ عُضال ، وعُصاة الجن ، وهاروتُ [وماروتُ[2]] وبها باضَ إبليس وفرَّخ .

---

(١) كذا في الأصل ، وفي تاريخ ابن عساكر ١٤٢/١ : ابن عمرو .

(٢) ليست اللفظة في الأصل . والاستدراك من تاريخ ابن عساكر المطبوع ١٤٨/١ .

ما جاء في أنّ الشام مهاجر إبراهيم الخليل

وأنه من المواضع المختارة لإنزال التنزيل

عن شَهْر بن حَوْشَب قال :

لما جاءتنا بيعةُ يزيد بن معاويةَ قدمتُ الشامَ ، فأُخبرت بمقامٍ يقومه نَوْفٌ فجئْتهُ ، إذ جاء رجلٌ فانتبذ الناسَ ، عليه خميصةٌ ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نَوْفٌ أمسكَ عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : إنها ستكون هجرةٌ بعد هجرة ، ينحاز الناسُ إلى مُهاجَر إبراهيم ، لا يبقى في الأرض إلاّ شِرارُ أهلها ، تَلْفِظُهم أَرَضُوهم ، تَقْذَرُهم نفسُ الله ، تحشرهم النارُ مع القردةِ والخنازير تَبيتُ معهم إذا باتوا ، وتَقيلُ معهم إذا قالوا ، وتأكل مَن تَخَلَّفَ .

قال :وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : سيخرجُ أناسٌ من أمتي من قِبَل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوزُ تَراقيهم . كلما خرج منهم قرنٌ قُطع ، كلما خرج منهم قرنٌ قطع ـ حتى عدّدها زيادةً على عشرِ مرات ، كلما خرج منهم قرنٌ قُطع ـ حتى يخرجَ الدجّالُ في بقيَّتِهم .

وعن شَهْر بن حَوْشَب أيضاً قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول :

لقد رأيتُنا ، وما صاحبُ الدينار والدرهم بأحقٌ من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بأَخَرَةٍ نُهان ، وللدينارُ والدرهمُ أحبُّ إلى أحدنا من أخيه المُسلم . ولقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : لئن اتبَعتُمْ أذنابَ البقر ، وتبايعتُم بالعينَةِ[1] ، وتركتم الجهادَ في سبيل الله تبارك وتعالى ، ليُلزمنّكم الله عزّ وجلّ مَذلةً في أعناقكم ، لا تُنزع منكم حتى ترجعوا إلى ماكنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل .

---

(١) وهي أن يبيع التاجر سلعة بثمنٍ إلى أجل ثم يشتريها بأقلّ من ذلك الثمن « القاموس والنهاية » .

وسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : لَتَكونَنّ [١٧ /ب] هجرة بعد هجرة إلى مُهاجَر أبيكم إبراهيم ﷺ حتى لا يبقى في الأرَضين إلا شرارُ أهلها ، وتلفِظُهمْ أرَضُوهم ، وتَقذَرُهم روحُ الرحمن ، وتحشرُهم النار مع القِردةِ والخنازير ، تَقيلُ حيثُ يَقيلون ، وتَبيتُ حيث يَبيتون ، وما سقط منهم فلها .

ولقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : يخرجُ من أُمَّتي قومٌ يُسيئون الأعمالَ ، يقرؤون القرآن لا يُجاوزُ حناجرهم يحقِرُ أحدُكم عمله مع عملهم ، يقتلون أهل الإسلام . فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم . فطوبى لمن قَتَلهم ، وطوبى لمنْ قتلوه . كلما طَلَعَ منهم قرنٌ قَطَعه الله تبارك وتعالى . فردّد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرةً أو أكثر ، وأنا أسمع .

وفي حديث آخر : حتى يخرجَ في أُخرامهم الدّجالُ .

وعن قتادة

في قوله تعالى : ﴿ إنّي مُهَاجِرٌ إلى رَبّي ﴾ [١] . قال : إلى الشام كان مهاجَرُهُ .

وعن كعب الأحبار قال :

يوشكُ بالرّعدِ والبرقِ أن يُهاجرَ إلى الشام ، حتى لا تكون رَعدةٌ ولا بَرْقةٌ إلا ما بين العريش والفرات .

وعن الأوزاعي قال :

يهاجِرُ الرعدُ والبرقُ إلى مُهاجَر إبراهيم ، حتى لا تَبْقى قطرةٌ إلا فيما بين العريش والفرات .

[٢] وعن شُريح بن سراج الحنفي عن عباد بن منصور قال :

كنا عنده فنشأت سحابة برعد وبرق وظلمة فقال : حدثنا أبو قِلابة[٢] أنّ الرعدَ والبرقَ سيُهاجر من أرض العراق إلى أرض الشام ، حتى لا يبقى بها رعدٌ ولا برق .

---

(١) العنكبوت ٢٩ /٢٦

(٢ - ٢) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل

وعن ضَمْرة بن ربيعة قال :

سمعتَ أنّه لم يُبعث نبيٌّ إلاّ من الشام . فإن لم يكن منها أُسْرِيَ به إليها .

وعن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال :

أُنزِلَتْ عليَّ النبوة في ثلاثةِ أمكنة : بمكة وبالمدينةِ وبالشام .

وفي رواية أخرى قال :

أُنزلَ القرآن في ثلاثة أمكنةٍ : مكة والمدينة والشام .

قال الوليد :

يعني بيتَ المقدس .

اختصاص الشام بالإضاءة عند مولد النبي ﷺ

عن أبي أمامة قال :

قيل : يارسولَ الله ما كان بدءُ أمرِكَ ؟ قال : دعوةُ أَبي إبراهيم [١٨ / أ] وبشرى أخي عيسى عليه السلام ، ورأتْ أمي كأنَّها خرج منها شيْء أضاءتْ له قصورُ الشام .

وعن عِرْباض بن سارية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إني عبدَ الله وخاتِمُ النبيين ، وإنّ آدمَ لمنجدلٌ في طينته ، وسأخبركم عن ذلك : دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأتْ ، وكذلك أمهاتُ النبيين يَرَيْنَ .

قال [في][1] رواية : وإنّ أمَّ رسول الله ﷺ رأتْ حين وضعته نوراً أضاءتْ له[2] قصورَ الشام .

وعن عُتْبة بن عَبْد أنَّه حدثهم

أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يا نبيَّ الله ؟ فقال : كانت حاضِنتي من بني بكر بن سعد[3] ، فانطلقتُ أنا وابنٌ لها في بَهمٍ لنا ولم نأخذْ معنا زاداً ، فقلت لأخي : يا أخي اذهب فأْتنا بزادٍ من عند أُمّنا فذهبَ أخي ، ومكثت أنا عند البَهم ، فأقبل إليَّ طيران أبيضان كأنها نسران ، فقال أحدهما لصاحبه :أهو هو ؟ فقال الآخر : نعم . قال فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني للقفا ، فشقّا بطني فاستخرجا قلبي ، فشقّاه فأخرجا منه عَلَقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج ، فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد فغسلا به قلبي . ثم قال : ائتني بالسّكينة ، فذرّها في قلبي ثم أطبقه . قال

---

(١) ليست اللفظة في الأصل .

(٢) في الأصل : « لها » . وأثبتنا مافي تاريخ ابن عساكر ١ / ١٥٨

(٣) صحح ابن عساكر الاسم في نهاية الخبر : « كذا قال . والصواب : سعد بن بكر » .

أحدهما لصاحبه : حُصه[1] فحاصه ، وختم عليه بخاتَم النبوة . فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كِفّة ، واجعل ألفاً من أمته في كِفّة فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي ، أُشفق أن يخرّ عليّ بعضهم . فقال أحدهما لصاحبه : لو أنّ أمَّته وزنَتْ به لَمال بهم . ثم انطلقا وتركاني ، وفَرِقتُ فَرَقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيتُ ، فأشفقتْ أن يكون قد التُبِسَ بي ، فقالت : أُعيذُكَ بالله ، فرحّلت بعيراً لها فحملتني على الرحل ، وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي ، فقالت : قد أدَّيْتُ أمانتي وذمّتي ، وحَدَّثْتُها بالحديث الذي لقيتُ ، فلم يَرُعْها ذلك وقالت : إني رأيتُ خرج منيّ نورٌ أضاءَ له قصورُ الشامِ[2] .

[١٨ / ب] وعن عثمان بن أبي العاتكة وغيره

أنّ آمنة بنت وهب لما وضعته كفأت عليه بُرمةً حتى تتفرغ له . قالوا : فوجدت البُرْمة قد انشَقَّتْ عن نورٍ أضاءتْ منه لها عن قصورٍ كثيرةٍ من قصورِ الشام .

وعن الضحاك ـ وهو ابن مزاحم الهلالي ـ أن النبي ﷺ قال :

أنا دعوةُ إبراهيم ، قال وهو يرفع القواعد من البيت : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾[3] حتى أتمّ الآية .

قال البيهقي :

إنما أراد ، واللهُ أعلم ، أنه كذلك في قضاء الله وتقديره قبل أن يكون آدم عليه السلام . وأما دعوة إبراهيم عليه السلام فإنه لما أخذ في بناء البَيْتِ دعا الله تعالى فقال : ﴿ رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحكمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[3] فاستجاب اللهُ دعاءه في نبيّنا محمد ﷺ . وأما بشارةُ عيسى عليه السلام به فهو أن الله تعالى أمر عيسى عليه السلام فبشّر به قومه ، فعرفه بنو إسرائيل قبل أن يُخْلق .

---

(١) حاص الثوب يحوصه حوصاً إذا خاطه « النهاية : حوص »

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد ٤ / ١٨٤

(٣) سورة البقرة ٢ / ١٢٩

ما جاء في أنّ الشام أرض المحشر والمنشر

عن أبي ذر قال :

قيل : يارسول الله ، صلاةٌ في بيت المقدس أفضلُ أم صلاةٌ في مسجد رسول الله ﷺ ؟ قال : صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من أربعِ صلواتٍ فيه ، ولنعم المصلّى هو أرضُ المحشر والمَنْشَر ، وَلَيأْتِيَنَّ على النّاس زمانٌ وَلَبَسْطَةُ قوسِهِ من حيث يرى منه بيت المقدس أفضلُ وخيرٌ من الدنيا جميعاً .

وعن أسماء

أنّ أبا ذَرّ الغِفاري كان يخدم النبيَّ ﷺ فإذا فرغَ من خدمته أوى إلى المسجدِ ، وكان هو بيته ، فجلس إليه رسول الله ﷺ فقال له : كيف أنتَ إذا أخرجوكَ منه ؟ قال إذن ألحقُ بالشامِ ، فإن الشامَ أرضُ الهجرةِ وأرضُ المحشرِ وأرضُ الأنبياءِ . وذكر الحديث .

[١٩ / أ] وعن حكيم بن معاوية عن أبيه قال :

أتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقلت : ما أتيتُكَ حتى حلفتُ عددَ أصابعي هذه ألاّ آتيك - أرانا عفان وطبّق كفيه - فبالذي بعثكَ بالحقّ ماالذي بعثك به ؟ قال : الإسلام . قال : وما الإسلامُ ؟ قال : أن تُسلم قلبك لله عزّ وجلّ ، وأن تُوجّه وجهَكَ إلى الله ، وتُصلّي الصلاةَ المكتوبةَ ، وتؤدي الزكاةَ المفروضةَ ، أخوان نصيران ، لا يقبل الله جلّ وعزّ من أحدٍ توبة أشرك بعد إسلامه . قلت : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : تُطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيتَ ، ولا تضرب الوجهَ ، ولا تُقبّح ، ولا تَهْجُر إلا في البيت . قال : تُحشرون هاهنا - وأومأ بيده إلى نحو الشام - مُشاةً وركباناً وعلى وجوهكم ، وتُعرضون على الله ، وعلى أفواهكم الفِدام[1] ، فأولّ ما يُعرب عن أحدكم فخذُه ، وقال : ما من مولًى يأتي

(١) الفدام تقدم شرحها في ص ٥٢

مولى له فيسأله من فضلٍ عنده فيمنعه إلا جعله الله [عليه][1] شُجاعاً ينهَشه قبل القضاء .

قال عفان : يعني بالمولى ابنَ عمّه .

قال : وقال : إن رجلاً ممن كان قبلكم رَغَسَهُ[2] اللهَ مالاً وولداً ، حتى ذهب عصرٌ وجاء آخر . فلما احتُضِر قال لولده : أي أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خير أب ، فقال : هل أنتم مُطيعيَّ وإلا أخذتُ مالي منكم ، انظروا إذا أنا متُّ أن تحرقوني حتى تدعوني حُمَماً ، ثم اهرُسوني بالمِهْراس ، وأدار رسول الله ﷺ يده حذاء ركبتيه . قال رسول ﷺ ففعلوا والله ـ وقال نبي الله ﷺ بيده هكذا ـ ثم اذْرُوني في يومٍ راحٍ[3] لعلي أُضِلُّ اللهَ ففعلوا والله ذاك ، فإذا هو قائم في قبضة الله تعالى فقال : يابن آدم ، ماحملك على ما فعلت ؟ قال : من مخافتك . قال : فتلافاه الله عزَّ وجلَّ بها .

وفي رواية عند قوله : وأول ما يُعرب عن أحدكم فخذُه :

وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ [١٩ / ب] تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ولا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ﴾[4]

وعن عبد الرحمن بن غَنْم

أن اليهود أتَوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا : ياأبا القاسم ، إن كنت صادقاً أنّك نبيّ فالحقْ بالشام ، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء . فصدّق رسول الله ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاّ قَلِيلا ﴾[5] إلى قوله : ﴿ تَحْوِيلا ﴾ فأمره الله بالرجوع ، إلى المدينة وقال : فيها محياك ومماتك ، ومنها تُبعث .

---

(١) ليست اللفظة في الأصل ، والاستدراك من تاريخ ابن عساكر .

(٢) أرغسه الله مالاً : أكثر له وبارك فيه كرغسه « القاموس »

(٣) يوم راح : شديد الريح

(٤) سورة السجدة ٤١ : ٢٢

(٥) سورة الإسراء ١٧ : ٧٦ وتتمة الآية : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾

وعن ابن عباس قال :

كان النبي ﷺ قد حاصرهم - يعني بني النُّضير - حتى بلغ منهم كلَّ مبلغ ، فأعْطَوْه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقُنَ لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يُسيّرهم إلى أذْرعات الشام . وجعل لكل ثلاثةٍ منهم بعيراً وسقاء . والجلاء إخراجُهم من أرضهم إلى أرضٍ أخرى .

وعن ابن عباس قال :

من شكَّ أنّ الحشر هاهنا - يعني الشام - فليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ من دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ ﴾[1] قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ : اخرجوا . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض الحشر .

وفي حديث الجارود :

لما قدم على عُمر قال له الجارود : أما أن تُسيّرني إلى الشام فأرضُ الحشر والمنشر .

وعن ابن عمر

أنّ مولاةً له أتَتْه فقالتْ : إني قد اشتدّ عليّ الزمان ، وأنا أريد أن أخرجَ إلى العراق . قال : فهلاّ إلى الشام أرضِ الحشر ، اصبري لكاعِ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : مَن صبر على شدّتها ولأوائها كنتُ له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة .

وعن خُلَيْد وسعيد عن [٢٠ / أ] قتادة قال :

أنجاهما الله إلى الشام أرض الحشر والمنشر ، وبها يُجمع الناس رأساً واحداً ، وبها ينزل عيسى بن مريم ، وبها يُهلك الله المسيحَ الكذاب .

وعن الصُّنَابحي يرفعه قال :

شَكَتِ الشامُ إلى الرحمنِ عزّ وجلّ فقالتْ : أيْ ربِّ ، جعلتَني أضْيَقَ الأرض وأوْعَرَها ، وجعلتَني لا أشربَ الماء إلا عاماً إلى عام . فأوحى الله تعالى إليها : إنك داري وقراري ، وأنت الأندر ، وأنت مَنْبتُ أنبيائي ، وأنتِ موضع قدسي ، وأنت موضع موطئي ، وإليك

---

(١) سورة الحشر ٥٩ : ٢

أسُوقَ خِيرتي من خَلقي ، وإليك محشرُ عبادي ، ولم تزل عيني عليك من أول يومٍ من الدهر إلى آخر يوم من الدهر بالظلّ والمطر ، وإذا يُعْجِز أهلكَ المالُ لم يُعجزْهُم الخبزُ والماءُ .

وعن الحسن قال :

نزلتْ قُرَيْظَةُ على حُكم سعد بن معاذ ، فقتل رسول الله ﷺ منهم ثلاث مئة وقال لبقيتهم : انطلقوا إلى أرض المحشر ، فأنا في آثاركم - يعني أرض الشام - فسيّرهم إليها .

وعن بلال بن سعد أن النبي ﷺ قال :

إذا وقعت الفتن فهاجروا إلى الشام ، فإنها من الله بمنظر ، وهي أرض المحشر .

وعن الحسن قال :

الشام أرض المحشر والمنشر .

ما جاء في أنّ بالشام[1]
يكون مُلْك أهل الإسلام

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

الخلافةُ بالمدينة والمُلْكُ بالشام

وعن علي بن أبي طالب

أنّ يهودياً كان يُقال له جبريجرة[2] كان له على رسول الله ﷺ دنانير ، فتقاضى النبيَّ ﷺ فقال له : يا يهودي ، ما عندي ما أعطيك . قال : فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني مالي . فقال نبيُّ الله ﷺ : إذن أجلسُ معك ، فجلس معه رسول الله ﷺ ، فصلّى رسول الله ﷺ الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ الآخرة والغداة ، وكان [٢٠ / ب] أصحابُ رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتوعّدونه . ففطن رسول الله ﷺ [فقال][3] : ماالذي تصنعون به ؟ قالوا : يا رسول الله ، يهوديٌّ يحتبسك ؟! فقال رسول الله ﷺ : منعني ربي أن أظلم مُعاهِداً ولا غيره . فلما ترحّل النهار قال اليهودي : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّك رسول الله ، وشَطرُ مالي في سبيل الله ، أما والله ما فعلتُ الذي فعلتُ بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة : (محمد بن عبد الله ، مولده بمكة ، ومُهاجَره بطَيْبة ، ومُلْكه بالشام ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا صخّابٍ في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قولُه الخنا) . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله . وكان اليهودي كثير المال .

---

(١) في الأصل : « للشام » والتصويب من تاريخ ابن عساكر ١٧٢/١

(٢) كذا في الأصل ، وفي الإصابة ـ ط ، السعادة ـ ١ / ٢٣١ جريج الإسرائيلي . قال ابن حجر : « ووجدته في موضع آخر : جريجرة» .

(٣) ليست اللفظة في الأصل وزيدت للسياق

وعن يونس بن مَيْسَرة بن حَلْبَس قال : قال رسول الله ﷺ :

هذا الأمر كائن بعدي بالمدينة ثم بالشام ثم بالجزيرة ثم بالعراق ثم بالمدينة ثم ببيت المقدس . فإذا كان ببيت المقدس فثمَّ عُقْر دارها ، ولن يَخرجها قوم فتعود إليهم أبداً .

يعني بقوله : (بالجزيرة) أمر مروان بن محمد الحمار . وبقوله (بالمدينة بعد العراق) يعني به المهدي الذي يخرج في آخر الزمان . ثم ينتقل إلى بيت المقدس ، وبها يحاصره الدَجَّال ، والله أعلم .

وعن كعب قال :

أجد في التوراة : (أحمد عبدي المختار ، لافَظٌّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولدُه بكّا ، وهجرته طابا ، ومُلْكه بالشام ، وأمته الحمّادون يحمدون الله على كل حال ، ويُسبّحونه في كل منزلة ، ويُوضّئون أطرافهم ، ويأتزرون على أنصافهم ، وهم رعاة الشمس ، وصَفُّهم في الصلاة ، وصفهم في القتال سواء ، رُهبان بالليل أُسْدٌ بالنهار ، لهم دويّ كدويّ النحل ، يصلّون الصلاة حيثما أدركتهم .

وفي حديث آخر : تسمعُ مُناديهم في جو السماء .

وفي حديث آخر : [٢١ / أ] قلوبُهم أناجيلهم .

وعن كعب أنه قال :

إنا نجد في كتاب الله محمداً سلطانه بالشام .

ما جاء من أنّ الشام سُرَّة الدنيا

عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال :

المدينة بين عينَيْ السماء ، عين بالشام وعين باليمن ، وهي أقل الأرض مطراً .

وعن عبد الله بن عمرو قال :

صُوِّرت الدنيا على خمسة أجزاء ، على أجزاء الطير : الرأس والصدر والجناحين والذَّنَب . رأس الدنيا الصين ، والجناح الأيمن الهند ، والجناح الأيسر الخَزَر ، وخلف الهند أمةٌ يُقال لها : واق واق ، وخلفَ واق واق مَنْسك ، وخلف مَنْسك ناسك ، وخلف ناسك يأجوج ومأجوج من الأمة ما لا يعلمه إلا الله . والجانب الآخر من الخزرَ ليس خلفه إلا البحر . ووسط الدنيا العراق والشام والحجاز ومصر ، وذَنَب الدنيا من ذات الحَمَّام[1] إلى المغرب ، وشرُّ شيء في الطير الذَّنَب .

وعن كعب الأحبار قال :

نجدُ صفةَ الأرضِ في كتاب الله ـ يعني التوراة ـ على صفة النّسر : فالرأس الشام ، والجناحان المشرق والمغرب ، والذنَب اليمن . فلا يزال الناس بخير[2] ما لم يُفْدَغ الرأس ، فإذا فُدِغَ الرأس هلكَ الناس . وأيمُ الذي نفسُ كعبٍ بيده ، ليأتيَنَّ على الناس زمانٌ لا تبقى جزيرةٌ من جزائر العرب ـ أو قال : مصرٌ من أمصار العرب ـ إلا وفيهم مِقْنَب خيلٍ من الشام ، يقاتلونهم عن الإسلام ، لولاهم لكفروا .

وعن كعب قال :

إن الله خلق الدنيا بمنزلة الطائر : فجعل الجناحين المشرقَ والمغربَ ، وجعل الرأسَ

---

(١) بلد بين الاسكندرية وإفريقية وهو إلى إفريقية أقرب . معجم البلدان والقاموس والتاج .

(٢) بعد هذه اللفظة في الأصل : « ماثقل الرأس ونزع الرأس من الجسد ... » .

الشامَ ، وجعل رأس الرأس حمص وفيها المنقار ، فإذا نُقِفَ المنقارُ يتأفف الناس ، وجعل الجؤجؤ دمشق وفيها القلب ، فإذا تحرّكَ القلبُ تحرّك الجسد ، وللرأس ضربتان [٢١ / ب] ضربة من الجناح الشرقي ، وهي على دمشق . وضربة من الجناح الغربي ، وهي على حمص ، وهي أثقلها . ثم يُقبل الرأس على الجناحين ، فينتفها ريشة ريشة .

وقال كعب :

ويلٌ للجناحين من الرأس ، وويلٌ للرأس من الجناحين ، يُردّدها ثلاثاً . فالرأسُ الشام ، والجناحان المشرق والمغرب .

وعن قتادة قال :

إن الرأس الشام ، وإن مصر الذنب ، وإن العراق الجناح . وكان يُقال : ويل للجناحين من الرأس .

وعن إياس بن معاوية قال :

مُثّلت الدنيا على طائر : فمصر والبصرة الجناحان ، والجزيرة الجُؤْجُؤ ، والشام الرأس ، واليمن الذنب .

روى محمد بن إسحاق عن بعض اهل العلم قال :

خلق الله الأرضَ على صورة الطير : فرأسُها الشامُ ، وجؤجؤُها مكةُ ـ ومنها دُحيت الأرضُ ـ وسائر أطرافها جميعُ الأَرَضين . وخُلقتْ مكةُ قبل بيت المقدس بأربعين عاماً . وكان موضعُ الكعبةِ ربوةً حمراء على وجه الماء . فلما أن خلقَ اللهُ الأرضَ خلقها سبعَ أَرَضين ، غِلَظُ كلّ أرضٍ مسيرةُ خمس مئة عام ، وفيما بين كلّ أرضٍ إلى التي تليها فَتْقٌ يُمْسِك بعضُها بعضاً .

وذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة ، وأن الهند رسمتها ، فجعلت صفة الأقاليم كأنها حلقة مستديرة يكتنفها ست دوائر : فالدائرة الوسطى هي إقليم بابل ، والدوائر الست المحدقة بالدائرة الوسطى ، كل دائرة منها إقليم من الأقاليم الستة . فالإقليم الأول منها إقليم بلاد الهند ، والإقليم الثاني إقليم الحجاز ، والإقليم الثالث إقليم مصر ، والإقليم الرابع إقليم بابل ، وهو الممثل بالدائرة الوسطى التي اكتنفتها سائر الدوائر ـ وهو أوسط الأقاليم وأعمرها ، وفيه جزيرة العرب ، وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا ، وحدّ هذا الإقليم مما يلي

أرض الحجاز وأرض نجد : الثَّعْلَبِيَّة[1] [٢٢ / أ] من طريق مكة ، وحدُّه مما يلي الشام : وراء مدينة نصيبين من ديار ربيعة بثلاثة عشر فرسخاً . وحدّه مما يلي أرض خراسان : وراء نهر بلخ . وحدُّه مما يلي الهند : خلف الدَّيْبُل[2] بستة فراسخ ، وبغداد في وسط هذا الإقليم . والإقليم الخامس بلاد الروم والشام . والإقليم السادس بلاد الترك . والإقليم السابع بلاد الصين[3] .

---

(١) من منازل طريق مكة ـ الكوفة « معجم البلدان » .

(٢) مدينة على ساحل بحر الهند « معجم البلدان » .

(٣) قارن مع ماورد في تاريخ بغداد ١ / ٢٢ ـ ٢٣ وقد مثل الخطيب للدوائر بالرسم التالي :



والصورة ذاتها في تاريخ ابن عساكر ١ / ١٨١

ما جاء من أنّ الشام
يبقى عامراً بعد خراب الأمصار

عن عوف بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال :

تَخرَبُ الأرضُ قبل الشام بأربعين سنة .

قال أبو عبد رب : سمعت تُبَيْعاً أكثر من ثلاثين مرة يقول :

تَخرَب الأرض وتَعْمُرُ الشام حتى تكون من العمران كالرمانة ، ولا يبقى فيها خربة في سهل ولا جبل إلا عُمِرت . وليُغرَسَنّ فيها من الشجر ما لم يغرس في زمان نوح ، وتبنى فيها القصور اللائحة في السماء ، فإذا رأيتَ ذلك فقد نزل بك الأمر .

قال أبو عبد رب :

فإن كنتُ صدقتُ بالحديث حين سمعتُه ، ولم أصدّقْ بالأمر حين رأيتُه فما أنا بمؤمن .

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاصي ضد ذلك فقال :

أوّلَ الأرضِ خراباً الشام .

وعن بِشر بن غَنْم قال :

لتُهدمَنَّ مدينةُ دمشق حجراً حجراً .

قال : لعله أراد بذلك ما وجد من هدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس سورَها حين افتتحها .

وعن حسن بن القاسم الأزرقي قال :

وقف رسول الله ﷺ على ثَنِيّة تبوك فقال : ما ها هنا شام ، وأشار بيده إلى جهة الشام ، وما ها هنا يمن وأشار إلى جهة المدينة .

وعن أبي الأُعَيْس القرشي ، وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ قال :

سُئل عن البركة التي بُورك في الشام : أين مبلغ حدّه ؟ قال : أول حدوده عريش مصر ، والحدّ الآخر طرف الثنيّة ، والحدّ الآخر الفرات ، والحدّ الآخر جبلٌ فيه قبر هود النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلّم .

[٢٢ / ب] وعن أبي حاتم محمد بن حبّان بن محمد بن حبان بن أحمد البُسْتي قال :

أوّل الشام بالِسُ(١) ، وآخره عريش مصر .

(١) بالِسُ : بلدة بين حلب والرقة « معجم البلدان » .

باب تمصير الأمصار

عن أبي نَضْرة قال :

أتينا عثمان بن أبي العاص يومَ جمعةٍ لنعرض على مُصحفه مُصحفاً ، فلما حضرت الجمعةُ أمر لنا بماء فاغتسلنا وطيّبَنَا . ثم رُحْنا إلى الجمعة ، فجلسنا إلى رجلٍ يحدّث ، ثم جاء عثمان بن أبي العاص فتحوَّلْنا إليه فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

يكون للمسلمين ثلاثةُ أمصارٍ : مصرٌ بملتقى البحرين ، ومصرٌ بالحيرة ، ومصرٌ بالشام . فيفزع الناس ثلاث فزعات فيخرج الدجال . وذكر الحديث .

وعن جابر قال : سمعت عمر بن الخطاب سنة عشرين يقول :

الأمصار سبعة : فالمدينة مصر ، والشام مصر ، ومصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة .

قال أبو حاتم السجستاني :

لما كتب عثمان رضي الله عنه المصاحفَ حين جَمع القرآنَ كتب سبعةَ مصاحف ، فبعث واحداً إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحبسَ بالمدينة واحداً[1] .

وقال[2] إبراهيم : قال[2] رجل من أهل الشام :

مصحفُنا ومصحفُ أهل البصرة أحفظُ من مُصحفِ أهل الكوفة . قال : قلت : لِمَ ؟ قال : إنّ عثمان لّما كتب المصاحف بَلَغَهُ قراءةُ أهل الكوفة على حرفِ عبد الله ، فبعث به إليهم قبل أن يُعرض . وعرض مصحفنا ومصحف أهل البصرة قبل أن يبعث به .

وعن الحسن أنّه قال :

لا جُمعةَ إلا في الأمصار . فقلت له : يا أبا سعيد ، ما الأمصار ؟ قال : المدينة والبصرة والكوفة والبحرين والجزيرة والشام ومصر .

---

(١) كتاب المصاحف ٣٤

(٢ ـ ٢) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل .

ما ورد في فضل دمشق من القرآن

[٢٣ / أ] وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ

أنّه تلا هذه الآية : ﴿ وآوَيْناهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومَعين ﴾[1]. قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هي بالشام ، بأرضٍ يُقال لها الغوطة ، يُقال لها دمشق ، هي خير مدائن الشام .

وقال ابن عباس :

هي أنهار دمشق .

وعن سعيد بن المسيّب قال :

هي دمشق ذات قَرار ومَعين ، الغوطة .

وعن يزيد بن شجرة قال :

دمشق هي الربوة المباركة .

وعن محمد بن خالد بن أمية الهاشمي قال :

ثم إنّ الله تبارك وتعالى أمر عيسى بن مريم عليهما السلام وأُمّه أن يسكنا دمشق ، وهي إرَم ذات العِماد .

وقال الحسن : في قوله :

﴿ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِين ﴾[1] ذات مَعيشة تَقوتهم وتحملهم ، وماء جارٍ . قال : هي الربوة ، هي دمشق .

وقال الحسن البصري :

﴿ ذاتِ قَرارٍ وَمَعين ﴾[1] قال : ذات ثمار وكثرة ماء . قال : هي دمشق .

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٥٠

وعن سعيد بن جُبَير :

﴿ رَبْوةٍ ذاتِ قَرارٍ ﴾[1] قال : الربوة النَّشَزُ من الأرض . والقرار : المستوي .

قال منصور بن أبي مُزاحِم :

وهذا التفسير موجود في صفة ربوة دمشق ، فلا يمتنع أن يكون هو الحق . وقيل : إن الربوة الرملة .

وحدّث مُرّة البَهْزي في خلاء وجماعة أنه سمع رسول الله ﷺ [يقول][2]

لا تزال طائفةٌ من أمّتي على الحقّ ، ظاهرين على مَن ناوَأهم ، وهم كالإناء بينَ الأَكَلة ، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك قال : فقلنا : يا رسول الله ، مَن هم ؟ وأين هم ؟ قال : بأكناف بيت المقدس .

قال : وحدثني أن الرملة هي الربوة ، وذلك أنها تسيل مُغرّبة ومُشرّقة .

وعن الأقرع بن شُفَيّ العَكّي قال :

دخل عليّ النبي ﷺ في مرض فقلت : لا أحسب إلا أنّي ميتٌ من مرضي ، فقال النبي ﷺ : كلا لَتَبْقَيَنَّ ، ولَتُهاجِرَنَّ إلى أرض الشام ، وتموت وتُدفن بالربوة ، من أرض فلسطين .

ورُوي في حديث آخر أنّه قال له :

إنّك لا تموتُ إلا بالربوة . فماتَ ودُفن بالرملة . فكانت عكٌّ إذا مات [٢٣ / ب] الرجل منهم بالأردن له طرق ، حُمل فدفن بالرملة ، لمكان الأقرع .

وقال أبو هريرة :

﴿ رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِين ﴾[1] هي الرملة من فلسطين ، وقيل إنها بيت المقدس .

وقال قتادة :

وقيل إنها الاسكندرية .

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٥٠

(٢) ليست اللفظة في الأصل .

وعن زيد بن أسلم :

وقيل إنها مصر .

وعن وهب بن مُنَبِّه :

وقيل إنها الكوفة .

وقال أبو جعفر :

﴿ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[1] : الكوفة . والمَعين : الفرات .

وعن محمد بن مسلم قال :

سألت الصادق عن قول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيَةً وآوَيْنَاهُمَا إلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ ﴾[1] قال : الربوة : النَجَف ، والقَرار : المسجد ، والمعين : الفرات .

ثم قال : إن نفقة بالكوفة الدرهمُ الواحد يعدل بمئة درهم في غيرها ، والركعة بمئة ركعة . ومَن أحبّ أن يتوضأ بماء الجنة ، ويشرب من ماء الجنة ، ويغتسل بماء الجنة ، فعليه بماء الفرات ، فإنّ فيه مَثْعَبين[2] من الجنة ، وينزل من الجنة كل ليلة مثقالان من مِسْك في الفرات . وكان أمير المؤمنين علي يأتي النجف ويقول : وادي السلام ، ومجمع أرواح المؤمنين ، ونعم المضجع للمؤمن هذا المكان . وكان يقول : اللهم اجعلْ قبري بها .

قال أبو الغنائم :

في النجف ماءٌ طيبٌ تنزله العربُ ، يقال له السلام .

وعن أنس قال :

لما نزلت سورة التين على سيدنا رسول الله ﷺ فرح بها فرحاً شديداً حتى تبيّن لنا شدةُ فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال : ﴿ والتّينِ ﴾ : بلاد الشام ، ﴿ والزَّيْتونِ ﴾ : بلاد فلسطين ، ﴿ وطُورِ سِينين ﴾ الذي كلَّمَ الله موسى عليه . ﴿ وهذا البَلَدِ الأَمين ﴾ : مكة ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أحْسَنِ تَقْويم ﴾ : محمد ﷺ . ﴿ ثم رَدَدْنَا أَسْفَلَ سَافِلين ﴾ : عَبَدة اللات والعُزّى . ﴿ إلاّ الذين آمَنوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ فَلَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٥٠

(٢) المَثْعَب : واحد مَثاعب الحياض اللسان : ثعب .

مَمْنُـون ﴾ أبـو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ﴿ فما يُكَـذِّبُـكَ بَعْـدُ بـالـدّين أَلَيْسَ اللهُ بِـأَحْكَمِ الحاكِمِين ﴾ إذ بعثك فيهم نبيّاً ، وجمعك على التقوى يا محمد .

وعن كعب قال :

﴿ والتِّين ﴾ : مسجد [٢٤ / أ] دمشق ، ﴿ والزَّيْتون ﴾ : بيت المقـدس ، ﴿ وطُور سِينين ﴾ : جبل موسى .

وعن خالد بن مَعْدان :

في قوله ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها في البِلاد ﴾[1] قال : يعني دمشق .

وقال الحسـن :

﴿ التِّين والزَّيْتون ﴾ : جبالٌ ومساجدُ بالشام .

وعن قتادة :

في قوله تعالى : ﴿ والتّينِ والزَّيتونِ ﴾ قـال : ﴿ التِّين ﴾ الجبل الـذي عليـه دمشق ، ﴿ والزَّيْتـون ﴾ : الـذي عليـه بيت المقـدس ﴿ وطُـور سِينين ﴾ : جبـل بـالشـام مبارك حسن .

وقوله : ﴿ إرَمَ ذاتِ العِمادِ ﴾ قال المَقْبُري : هي دمشق .

---

(١) سورة الفجر ٨٩ / ٨

ما ورد في أنّ دمشق من مدن الجنّة

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

أربعُ مدائن من مدائن الجنة ، وأربعُ مدائن من مدائن النار . فأما مدائن الجنة : فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق . وأما مدائن النار : فالقسطنطينية وطبرية وأنطاكية المحترقة وصنعاء

قال أبو عبد الله السّقطي :

ليس هي صنعاء اليمن ، إنما هي صنعاء بأرض الروم .

وذكر البلاذري

أنّ أنطاكية المحترقة ببلاد الروم ، أحرقها العباس بن الوليد بن عبد الملك .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

إنّ اللهَ اختار من الملائكة أربعةً : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . واختار من النبيين أربعةً : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم . واختار من المهاجرين أربعةً : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . واختار من الموالي أربعةً : سلمان الفارسي وبلال الأسود ، وصهيب الرومي وزيد بن حارثة . واختار من النساء أربعاً : خديجة بنت خُويلد ومريم بنت عمران وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مُزاحم . واختار من الأهلّةِ أربعةً : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . واختار من الأيام أربعةً : يوم الجمعة ويوم الفطر ويوم النحر ويوم عاشوراء . واختار من الليالي أربعاً : ليلة القَدْر وليلة النحر وليلة الجمعة وليلة نصف شعبان . واختار من الشجر أربعاً : السِدْرَة ، والنَّخلة ، والتينة ، والزيتونة . واختار من المدائن [٢٤ / ب] أربعاً : مكة وهي البلدة ، والمدينة وهي النخلة ، وبيت المقدس وهي الزيتونة ، ودمشق وهي التينة . واختار من الثغور أربعةً : اسكندرية مصر وقزوين

خراسان ، وعَبادان العراق ، وعسقلان الشام . واختار من العيون أربعاً : يقول في مُحكم كتابه : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ ﴾[1] وقال : ﴿ فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[1] فأما اللتان تجريان فعينُ بيسان وعين سُلوان ، وأما النضاختان فعين زمزم وعين عكا[2] . واختار من الأنهار أربعةً : سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات . واختار من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي[3] العظيم[3] .

وعن كعب الأحبار أنه قال :

خمس مدائن من مدائن الجنة : بيت المقدس ، وحمص ، ودمشق ، وبيت جبرين[4] ، وظَفَار اليمن . وخمس مدائن من مدائن النار : القسطنطينية ، والطُّوانة[5] ، وأنطاكية ، وتدمر ، وصنعاء صنعاء اليمن .

وفي حديث آخر : عمورية بدل الطوانة .

وعن عبد الله بن عمرو قال :

الجنة مطوية في قرون الشمس بدمشق في كل عام .

---

(١) الرحمن ٥٥ / ٥٠ و ٦٦

(٢) في تاريخ ابن عساكر ١١/١ : « عكار » .

(٣) فوق اللفظتين في الأصل إشارتا تضبيب ، ولا وجود لهما في تاريخ ابن عساكر .

(٤) بيت جبرين : بُلَيْد بين بيت المقدس وغزّة « معجم البلدان »

(٥) الطُّوانَةُ بلد بثغور المصيصة بين انطاكية وبلاد الروم « معجم البلدان : طوانة والمصيصة » .

ما جاء في أن دمشق مهبط عيسى بن مريم

عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ :

ينزلُ عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقيّ دمشق .

وزاد في حديث آخر : بين مَهْرودَتَيْن[1] وتفسيره : بين مُمَصَّرَتَيْن[2] .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال :

أُرِيتُ أنّ ابن مريم عليه السلام يخرج من يمنة المغارة البيضاء شرقي دمشق واضعاً يده على أجنحة الملكين ، بين رَيْطتين ممشّقتين[3] ، إذا أدنى رأسه قطرَ ، وإذا رفع رأسه تحادر منه جُمانٌ كاللؤلؤ ، يمشي عليه السكينة ، والأرضُ تُقْبَض له ، ما أدرك نفسه من [٢٥ / أ] كافر مات ، ويُدرك نفسه حيثما أدرك بصره ، حتى يُدرك بصرُه في حصونهم وقُرَيّاتهم ، حتى يُدرك الدّجّالَ عند باب لُدّ فيموت . ثم يعمد إلى عصابة من المسلمين عَصَمهم اللهُ بالإسلام ويترك الكفارَ ينتِفون لحاهم وجلودهم . فتقول النصارى : هذا الدجال الذي أُنذِرْناه ، وهذه الآخرة ، ومَن مسّ ابنَ مريم كان من أرفع الناس قدراً ، ويعظم مسّه ، ويمسح على وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم من الجنة . فبيناهم فرحون بماهم فيه خرجت يأجوج ومأجوج ، فيوحى إلى المسيح عليه السلام أني قد أخرجتُ عباداً لي لا يستطيع قتلهم إلا أنا ، فأحرز عبادي إلى الطور ، فيمرّ صدر يأجوج ومأجوج على بحيرة الطبرية فيشربونها ، ثم يقبل آخرهم فيركزون رماحهم فيقولون : لقد كان هاهنا مرةً ماءٌ ، حتى إذا كانوا حيالَ بيت المقدس قالوا : قد قتلنا مَنْ في الأرض فهلموا لنقتلَ مَنْ في السماء ، فيرمون نَبْلهم إلى السماء ، فيردّها الله مخضوبةً بالدم ، فيقولون : قد قتلنا مَنْ في السماء ويتحصّن ابنُ مريم وأصحابه

---

(١) الهُرْد : عروق يصبغ بها والمهرود المصبوغ بها ويُروى بالدال والذال . القاموس واللسان والنهاية : هرد .

(٢) الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة

(٣) ثوب ممشّق : مصبوغ بالمشق وهو المغرة « اساس البلاغة ، والنهاية : مشق

حتى يكون رأس الثور ورأس الجمل خيراً من مئة دينار اليوم .

قال : كذا قال : (المغارة) . قال : وهو تصحيف وإنما هو المنارة .

وعن ابن عياش الحضرمي قال :

يخرج عيسى بن مريم عند المنارة عند باب الشرقي ثم يأتي مسجدَ دمشق حتى يقعدَ على المنبر ، ويدخل المسلمون المسجدَ ، والنصارى واليهود ، كلهم يرجوه حتى لو ألقيتَ شيئاً لم يُصب إلا رأس إنسان من كثرتهم . ويأتي مُؤذّنُ المسلمين فيقوم ، ويأتي صاحب بوق اليهود وصاحب ناقوس النصارى . فيقول صاحب اليهود : أقرِع ، فيُكتبُ سهم المسلمين وسهم النصارى وسهم اليهود ، ثم يُقرع عيسى فيخرج سهم المسلمين ، فيقول صاحب اليهود : إن القرعة ثلاث ، فيُقرع فيخرج سهم المسلمين ، ثم يَقرع الثانية فيخرج سهم المسلمين ، فيؤذّن المؤذّن ، ويخرج اليهود والنصارى من المسجد [٢٥ / ب] ثم يخرج يتبع الدجال بمن معه من أهل دمشق ، ثم يأتي بيت المقدس ، وهي مغلقة قد حصرها الدجّال فيأمر بفتح الأبواب ، ويتبعه حتى يدركه بباب « لُدّ » ، ويذوب كما يذوب الشمع ، ويقول عيسى : إن لي فيك ضربةً فيضربه فيقتله الله عز وجل على يديه ، فيمكث في المسلمين ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، الله أعلم أيّ العددين . فيخرج على أثره يأجوج ومأجوج ، فيُهلك الله يأجوج ومأجوج على يديه ، ولا يَبقى منهم عينٌ تطرِف ، وتَرُدُّ إلى الأرض بركتها ، حتى إن العصابة ليجتمعون في العنقود ، وعلى الرّمانة ، ويُنْزَع من كل[1] [و ذكر كلاماً انقطع من الكتاب معناه] من كل ذات حُمَةٍ حُمَتها ، يعني سمّها ، حتى إن الحية تكون مع الصبيّ ، والأسد مع البقرة ، لا تضرّه شيئاً ، ثم يبعث الله عزّ وجلّ ريحاً طيّبةً تقبض روحَ كلّ مؤمن ، ويبقى شرارُ الناس تقوم عليهم الساعة .

وعن كعب قال :

يهبط المسيح عليه السلام عند القنطرة البيضاء ، على باب دمشق الشرقي ، تحمله غمامة ، واضعاً يديه على منكبَيْ مَلكين عليه رَيْطتان ، مؤتزر إحداهما ، مُرتدٍ الأخرى ، إذا أكبّ رأسه يقطر منه الجمان .

---

(١) بعدها في الأصل بياض بمقدار ثلاث كلمات .

ما جاء في أن دمشق

فُسطاط المسلمين يوم الملحمة

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرضٍ يُقال لها الغوطة ، فيها مدينة يقال لها دمشق ، خير منازل المسلمين يومئذ .

وعن إبراهيم بن الجُنَيد قال : سمعت يحيى بن مَعين ـ وقد ذكروا عنده أحاديثَ من ملاحم الروم ـ فقال يحيى :

ليس من حديث الشاميين شيءٌ أصح من حديث صدقة بن خالد عن النبي ﷺ :

مَعْقِل المسلمين أيام الملاحم دمشق .

وعن عوف بن مالك قال :

أتيتُ رسول الله ﷺ وهو في بناءٍ له ، فسلّمتُ عليه ، فقال لي : عوف ؟ فقلت : نعم ، فقال لي : ادخلْ . فقلت : أكلّي أم بعضي ؟ قال : بل كلك ، فقال لي : يا عوف ، اعدُد ستاً بين يدي [٢٦ / أ] الساعة : أوّلهن موتي ، فاستبكيتُ حتى جعل يُسَكّنني ، ثم قال لي : قل إحدى ، قلت إحدى . قال : والثانية فتح بيت المقدس ، قل ثنتان ، فقلت : ثنتان . قال : والثالثة : مُوْتانٌ[1] يكون في أمتي يأخذهم مثل قُعَاص[2] الغنم ، قل ثلاث . فقلت : ثلاث . قال : والرابعة فتنة تكون في أمتي وعَظّمها ، ثم قال : قل أربع ، فقلت : أربع ، قال : والخامسة يفيض فيكم المال حتى إن الرجل ليُعطَى المئة دينار فيتسَخطها ، قل خمس ، فقلت : خمس . قال : والسادسة هُدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيسيرون إليكم على ثمانين غايةً ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً . ففسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة ، في مدينةٍ يُقال لها دمشق .

---

(١) الموتان ـ بوزن البَطْلان ـ الموت الكثير الوقوع ـ (النهاية واللسان : موت) ـ .

(٢) القُعاص : داء في الغنم لا يُلبثها أن تموت ـ القاموس : « قعص » ـ .

وفي رواية أخرى :

راية في الموضعين .

وفي رواية عند ذكر الروم :

فيغدرون فيوافونكم على ثمانين غياية .

وفي رواية :

غابة .

والغاية : الراية . والغَيابة بياءين : السحابة . والغابة بنقطة واحدة[1] : السحابة .

وعن النبي ﷺ قال :

ستُفتح عليكم الشام ، فإذا خُيِّرتم المنازل منها ، فعليكم بمدينة يقال لها دمشق ، فإنها مَعقِلُ المسلمين من الملاحم ، وفُسطاطهم منها بأرضٍ يُقال لها الغوطة .

وعن سعيد بن عبد العزيز

أن مَنْ أدرك من علمائنا كانوا يقولون : يخرج أهل مصر من مصرهم إلى ما يلي المدينة ، ويخرج أهل فلسطين والأردن إلى مشارف البلقاء وإلى دمشق ، ويخرج أهل الجزيرة وقِنّسرين وحمص إلى دمشق . وذلك لما كان حدثنا به سعيد عن مكحول عن رسول الله ﷺ أنّه قال :

فُسطاطُ المؤمنين يوم الملحمة الكبرى بالغوطة مدينةٌ يقال لها : دمشق .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

إنها ستُفتح الشام ، فعليكم بمدينة يقال لها : دمشق ، فإنها خيرُ مدائن الشام ، وهي مَعقِل المسلمين من الملاحم ، وفُسطاط المسلمين بأرضٍ منها يقال لها : الغوطة ، ومعقلهم من الدجال : بيت المقدس ، ومعقلهم من يأجوجَ ومأجوجَ : الطور .

وعن الأوزاعي [٢٦ / ب] قال :

قدمت المدينة في خلافة هشام ، فقلت : مَنْ هاهُنا من العلماء ؟ قالوا : هاهنا

(١) ليس في كتب اللغة « غابة » بمعنى السحابة . وفي الأساس : « أتونا في غابة أي في رماح كثيرة كالشجراء الملتفة . وفي الحديث : فتسيرون إليهم في ثمانين غابة تحت كل غابة اثنا عشر ألفا » . وفي ابن عساكر : « ومن رواه غابة بباء تحتها نقطة واحدة . قال : أراد الأجمة » وأما السحابة فهي العَنَانَة والعانّة . اللسان : « عنن » .

محمد بن المُنكدر ، ومحمد بن كعب القُرَظي ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ومحمد بن علي بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فقلت : والله لأَبْدَأَنَّ بهذا قبلهم ، قال : فدخلت المسجد ، فسلّمتُ فأخذ بيدي فأدناني فقال : من أي إخواننا أنت ؟ فقلت له : رجل من أهل الشام . قال : من أي أهل الشام ؟ قلت : رجل من أهل دمشق . قال : نعم ، أخبَرني أبي عن جدّي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : للناس ثلاثُ معاقل ، فمعقلهم من الملحمة الكبرى التي تكون بعمق أنطاكية : دمشق ، ومعقلهم من الدجّال : بيت المقدس ، ومعقلهم من يأجوجَ ومأجوجَ : طُور سيناء .

وعن حسان بن عطية قال :

ذكر رسول الله ﷺ كيف يجوزُ الأعداء أُمَّتَه من بلد إلى بلد . فقال : يا رسول الله ، فهل من شيء ؟ قال : نعم ، الغوطة ، مَدينة يقال لها دمشق ، هي فُسطاطهم ومعقلهم من الملاحم ، لا ينالها عدوّ إلا منها .

قال حفص ، أحد رواة الحديث : يقول ـ لا ينالهم عدوّ لهم إلا منها ـ من الأُمة . قال : وهو يومَ دخلَها عبدُ الله بن علي بجنوده .

وعن يزيد بن أبي حبيب عن أبي سالم الجَيْشاني قال :

انطلقتُ إلى المدينة أسأل عن علم الأحداث ، فقيل لي : أين أنت عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؟ فإنه كان صعلوكاً فرّغه أبوه لذلك . قال : فقدمتُ فأخبرتُ عبدَ الله بن عمرو بذلك ، قال : نعم : فسلوني عما شئتم أُخبركم به ، فوالله لو شئتُ لأخبرتكم بالسَّنَة التي يخرجون فيها من مصر . قلت : يا أبا محمد ، أخبرني وخِرْ لي . قال : نعم ، إنك لن تبرح مُؤامّاً[1] بك ما لم يأت أهل المشرق أهل المغرب ، فإذا كان ذلك خَفَق الدين وخَفَقت السُّنَّةُ ، ووقعت بين العرب البغضاء ، فأقلّ المؤمنين مَن يحجزه إيمانه ، وأقلُّ المُعاهدين من يكفُّه ساعيه[2] ، فإن استطعتَ أن تسكن السروات[3] فكنْ بها ، وإن عجزت

(١) المؤامّ بالتشديد : المقارَب ، من الأَمّ ، وفي حديث ابن عباس : لا يزال أمر الناس مؤامّاً ، ما لم ينظروا في القدَر والوِلدان ، أي لا يزال جارياً على القصد والاستقامة . اللسان : « أمم »

(٢) الساعي الذي يقوم بأمر أصحابه عند السلطان (اللسان) .

(٣) السروات : سراة بين تهامة ونجد ، ومعدن البُرم هو السراة الثانية وهو في بلاد عدوان ، والسراة الثالثة أرض عالية وجبال مشرفة على البحر من المغرب وعلى نجد من المشرق ... وقال أبو عمرو بن العلاء ، أفصح الناس أهل السروات وهي ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ... » (معجم البلدان) .

فالإسكندرية ، فإن عجزت فالطُور أو سوق [٢٧ /أ] مازن فإذا أقشعتْ شيئاً ـ أبيت اللعن ـ وأصابَ المأمومةَ ، وذاتَ الأصابعِ ذُناباتُها ، فعليكَ بالفحص .

قال عبد الرحمن بن شُرَيح : سمعت أبا قَبِيل يزعم أن المأمومة أبيات الأشاعر بدمشق يوماً بها ، وذات الأصابع حَرْلان[1] .

ثم رجع الحديث إلى يزيد بن أبي حبيب في الفحص . قال : وهي الغوطة . قال : فإنها فُسطاط المسلمين ، فإذا امتنعت الحمراء والبيضاء ، وظن الأولياء عن الأولياء فعليك بمدينة الأسباط ، فإن العافية تحوزُها كما يحوز السيل الدِّمَن . لو أرى أني أُدرك ذلك لَسبقَ رحيلي خبري ، ولا أنت تُدركه .

يعني بمدينة الأسباط : بانياس .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

ما أودّ أن لي مصر وكورها بعد الخمسين والمئة أسكنها ، ولَدمشقَ خيرٌ لو كنتم تعلمون .

وعن نافع بن كيسان الدمشقي قال :

لقيتُ يزيد بن شجرة الرُّهاوي فقلت : إني أردتُ أن آتي فلسطين . قال : لا تفعلْ ، فإني أُحدّثك في دمشق أحاديث ليست في غيرها ، إن حبل الناس إذا اضطربَ كانت عصمتَهم ، وإن أهلها مدفوعٌ عنهم ، وإنه لا ينزلُ بأرضٍ جوعٌ ، ولا بلاء ولا فتنة إلا خُفِّفَ ذلك عنهم .

وعن عمرو بن جابر الحَضرمي قال : سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول :

مَن سكن دمشق نجا ، فقلت : أعن رسول الله ﷺ ؟ قال : فعن رأيي أُحدّثك ؟! .

وعن ابن مُحَيريز قال : قال رُوَيفع[2] بن ثابت الأنصاري ، وكان من أصحاب الشجرة :

اسكنْ فلسطين ما استقامتِ العرب ، فإذا نادَوا بشعار الجاهلية فاسكن دمشق ، وشرقُّها خير من غربها .

---

(١) حرلان : ناحية بدمشق بالغوطة ، فيها عدة قرى ، وهي مما يلي الصفوانية شرقي باب توما (غوطة دمشق ٢٠٩) (معجم البلدان) .

(٢) وكتب ابنُ منظور في الهامش : « هذا رويفع بن ثابت رحمه الله جَدُّنا لأبينا ، بالنسب المتصل إليه ، وإلى جانب العبارة « صح ». قلت : وقد ذكرت كتب التراجم اتصال نسب ابن منظور بهذا الصحابي ، ويقولون في نسبته : (الأنصاري الرويفعي الإفريقي) . انظر الأعلام ٧ / ٣٢٩ .

وعن عُقْبة بن نافع بن عبد الحارث :

أنه أوصى بنيه حين حضرته الوفاة فقال : يـا بَنِيَّ احفظوا مـا أوصيكم بـه تنتفعوا : ألاّ تَدّانوا وإن لبستم العباء ، ولا يدخلْ أحد منكم في بيعة الرايات السود طائعاً إنْ أدركتموهـا ، ولا تَدَعُنَّ حظكم من دمشق وإن لم تُصيبوا البيت إلاّ بدية .

وعن كعب قال :

[٢٧ / ب] مَعقِـل المسلمين من المـلاحم دمشـق ، ومعقلهم من الـدجّـال نهرُ أبي فُطْرُس[1] ، ومعقلهم من يأجوجَ ومأجوجَ الطُور .

وعنه أيضا قال :

معـاقـل المسلمين ثـلاثـة : فمعقلهم من الروم دمشـق ، ومعقلهم من الـدجـال الأردن ، ومعقلهم من يأجوجَ ومأجوجَ الطُور .

وعن مكحول قال :

لَتمخَرَنّ الرومُ الشام أربعين صباحاً ، لا يمتنع منها إلا دمشقُ وعَمّان .

وعن أبي الأعْيَسَ عبد الرحمن بن سَلمان الخَوْلاني[2] قال :

سيأتي مَلِك من ملوك العجم يظهر على المدائن كلِّها إلا دمشق .

وعن[3] يزيد بن شُريح التيمي عن كعب[3] قال :

يهلـك مـا بين حمص وثنيّـة العُقـاب سبعون ألفـاً ، من الوغى . قلتُ : مـا الـوغى ؟ قال : العطش .

وعن كعب قال :

لن تزالوا بخير مـا لم يركب أهلُ الجزيرة أهلَ قِنَّسرين ، وأهلُ قنسرين أهـلَ حمص ، فيومئذ تكون الجَفْلة ويفزعُ الناس إلى دمشق .

---

(١) نهر أبي فطرس : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين ، وهو مصب نهر بالاسم ذاته ينبع من جبال نابلس ، ويصب في البحر بين أرسوف ويافا . (معجم البلدان) .

(٢) استدركت اللفظة في هامش الأصل .

(٣ ـ ٣) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل ، وإلى جانبه : « صح » .

باب في أن البركة في دمشق مُضعَّفة

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه :

النفقة في أرض الهجرة مضاعفة بسبع مئة ضعف ، وأنتم المهاجرون أهلَ الشام لو أن رجلاً اشترى بدرهم لحماً من السوق فأكله وأطعم أهله كان له بسبع مئة .

وعن سعيد بن سفيان القاري[1] قال :

توفي أخي وأوصى بمئة دينار في سبيل الله ، فوافق ذلك صَلحَ ابن فرعون فلم يكن عامئذٍ غازية ، فقدمتُ المدينة في حجّ أو عُمرة ، فدخلت على عثمان بن عفان ، وعنده رجل قاعد ، وعليّ قَباء من بُزْيون[2] ـ وكان أصابه من الغنيمة بأرض الروم ـ وكان جَيْبه وفُروجه مكفوفة بحرير . فلما رآني ذلك الرجلُ أقبلَ عليّ يُجاذبني قَبائي ليخرقه . فلما رأى ذلك عثمان قال : دع الرجل فتركني ثم قال : لقد عجلتم . فسألتُ عثمان فقلت : يا أمير المؤمنين ، توفي أخي وأوصى بمئة دينار في سبيل الله فوافق ذلك صُلح ابن فرعون فلم تجئنا غازية ، فما تأمرني ؟ قال : هل سألت أحداً قبلي ؟ قلتُ : لا [٢٨ / أ] . قال : لئن استفتيتَ أحداً قبلي فأفتاك غير الذي أفتيتك به ضربتُ عُنُقَه . إن الله عزّ وجلّ أمرنا بالإسلام فأسلمنا كلُّنا فنحن المسلمون . وأمرنا بالهجرة فهاجرنا فنحن المهاجرون أهلَ المدينة ، ثم أمرنا بالجهاد فجاهدتم ، فأنتم المجاهدون أهلَ الشام . أنفقها على نفسك ، أو على أهلك وعلى ذوي الحاجة ممن حولك فإنك لو خرجت بدرهم ثم اشتريت به لحماً فأكلت أنت وأهلك كُتب لك بسبع مئة درهم .

فخرجتُ من عنده فسألتُ عن الرجل الذي جاذبني ، فقيل : هو علي بن أبي طالب

---

(١) اللفظة في الأصل مهملة . وهو سعيد بن سفيان القاريّ نسبة إلى بني قارة بطن من العرب ، انظر الأنساب ٤٣٧

(٢) البِزْيَوْن والبَزْيَوْن : السندس . (القاموس) « بزن » .

عليه السلام . فأتيته في منزله ، فقلت : ما رأيت مني ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أوشك أن تَسْتحلّ أمتي فروج النساء والحرير ، وهذا أول حريرٍ رأيتُ على أحد من المسلمين ، فخرجت من عنده فبعثةُ من الخياط .

وعن عبد الرحمن بن ساباط[1] الجُمحي قال :

قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : إن لي رحماً وقرابة ، وإنّ منزلي قد نبا بي بالعراق والحجاز . قال : أرضى لك ما أرضى به لنفسي ولولدي ، عليك دمشق ، عليك دمشق ، ثم عليك بمدينة الأسباط بانياس ، فإنها مباركة السهل والجبل ، يعيش أهلها بغير الحجرين : الذهب والفضة ، نقل الله عنها أهلها حين بَدّلوا ، تطهيراً لها ، وإن البركة عشر بركات خصَّ الله بانياس من[2] ذلك ببركتين ، لا يَعيل ساكنها ، يعيش من برّها وبحرها ، وإذا وقعت الفِتن كانت بها أخفّ منها في غيرها ، فاتخذْها وارتَدْ بها ، فوالله لَفدّان بها أحبّ إليّ من عشرين بالوَهْط . والوهط بالطائف .

قال عبد الوهاب بن نَجْدة الحَوْطي :

أتيت صَدَقة بن حبيب ، شيخاً كان عندنا ، فسمعته يقول : سمعت أبا الكوثر يقول : كنت بدار يوحنا بحمص ، وقد بُسط فيها لمعاوية بن أبي سفيان ، فإذا رجل قد جاء من نحو زقاق اللقانق ، فسلّم على معاوية فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له : ادنُ يا أبا إسحاق ، ما ترى في حمص وطيبها ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين ، لَموضع من دمشق صغير [٢٨ / ب] أحبّ إلي من دارٍ بحمص . قال : ولِمَ ذاك يا أبا إسحاق ؟ قال : لأنها مَعقِل الناس في الملاحم . قال معاوية : لا جَرَم ، لا تركت بها حرمة .

وعن ربيعة بن عبد الله بن الهُدَيْر قال :

منزلٌ في دمشق خير من عشرة منازل في غيرها من أرض حمص ، ومنزلٌ داخل دمشق خيرٌ من عشرة منازل بالفراديس ، وإياك وأرباضَها ، فإن في سكناها الهلاك .

---

(١) كذا في الاصل . وهو عبد الرحمن بن سابط ، ويقال : ابن عبد الله بن سابط ، تابعي مكي ، ثقة ، توفي سنة ١١٨ هـ . وانظر في ترجمته التاريخ الكبير ق ١ / ج ٣ / ٣٠١ ، والجرح والتعديل ج٢ / ق٢ / ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، والعبر ١ / ١٤٩ ، والعقد الثمين ٥ / ٣٥٤ . وتهذيب التهذيب ج ٦ / ١٨٠ ، وقد مر الخبر مختصراً ص ٥٥ : « عبد الرحمن بن سابط » .

(٢) استدركت لفظتا « بانياس من » في هامش الأصل وإلى جانبها « صح » .

وعن يونس بن مَيْسرة بن حَلْبَس

أن رجلاً سكن طبرية بعيالـه شهراً فكفـاهم بهـا عشرة أَمْـداد[1] من قمح ، ثم تحوّل إلى دمشق فكفاهم خمسة أَمْداد قمح[1] .

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال :

قلت لأبي سلاّم الأسود : ما نقلك من حمص إلى دمشق قال : ما سألني عن هـذا عربيٌّ قبلَك . قال : لأن البركة فيها مضاعفة .

وفي رواية قال :

بلغني أن البركة تُضعف بها ضعفين .

وعن مكحول :

أنه سأل رجلاً : أين تسكن ؟ قال : الغوطة . قال له مكحول : ما يمنعـك أن تسكن دمشق ، فإن البركة فيها مُضعّفة .

وحَدّث يحيى بن يحيى قال[2] :

قـال لي عُبيـدُ بن يعلى - وهـو رجـل من أهـل بيت المقـدس ، كان بعسقلان وكان عالماً - : ارحَلْ من فلسطين ، والْحَقْ بدمشق ، فإن بركات الشام كلها مَسُوقات إلى دمشق .

وعن كعب الأحبار قال :

كل بناء بناه العبدُ يُحاسبُ عليه إلا بناء دمشق .

حدث[3] أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجَهْشياري[4] قال :

وجدتُ عملاً لما كان يُحمل إلى بيت المال بمدينـة السلام من جميع النواحي ، فمن ذلـك من دمشق أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

وذكر المدائني أن وظيفة دمشق التي وظفها معاوية أربع مئة ألف دينـار ، وهـذا بعـد صرف ما لا بدّ من صرفه في ديوان الجند والولاة ، وأرزاق الفقهاء والمؤذنين والقضاة . وهـذا يدل على كثرة دخلها وعِظَم البركة في مُستغلها . والله أعلم .

(١) كتبت في الأصل : « أمداً » في الموضعين . .

(٢) في الأصل : « وحدث ابن يحيى بن يحيى » . وما هنا عن ابن عساكر .

(٣) في هامش الأصل لفظتنا : « ارتفاع الشام » وكأنها عنوان لمضمون الخبر .

(٤) انظر الوزراء والكتاب ٢٨٧ .

ما جاء في أن أهل دمشق لا يزالون على الحق

[٢٩ / أ] عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

لا تزال عصابةٌ من أمتي يُقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حولها ، لا يضرُّهم خذْلان مَنْ خَذَلهم ، ظاهرين على الحق ، إلى يوم القيامة .

ومن حديث آخر : أنه قال :

لا يزالُ بدمشق عصابة يقاتلون على الحق حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون .

وعن أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ قال :

لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على أبواب بيت المقدس وما حولها ، وعلى أبواب أنطاكية وما حولها ، وعلى باب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب الطالَقان[1] وما حولها ظاهرين على الحق ، لا يُبالون مَنْ خَذَلهم ولا مَنْ نَصَرهم حتى يُخرج الله كنزه من الطالقان ، فيُحيي به دينه كما أُميتَ من قبل .

قال : وهذا الإسناد غريب ، وألفاظ غريبة جداً .

وعن أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ قال :

لا يزال لهذا الأمر ـ أو على هذا الأمر ـ عصابة على الحق ، لا يضرّهم خلافُ مَنْ خالفهم حتى يأتيهم أمرُ الله .

وروي أن أبا هريرة وابن السِمْط كانا يقولان :

لا يزال المسلمون في الأرض حتى تقوم الساعة ، وذلك أن رسول الله ﷺ قال : لا تزال من أمتي عصابة قوّامة على أمر الله لا يضرّها مَن خالفها ، تقاتل أعداء الله ، كلما

---

(١) الطالَقان موضعان : الأول بين مرو الرّوذ وبلخ ، والثاني بلدة وكورة بين قزوين وأَبْهَر . وهي عدة قرى يشملها هذا الاسم . انظر المشترك وضعاً ومعجم البلدان .

ذهب حرب نشب حربُ قوم آخرين ، يُزيغ الله قلوب قوم ليرزقهم منه[1] ، حتى تأتيهم الساعة كأنها قِطَع الليل المظلم ، فيفزعون لذلك حتى يلبسوا له أبدان الدروع .

وقال رسول الله ﷺ : هم أهل الشام ، ونكتَ رسولُ الله ﷺ بإصبعه ، يومىء بها إلى الشام ، حتى أوجعها .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

لن تبرح هذه الأمةُ منصورين أينما توجّهوا ، لا يضرّهم مَنْ خَذَلَهم من الناس حتى يأتي أمرُ الله ، أكثرُهم أهل الشام .

وفي رواية :

لن تبرح هذه الأمة منصورةً تُقذَف كل مَقْذَف ، منصورين أينما توجّهوا [٢٩ / ب] لا يضرّهم من خَذَلَهم من الناس ، هم أهل الشام .

وفي رواية :

لا يُبالون مَن خالفهم حتى ينزل عيسى بنُ مريم عليه السلام .

قال أبو عمرو يَفصِّل فيه :

فحدثتُ بهذا الحديث قتادة فقال : لا أعلم أولئك إلا أهل الشام .

عن عُمير بن هانىء قال : سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرّهم مَن خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس . فقام مالك بن يُخامِر السكسكي فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعتُ معاذ بن جبل يقول : وهم أهل الشام ، فقال معاوية ورفع صوته : هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول : وهم أهل الشام .

وفي رواية مُسلم بن هُرْمُز :

أنه سمع معاوية يقول في خطبته ـ وذكرَ الحديثَ ـ وقال في آخره : وأنا أرجو أن تكونوا أنتم يا أهل الشام .

---

(١) فوق اللفظة في الأصل « ضبة » .

وفي رواية يونس بن حَلْبَس الجَنَدي[1]:

ثم نزعَ بهذه الآية : ﴿ يا عِيسَى إنّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ - يا محمَّد - ﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى يَوْمِ القِيامَةِ ﴾[2].

وعن عبد الله بن عمر : عن رسول الله ﷺ قال :

إذا هلك أهل الشام فلا خير في أمتي . وذكر باقي الحديث .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ :

لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، يقذف الله بهم كل مَقْذَف ، يقاتلون فضول الضلالة ، لا يضرّهم من خالفهم حتى يقاتلوا الأعور الدجال ، وأكثرهم أهلُ الشام .

وعن ثَوْبان أن نبي الله ﷺ قال :

إن الله زَوَى[3] لي الأرضَ حتى رأيتُ مشارقها ومغاربها ، وأعطاني الكَنْزَيْن الأحمر والأبيض ، وإن مُلكَ أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها . وإني سألت ربي لأمتي ألا يُهلكهم بسَنَة، ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم ، ولو اجتمع عليهم مَن بينَ أقطارها ، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ، وبعضهم يُفني بعضاً ، وبعضهم [٣٠ / أ] يسبي بعضاً . وإنه سترجع قبائل من أمتي إلى الشرك وعبادة الأوثان ، وإنّ أخْوَفَ ما أخاف على أمتي الأئمةُ المضلون ، وإنهم إذا وضعوا السيف فيهم لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة . وإنه سيخرج من أمتي دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، وإني خاتم النبيين ، لا نبيَّ بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمرُ الله .

وعن ابن عَوْن الأنصاري : أن النعمان بن بشير خطب يوماً على المنبر فقال : قال رسول الله ﷺ :

لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لا يبالون مَن خالفهم حتى يأتي أمرُ الله . قال النعمان : فمن قال : إني أقول عن رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ فإن تصديق ذلك في كتاب الله . إن الله عز وجل يقول : ﴿ يَا عِيسَى إنّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾[2] .

---

(١) صحح ابن عساكر في تاريخه هذه النسبة بعد أن أورد الخبر . قال : « والصواب : الجُبْلاني » انظر نسخة الظاهرية . والنسبة إلى جُبلان بطن من حمير ، انظر الأنساب ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران ٣ / ٥٥ .

(٣) زوى : جمع . « القاموس والنهاية : « زوي » .

باب غناء أهل دمشق في الملاحم
وتقديمهم في الحروب

عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

إذا كانت الملاحم خرج من دمشق بَعْثٌ من الموالي هم خيار عباد الله ، أبعثُهم فَرَساً وأجودهم سِلاحاً .

وفي رواية أخرى :

إذا وقعت الملاحم بعثَ الله من دمشق بعثاً من الموالي ، هم أكرم العرب فرساً ، وأجودُه سلاحاً ، يؤيد الله بهم الدين .

وفي رواية عطية بن قيس :

خرج بعثٌ من دمشق ، هم خيار عباد الله الأولين والآخرين .

وعن ابن مُحَيْريز قال :

خيرُ فوارس تُظِل السماءُ فوارسُ من قيس ، يخرجون من غوطة دمشق ، يقاتلون الدَّجال .

قال الوليد : أخبرني إسماعيل وغيرُه

أنه كان في كتاب معاوية إلى عبد الله بن قُرْط : بلغني كتابك في مواضع رايات الأجناد المعلومة ، فهي على مواضعها الأولى . فإذا حضر أهلُ الشام جميعاً فأهلُ دمشق وحمص ميمنة الإمام .

قال الوليد بن مسلم :

وحدثني [٣٠ / ب] شيخ من قدماء الجند ممن كان يلزم الجهاد في الزمان الأول أن

أهل الشام كانوا إذا غَزَوْا الصوائف كانوا ينزلون أجناداً ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ في مسيرهم ، إذا ساروا إلى الشام ينزلون أرباعاً . قال الشيخ : وكما كانت بنو إسرائيل مع موسى - عليه السلام - ثم بعده تنزل في عساكرها أسباطاً . وكان بين كل جُنْدَين فُرْجة ، وطريقٌ للعامّة ، ومجالٌ للخيل ، ومركز لها ، إنْ كانت فزعة من ليلٍ أو نهار . قلت : فأين كان ينزل والي الصائفة ؟ وفيمن ؟ قال : كان ينزل بخاصته ورهطه في القلب ، في أهل دمشق ، ثم ينزل أجناد الشام يمنة ويسرة .

قال : وحدثني شيخ من قدماء المشيخة ممن كان يلزم الجهاد أنهم كانوا إذا كان اللقاءُ تقدم رَبع قريش من أهل دمشق حتى يكونوا عند راية الأمير والجماعة ، ثم رَبع كِنْدة من جند دمشق عن يمنتهم .

قال الوليد : وقالوا : - يريد المشيخة

لأن دمشق كانت عند سَيْرِ أصحاب رسول الله ﷺ إلى الشام وجهَ[1] الشام ، إليها ساروا ، وبها بدؤوا ، فلما فتحوا كان غيرها من مدائن الشام لها تبعاً . قال : فاتخذها أصحاب رسول الله ﷺ داراً وفُسطاطاً ومجتمعاً ، وفيها منزلُ واليهم الأعظم وبيت مالهم .

قال سليمان بن أبي شيخ :

سألت أبا سفيان الحميري : كم كان جند بني أمية ؟ قال : ثلاث مئة ألف ، وخمسون ألفاً من أهل الشام . ومئة وخمسون ألفاً من أهل العراق .

---

(١) في الأصل : « ووجه » وما هنا عن ابن عساكر .

ما جاء في أن أهل دمشق
يُعرفون في الجنة بالثياب الخضر

عن عروة بن رُوَيم

أن رجلاً لقي كعب الأحبار فسلَّمَ عليه ودعا له ، فسألـه كعب : ممن هو ؟ قـال : من أهل الشام . قال : لعلك من الجند الذين يدخل الجنة منهم سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب ؟ قال : ومَن هم ؟ قال : أهل حمص . قال : لستُ منهم . قـال : فلعلـك من الجند الذين يُعرفون [٣١ / أ] في الجنـة بـالثيـاب الخضر ؛ قـال : ومَن هم ؟ قـال : أهل دمشق . قال : لستُ منهم . قال : فلعلك من الجنـد الـذين هم تحت ظل عرش الرحمن ؟ قال : ومَن هم ؟ قال : أهل أردن ، قال : لستُ منهم . قـال : فلعلـك من الجنـد الـذين ينظر [الله][1] إليهم في كل يوم مرتين ؟ قال : ومَن هم ؟ قـال : أهل فلسطين . قـال : نعم ، أنا منهم .

وفي رواية :

في أهل حمص ـ الذين يَشفع شهيدهم بسبعين .

---

(١) ليست لفظة الجلالة في الأصل ولا في تاريخ ابن عساكر .

دعاء النبي لأهل الشام أن يهديهم الله
ويُقبل بقلوبهم إلى الإسلام

عن أنس

أن رسول الله ﷺ نظر نحو الشام فقال : اللهم أقبِلْ بقلوبهم ، ثم نظر نحو اليمن فقال : اللهم أقبلْ بقلوبهم ، ثم نظر نحو العراق فقال : اللهم أقبل بقلوبهم ، ثم قال : اللهم باركْ لنا في ثمرة أرضنا ، وباركْ لنا في صاعنا ومُدّنا .

وعنه

أن النبي ﷺ نظر قِبَلَ العراق والشام واليمن ـ قال : لا أدري بأيتهن بدأ ـ ثم قال : اللهم أقبِلْ بقلوبهم إلى طاعتك ، وأحِطْ من ورائهم .

وعن جابر بن عبد الله

أنه سمع النبي ﷺ يوماً وهو على المنبر نظر قِبلَ الشام فقال : اللهم أقبل بقلوبهم ، اللهم أقبل بقلوبهم . ونظر قِبل العراق فقال نحو ذلك ، وقِبل كل أفق فقال مثل ذلك . وقال : اللهم ارزقنا من ثمرات الأرض ، وبارك لنا في مُدنا وصاعنا . وقال : مثل المؤمن كمثل السنبلة تخرُّ مرة وتستقيم مرة ، ومثل الكافر كمثل الأرزة لا تزال تستقيم حتى تخرَّ ولا تشعرَ .

ما رُوي في أن أهل الشام مرابطون
وأنهم جند الله الغالبون

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ :

أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله ، فمن احتل منها مدينة فهو في رباط . ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد .

[٣١ / ب] وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال :

سيُفتح على أمتي من بعدي الشام وشيكاً ، فإذا فتحها فاحتلها فأهل الشام مرابطون إلى منتهى الجزيرة ، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم وعبيدهم ، فمن احتل ساحلاً من تلك السواحل فهو في جهاد ، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو في رباط .

وعن أرطاة بن المنذر

أن عمر قال لجلسائه : أيُّ الناس أعظمَ أجراً ؟ قال : فجعلوا يذكرون له الصوم والصلاة . قال : ويقولون : فلان وفلان بعد أمير المؤمنين . فقال : ألا أخبركم بأعظم الناس أجراً ممن ذكرتم ، ومن أمير المؤمنين ؟ قالوا : بلى . قال : رُوَيجل بالشام أخذ بلجام فرسه ، يكلأ من وراءً ، بيضةَ المسلمين ، لا يدري أسَبُعٌ يفترسه ، أم هامة تلدغه ، أو عدوّ يغشاه ؟ فذلك أعظم أجراً ممن ذكرتم ، ومن أمير المؤمنين .

وعن إبراهيم اليماني قال :

قدمتُ من اليمن فأتيتُ سفيانَ الثوري فقلت : يا أبا عبد الله ، إني جعلت في نفسي أن أنزل جُدّة فأرابط بها كلَّ سنة ، واعتمر في كل شهر عُمرة ، وأحجٌ في كل سنة

حجـة ، وأقربُ من أهلي ، أحَبُّ إليـك أم آتي الشـام ؟ فقـال لي : يـا أخـا أهـل اليمن ، عليك بسواحل الشام ، عليك بسواحل الشـام . فـإن هـذا البيت يحجّةٌ في كل عـام مئـة ألف ، ومئة ألف وثلاث مئة ألفٍ ، وما شاء الله من التضعيف ، لـك مثلُ حجّهم وعُمرهم ومناسكهم .

وعن مالك بن أنس قال :

قال لي أبو جعفر المنصور يومـاً : مـا على ظهرهـا أحـد أعلم منـك ؟ قلت : بلى . قال : فسمِّهم لي . قلت : لا أحفظ أسماءهم . قـال : قـد طلبت هـذا الشـأن في زمـان بني أمية فقد عرفته . أما أهل العراق فأهل إفك وباطل وزور . وأما أهل الشام فأهل جهـاد وليس فيهم كثير علم . وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عالم الحجاز .

وعن خُرَيم بن فاتك الأسدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

أهـل الشـام سَـوْط الله تبـارك وتعـالى في أرضـه يَنتقم [٣٢ / أ] بهم ممن يشـاء من عباده ، حرامٌ على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ، ولا يموتون إلا غماً وهماً .

وعن عطاء بن السائب قال :

سمعت عبـد الرحمن الحضرمي ، أيـام ابن الأشعث يخطب ، وهـو يقـول : يـا أهـل الشام ، أبشروا فإن فلانـاً أخبرني أن رسول الله ﷺ قـال : يكون قوم من آخر أمتي يُعطَوْن من الأجر مثل ما يُعطَى أولهم ، ويقاتلون أهل الفتن ، يُنكرون المنكر ، وأنتم هم .

وعن قتادة

في قوله تعالى : ﴿ وإنّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالبون ﴾[1] قال : هم أهل الشام .

وعن كعب قال :

أهل الشام سيف من سيوف الله ، ينتقم الله بهم ممن عصاه في أرضه .

وعن عون بن عبد الله بن عُتْبة قال :

قرأت فيما أنزل الله عز وجل على بعض الأنبيـاء أن الله يقول : أهل الشام كنانتي ، فإذا غضبتُ على قوم رميتهم منها بسهم .

---

(١) سورة الصافات ٣٧ / ١٧٣

وعن أبي بكر النَّهشلي قال :

كنت في الجمع - يعني جَمْع الكوفة - يوم جاء أهل الشام يقاتلون أهل الكوفة ، فإذا شيخ حسنُ الخضاب ، حسنُ الهيئة ، على دابةٍ له ، وهو يقول : اللهم لا تنصرنا عليهم ، اللهم فرِّق بيننا وبينهم ، اللهم ، اللهم . قال : قلت : يا عبد الله ، ألا تتقي الله ؟ ألا تخرج ترى قوماً قد جاؤوا يريدون يقاتلون مقاتلتنا ويَسبُون ذرارينا ، وأنت تقول: اللهم لا تنصرنا عليهم ، اللهم ، اللهم . قال : ويحك ، إني سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لا يغلب أهلَ الشام إلا شرارُ الخلق .

وعن زيد بن واقد قال : سمعت مكحولاً يقول :

الحمد لله الذي أطعمنا الطعام ، وأسقانا الشراب ، وجعلنا من أهل الشام ، ويا ربّ لا تُبقني بعد هشام .

ما جاء أن بالشام تكون الأبدال

عن شُريح بن عُبيد قال :

ذُكر الشام عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق فقالوا : العنْهُم يا أمير المؤمنين . قال : لا ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : الأبدالُ [٣٢ / ب] يكونون بالشام ، وهم أربعون رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، فيُسقى بهم الغيث ، ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب .

وعن شَهْر بن حَوْشَب قال :

لما فُتحت مصر سَبُّوا أهل الشام ، فأخرج عوف بن مالك رأسه من بُرْنسه ثم قال : يا أهل مصر ، أنا عوف بن مالك ، لا تسبّوا أهل الشام ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : فيهم الأبدال ، وبهم تُنصرون ، وبهم تُرزقون .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال :

البُدَلاء أربعون : اثنان وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق . كلما مات منهم واحد أبدل الله تبارك وتعالى مكانه آخر ، فإذا جاء الأمر قُبضوا كلّهم ، فعند ذلك تقوم الساعة .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال :

دعائم أمتي عصائب اليمن ، وأربعون رجلاً من الأبدال بالشام ، كلما مات رجلٌ أبدلَ اللهُ مكانه ، أما إنّهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكنْ بسخاء الأنفس ، وسلامةِ الصدور ، والنصيحة للمسلمين .

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال :

يكون اختلافٌ عند موت خليفةٍ ، فيخرج رجل من المدينة هارباً إلى مكة ، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره ، فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويُبعث إليه بعثٌ من الشام فيُخسَف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل

الشام ، وعصائب أهل العراق فيبايعونـه . ثم ينشـأ رجل من قريش أخوالـه كلب ، فيَبعَث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم ، وذلـك بعث كلب ، والخيبـة لمن لم يشهـد غنيمـة كلب ، فيقسم المـال ، ويعمـل فيهم بسنـة نبيهم ﷺ ، ويلقي الإسـلام بجرانـه إلى الأرض ، فيمكث سبـع سنين ، ثم يُتوفّى ويصلي عليه المسلمون .

وفي رواية [٣٣ / أ] تسـع سنين .

وعن ابن عباس يرفعه قال : قال رسول الله ﷺ :

مكة آية الشرف ، والمدينة معدِن الـدين ، والكوفـة فُسطـاط الإسلام ، والبصرة فخر العـابـدين ، والشـام معـدِن الأبرار ، ومصر عش إبليس وكهفـه ومستقره ، والسِّنْـد مِـداد إبليس ، والزنى في الزَّنج ، والصـدق في النُّوبـة ، والبحرين منزل مبـارك ، والجزيرة معـدِن القتل ، وأهل اليمن أفئدتهم رقيقة ، ولا يعدمهم الرزق ، والأئمة من قريش ، وسـادة النـاس بنو هاشم .

وعن علي رضي الله عنه قال :

قبة الإسلام بالكوفة ، والهجرة بـالمـدينـة ، والنُّجَبـاء بمصر ، والأبـدال بـالشـام ، وهم قليل .

قال كعب :

الأبدال ثلاثون .

وفي حديث آخر :

الأبدال بالشام ، والنجباء بالكوفة .

وفي آخر :

والأخيار من أهل العراق .

وعن علي عليه السلام قال :

إذا قام قـائمُ آلِ محمـد جمع الله لـه أهل المشرق وأهل المغرب ، فيجتمعون كما يجتمع قَزَع[1] الخريف ، فأما الرفقاء فمن أهل الكوفة ، وأما الأبدال فمن أهل الشام .

---

(١) « القَزَع ـ محركة : قِطع من السحاب متفرقة . اللسان : «قزع» .

وعن علي أنه قال وهو بالكوفة :

ما أشدّ بلايا الكوفة ، لا تسبُّوا أهل الكوفة ، فوالله إنّ فيهم لمصابيح الهدى ، وأوتاد ذِكْر ، ومتاعاً إلى حين ، والله لَيَدُقَّنّ الله بهم جناح كفر لا ينجبر أبداً . إن مكة حرم إبراهيم ، والمدينة حرم رسول الله ﷺ ، والكوفة حرمي . وما من مؤمن إلا وهو من أهل الكوفة ، أو هواه لينزع إليها . ألا إن الأوتاد من أبناء الكوفة ، وفي مصر من الأمصار ، وفي أهل الشام أبدال .

وعن الحسن البصري قال :

لن تخلو الأرض من سبعين صِدّيقاً ، وهم الأبدال ، لا يَهلك منهم رجل إلا أخلف مكانه مثله ، أربعون بالشام ، وثلاثون في سائر الأرضين .

وعن أم عبد الله بنة خالد بن مَعْدان عن أبيها قالت :

قالت الأرض للربّ تبارك وتعالى : كيف تَدَعُني وليس عليّ نبيّ ؟ قال : سوف أدَعُ عليك أربعين صِدّيقاً بالشام .

وقال الفُضيل بن فَضالة :

الأبدال بالشام [٣٣ / ب] : في حمص خمسة وعشرون رجلاً ، وفي دمشق ثلاثة عشر ، وببيسان اثنان .

وقال الحسن بن يحيى :

بدمشق من الأبدال سبعة عشر نفساً ، وببيسان أربعة .

وعن ابن شَوْذَب قال :

الأبدال سبعون : فستّون بالشام ، وعشرة بسائر الأرضين .

وعن(١) عثمان بن عطاء عن أبيه(١) عطاء قال :

الأبدال أربعون إنساناً . قال : قلت له : أربعون رجلاً ؟ قال : لا تقل أربعين رجلاً ، ولكن قل أربعين إنساناً ، لعل فيهم نساءً .

(١ ـ ١) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل وإلى جانبه « صح »

وقال أبو سليمان :

المجتهدون بالبصرة ، والفقهاء بالعراق ، والزهاد بخراسان ، والبُدَلاء بالشام .

وقال الكتاني :

النُقباء ثلاث مئة ، والنُجباء سبعون ، والبُدَلاء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعُمَد أربعة ، والغوث واحد . فسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سياحون في الأرض ، والعمد في زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة . فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ، ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العُمَد . فإن أجيبوا ، وإلا ابتهل الغوثُ ، فلا تتمّ مسألته حتى تجاب دَعْوته .

حدث شيخٌ من أهل صنعاء من جلساء وهَبْ بن مُنَبّه قال[1] :

رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقلت : يا رسول الله ، أين بُدَلاءَ أمتك ؟ فأومأ بيده نحو الشام . قال : قلت : يا رسول الله ، أما بالعراق منهم أحد ؟ قال : بلى ، محمد بن واسع ، وحسان بن أبي سنان ، ومالك بن دينار الذي يمشي في الناس بمثل زهد أبي ذر في زمانه .

وعن ابن عُمر عن النبي ﷺ قال :

خيار أمتي خمس مئة ، والأبدال أربعون . كلما مات بَديل أدخل الله مكانه من الخمس مئة ، وأدخل في الأربعين مكانهم . فلا الخمس مئة ينقصون ، ولا الأربعون ينقصون . قالوا : يا رسول الله ، دُلَّنا على أعمال هؤلاء . قال : يَعْفون عمّن ظَلَمهم ، ويُحسنون إلى من أساء إليهم ، ويُواسون فيما آتاهم الله ، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ والكاظِمينَ الغيظَ والعافِيْنَ عنِ الناسِ [٣٤ / أ] واللهُ يُحِبُّ المُحْسنين ﴾[2].

وفي رواية أخرى :

خيار أمتي في كل قرن .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :

إن للهِ عزّ وجلّ في الخلق ثلاث مئة ، قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله تعالى في

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١١٤

(٢) سورة آل عمران ٣ / ١٣٤

الخلق أربعون ، قلوبهم على قلب موسى عليه السلام . ولله في الخلق سبعة ، قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام ، ولله تعالى في الخلق خمسة ، قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام ، ولله تعالى في الخلق ثلاثةٌ ، قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله في الخلق واحد ، قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام . فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين ، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاث مئة ، فإذا مات من الثلاث مئة أبدل الله مكانه من العامّة . فَبِهم يُحيي ويُميت ويُمطر ويُقيت ، ويدفع البلاء .

قيل لعبد الله بن مسعود :

كيف بهم يحيي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون الله عزَّ وجلَّ إكثار الأمم فيكثرون ، ويدعون على الجبابرة فيُقصمون ، ويَستسقُون فيُسْقَوْن ، ويسألون فتُنبت لهم الأرض ، ويدعون فتُدفع بهم أنواع البلاء .

وعن أبي الزناد قال :

لمّا ذهبت النبوة ، وكانوا أوتادَ الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال ، لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه ، وهم أوتاد الأرض ، قلوبُ ثلاثين منهم على مثل يقين إبراهيم ، لم يَفضُلوا الناسَ بكثرة الصلاة ولا بكثرة الصيام ، ولا بحسن التخشع ، ولا بحسن الحلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة القلوب ، والنصيحة لجميع المسلمين ، ابتغاءَ مرضاة الله ، بصبر دَجِير[1]، ولبٌّ حليم ، وتواضع في غير مذلة . وَاعْلَمْ أنهم لا يلعنون شيئاً ، ولا يؤذون أحداً ، ولا يتطاولون على أحدٍ تحتهم ، ولا يحقرونه ، ولا يحسدون أحداً فوقهم ، ليسوا بمتخشّعين [٣٤ / ب] ولا مُتَماوتين[2] ، ولا مُعْجبين ، لا يُحبّون لِدّنيا ، ولا يُحبّون الدنيا ، ليسوا اليومَ في وحشة ، وغداً في غفلة[3] .

---

(١) في اللسان : « دجر » ورجل دَجِر ودَجْران ، النشيط الذي فيه مع نشاطه أَشَر .

(٢) المتماوت : الناسك المرائي . القاموس : « موت » .

(٣) كذا في الأصل والتاريخ . ولعل العكس هو الأفضل .

ما جاء في نفي الخير عند فساد أهل الشام

عن معاوية بن قُرّة عن أبيه عن النبي ﷺ قال :

إذا هلك أهل الشام فلا خير في أمتي ، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يُقاتلوا الدجال .

وفي رواية عنه[1] :

إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، ولن تزال طائفة من أمتي منصورين ، لا يضرّهم مَن خَذَلَهم حتى تقوم الساعة .

وعن الحسن أنه قال :

خيار أهل الشام خير من خياركم ، وشرار أهل الشام خير من شراركم . قالوا : لِمَ تقول هذا يا أبا سعيد ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ ونجّيناهُ ولوطاً إلى الأرضِ الّتي باركْنا فِيها لِلْعالَمِينْ ﴾[2].

---

(١) استدركت اللفظة في الهامش .

(٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٧١

ما جاء من أن بالشام تكون بقايا العرب

عن أبي هريرة قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل معاذ بن جبل - أو سعد بن معاذ - فقال رسول الله ﷺ حين رآه : إني لأرى في وجهه لأحي[1] طالع . قال : فجاء حتى سلم على رسول الله ﷺ فقال : أبشر يا رسول الله ، فقد قتلَ اللهُ كسرى . فقال رسول الله ﷺ : لعن الله كسرى ، ثلاثاً ، ثم قال : إن أول الناس فناءً ، أو هلاكاً ، فارس ، ثم العرب من ورائها ، ثم أشار بيده قِبَل الشام ، إلا بقية ها هنا .

وفي رواية :

أولَ الناس هلاكاً فارس ، ثم العرب ، إلا بقايا هاهنا - يعني الشام .

---

(١) كذا في الأصل . وفي الهامش كتب حرف « ط » لعله إشارة إلى عدم وضوح اللفظة . وفي تاريخ ابن عساكر ٢٦٨/١ : « لأحسن » .

بابُ انحياز بقية المؤمنين
آخر الزمان إلى الشام

عن القاسم بن عبد الرحمن قال :

مَدّ الفراتُ على عهد عبد الله بن مسعود ، فكره الناس ذلك ، فقال عبد الله : يا أيها الناس لا تكرهوا مدّه فإنه يوشك [٣٥ / أ] أن يُلتمس فيه ملء طست من ماء فلا يوجد ، وذلك حين يرجع كل ماء إلى عنصره . ويكون الماء وبقية المؤمنين بالشام .

وعن عبد الله بن عمرو قال :

يأتي على الناس زمان ، لا يبقى على الأرض مؤمن إلا لحق بالشام .

وعن أبي أمامة قال :

لا تقوم السّاعة حتى يتحول أشرار الناس إلى العراق ، وخيار أهل العراق إلى الشام ، حتى تكون الشام شاماً والعراق عراقاً .

وعن شُرَحْبيل بن مُسْلم عن أبيه قال :

بلغنا أنه لن تقوم الساعة حتى يخرج خيار أهل العراق إلى الشام ، ويخرج شرار أهل الشام من الشام[1] إلى العراق ، فأكرَهُ أن يدركني أجلي وأنا بالعراق .

---

(١) استدركت لفظتا « من الشام » في هامش الأصل وإلى جانبها « صح »

ما ذكر من تمسك أهل الشام بالطاعة

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال :

دخل إبليس العراق فقضى حاجته منها ، ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ بُسَاق[1]، ثم دخل مصر فباض فيها وفرّخ وبسط عبقريّه[2] .

وفي رواية :

حتى بلغ جبل بُسَاق .

وعن ابن عمر قال :

نزل الشيطان بالمشرق فقضى قضاءه ، ثم خرج يريد الأرض المقدسة الشام ، فمُنع ، فخرج على بُسَاق ، حتى جاء المغرب فباض بيضَهُ ، وبسط بها عبقريّه .

وعن مُحرِز أبي حارثة القَيْني وأبي عثمان الغساني ـ يعني : يزيد بن أُسَيد قالا :

لما قدم كتاب عثمان إلى أهل الشام في القراءة قالوا : سمعنا وأطعنا ، وما اختلف في ذلك اثنان . انتهوا إلى ما اجتمعت عليه الأمة ، وعرفوا فضله .

وعنهما :

أن معاوية قال لابن الكواء : أخبِرْني عن أهل الأحداث من أهل الأمصار . فذكرهُ إلى أن قال : وأما أهل الأحداث من أهل الشام فأطوعَ الناس لمرشدهم ، وأعصاهم لمغويهم .

وعن أم الدرداء قالت :

قدم أبو الدرداء على عثمان حاجّاً ، فقال له عثمان : يا أبا الدرداء ، إني قد استنكرت مَن يليني ، ولم أسأل أحداً من أهل الآفاق عمن يليه إلا وقد وجدته استنكر من [٣٥ / ب]

---

(١) بُساق : عقبة بين التيه وأيلة . معجم البلدان

(٢) العبقري : الطنافس الثخان . وقيل : البسط المُوَشيّة . اللسان والنهاية : « عبقر » .

يليه ، فما أعرف شيئاً ، فكيف بكم ؟ فقال : ما يعصينا أهل بلادنا ولا يستبدّون علينا . قال : فالزَمْها ، فوالله لَينقلَنّ الله الأمر إليكم ، فقد استنكرتِ الأشياءُ ، فما تَعرَفُ إلا الصلاة يا أبا الدرداء ، وإنها من آخر ما يُنكر من هذا الأمر .

وعن عبد الملك بن عُمَيْر قال :

كان عامة خطبة يزيد بن أبي سفيان وهو على الشام : عليكم بالطاعة والجماعة ، فمن ثَمّ لا يعرف أهل الشام إلا الطاعة .

وعن زهير بن الأرقم قال :

خَطَبَنا علي بن أبي طالب فقال : ألا إن بُسْراً قد طلع من قِبل معاوية ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرُّقكم عن حقكم ، وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم ، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم . استعملتُ فلاناً فغلّ وغدر ، وحمل المال إلى معاوية ، واستعملت فلاناً فخان وغَدر ، وحمل المال إلى معاوية حتى لو ائتمنتُ أحدكم على قَدَح خشيتُ على علاقته . اللهم إني قد أبغضتهم وأبغضوني ، فأرحهم مني ، وأرحني منهم[(١)] .

وعن خَبّاب بن عبد الله :

أن معاوية بعث خيلاً فأغارت على هِيت[(٢)] والأنبار[(٣)] ، فاستنفر عليّ الناس ، فأبطؤوا وتثاقلوا ، فخطبهم فقال :

أيها الناس ، المجتمعةُ أبدانُهم المتفرقةُ أهواؤهم ، ما عزّت دعوةُ مَن دعاكم ، ولا استراح قلبُ مَن قاساكم ، كلامكم يوهي الصُّم الصِلاب ، وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم ، فإذا دعوتكم إلى المسير أبطأتم وتثاقلتم ، وقلتم : كيت وكيت ، أعاليل أباطيل . سألتموني التأخير دفاعَ ذي الدَيْن المَطُول ، حِيدي حياد ، لا يمنع الضيمَ الذليل ، ولا يُدْرَك الحق إلا بالجد والصدق ، فأيَّ دارٍ بعد داركم تمنعون ؟ ، ومع أي إمام بعدي تقاتلون ؟ المغرورُ والله مَن غررتموه ، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخْيَب ، أصبحتم والله لا أُصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم . فرق الله بيني وبينكم ، وأعقبني بكم مَن هو خير لي منكم ، وأعقبكم مني مَن هو شرٌّ لكم مني

(١) انظر نهج البلاغة ١ / ١١٠ وعِلاقة القدح : مايعلق به . اللسان : « علق » .

(٢) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار « معجم البلدان »

(٣) الأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد « معجم البلدان »

[٣٦ / أ] أما إنكم ستَلْقَون بعدي ثلاثاً : ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وأَثَرةً قبيحة ، يتخذها فيكم الظالمون سُنّة ، فَتبكي لذلك أعينكم ، ويدخل الفقر بيوتكم . وستذكرون عند تلك المواطن ، فتودون أنكم رأيتموني ، وهرقتم دماءكم دوني ، فلا يبعدِ الله إلا مَن ظَلَم . والله لوددتُ أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدراهم ، عشرةً منكم برجل من أهل الشام .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّا وإيّاك كما قال الأعشى[1] : [البسيط]

عُلِّقتُها عَرَضاً وعُلِّقتْ رجلاً غيري وعُلِّقَ أخرى غيرَها الرَّجلُ

عَلِقْنا بحَبْلك ، وعَلِقْتَ أنت بأهل الشام ، وعَلِق أهل الشام معاوية .

وعن دَغْفَل قال :

قال المال : أنا أسكن العراق ، فقال الغدر : أنا أسكن معك . وقالت الطاعة : أنا أسكن الشام ، قال الجفاء : أنا أسكن معك . قال العيش : أنا أسكن مصر ، قال الموت : أنا أسكن معك . وقالت المروءة : أنا أسكن الحجاز ، فقال الفقر : وأنا أسكن معك .

قال أبو زكريا[2] ـ يعني يحيى بن عثمان بن صالح[2] :

وسمعت أنه كان مكتوباً على صخرة بباب العريش يقرؤه من دخل مصر : ادخل إلى بلدٍ وفيّ ، وعيشٍ رخي ، وموتٍ وَحِيّ[3] .

وعن إسماعيل[4] بن يسار قال :

لو أنزل أخَوان من حصن ، فسكن أحدهما الشام ، وسكن الآخر العراق ، ثم لقيتَ الشامي لوجدته يذكر الطاعة وأمر الطاعة والجهاد ، ولو لقيت الآخر لوجدته يسأل عن السُّنّة ، يقول : كيف سنةُ كذا وكذا ؟ وكيف الأمر في كذا وكذا ؟

قال أبو هانئ المُكتِّب :

سئل عامر عن قتال أهل العراق وأهل الشام ، فقال عامر : لا يزالون يظهَرون علينا

---

(١) البيت من معلقة الأعشى في ديوانه ٤٣

(٢ ـ ٢) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل وبجانبه صح . والعبارة في تاريخ ابن عساكر في آخر الخبر .

(٣) شيء وحِيٌّ : عَجِلٌ « القاموس » : « وحى » .

(٤) كذا في الأصل . وهو سليمان بن يسار . حدث عنه يحيى بن سعيد الأنصاري وانظر التاريخ ١ / ٢٠٧ .

ـ أهل الشـام ـ لأنهم جهلوا الحق واجتمعـوا ، وعلمتم وتفرقتم . فلم يكن الله ليُظهر أهـل فُرقـةٍ على جماعة أبداً .

وعن سليمان بن موسى قال :

إذا كان علم الرجل حجازياً ، وخلقه عراقياً ، وطاعته شامية فقد كمل .

وعن سليمان بن موسى قال :

إذا وجدتَ الرجلَ علمُه عِلْمُ حجازي ، وسخـاؤه سخـاء عراقي ، واستقـامتـه استقـامـة شامي فهو رجل .

وعن عبد الله بن الربيع قال :

قـال أبو جعفر [٣٦ / ب] لإسماعيـل بن عبـد الله : صف لي النـاس ، فقـال : أهـل الحجاز مبتدأ الإسلام وبقية العرب ، وأهل العراق ركن الإسلام ومُقاتلـة عن الـدين ، وأهل الشام حصن الأمة وأبنيـة الأئمـة ، وأهل خراسـان فرسـان الهيجـاء وأعنّـة الرجـاء ، والترك منابت الحصون وأبناء المغازي ، وأهل الهند حكماء ، استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عمّا سواهـا ، والروم أهل كتاب وتديُّن نحّاهم من القرب إلى البعد ، والأنبـاط كان مُلْكهم قـديمـاً فهم لكل قوم عبيد . قال : فأيُّ الولاة أفضل ؟ قال : الباذل للعطاء ، والمُعرض عن السيئـة . قـال : فأيُّهم أخرق ؟ قال : أنهكهم للرعية ، وأتعبهم لها بالخُرق والعقوبة . قـال : فـالطـاعـة على الخوف أبلغُ في حاجة المُلْك أم الطاعـة على المحبـة ؟ قـال : يـا أمير المؤمنين ، الطـاعـة عنـد الخوف تُسِرّ الغَدْر ، وتُتابع عند المعاينة . والطاعة على المحبـة تُضمر الاجتهـاد ، وتُتـابع عنـد الغفلة . قال : فأي الناس أولاهم بالطاعة ؟ قال : أَولاهم بالمضرَّة والمنفعة ، قال : مـا علامـة ذلك ؟ قال : سرعة الإجابـة وبـذل النفس . قـال : فمن ينبغي للمَلِـك أن يتخـذه وزيراً ؟ قال : أسْلَمُهم قلباً ، وأبعدهم من الهوى .

قال أبو الحسن الميموني :

ذكر أبو عبد الله كورة من نحو الشام ، فقال : قَدَريّة ، ويتكلمون به في مَسـاجـدهم ، ويتعرّضون للنـاس . ولكن أهـل دمشـق وأهـل حمص خـاصـةً أصحـابُ سنّـة ، وهم إن رأوا الرجل يُخـالف السُّنـة أخرجوه من بينهم . كانت حمص مسكن ثور بن يزيـد . فلمـا عرفوه بالقَدَر أخرجوه من بينهم ، فسكن بيت المقدس .

ذكر توثيق أهل الشام بالرواية وعلمهم

قال جُبير بن نُفَيْر :

دخلنا على عبد الله بن عمر نسألُه ونسمع منه ، فقال لنا : إن الله بعث محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، فاتبعتْه [٣٧ / أ] ناصيةٌ[1] من الناس . كان الرجل يخرج من بين أبويه فيُبايعُه ، فقاتَلوا على الدين حتى أمّن الله الناس ، وحتى لزموا كلمة الحق . فلما مات النبي ﷺ تشايع الناس وتحزّبوا ، فقامت تلك الناصية ، فقاتلوا الناس حتى ردّوا الناس إلى كلمة الإسلام ، وحتى قالوا : لا إله إلا الله وإن نبيكم ﷺ حقّ . فلمّا اجتمعوا انطلق تلك الناصية براية محمد ﷺ ومعهم الشرائع التي جاء بها النبي ﷺ والهجرة ، مهاجرين حتى نزلوا الشام وتركوا الناس أعْراباً . فمن رآهم فلم يتعلّم من هديهم وينتهي إليه ، وعمِيَ عنه ثم ابتغاه من الأعراب فهو أقلُّ علماً وأشدُّ عمًى .

وعن الزُهْري قال : قالت عائشة :

يا أهل العراق ، أهلُ الشام خير منكم ، خرج إليهم نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ كثير ، فحدثونا بما نعرف ، وخرج إليكم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قليل فحدّثتمونا بما نعرف وما لا نعرف .

قال : وقال الزهري :

إذا سمعتَ بالحديث العراقي فاردُد به ، ثم اردُده .

وقال البيهقي :

فأَرْوِدْ به ، ثم أَرْوِدْ[2] به . وهو الصواب .

قال الوليد بن مُسْلم :

دخلتِ الشَّامَ عشرة آلاف عينٍ رأتْ رسولَ الله ﷺ .

---

(١) نواصي النّاس : أشرافهم . القاموس : « نصي » .

(٢) أرودَ : رفَق . القاموس : « رود » .

وعن إبراهيم قال :

لقيني شامي فقال : إن مصحفنا ومصحف أهل البصرة أثبتُ من مصحف أهل الكوفة . قال : قلنا : لِمَ ؟ قال : لأن أهل الكوفة عُوجلوا ، ويقرؤون على قراءة عبد الله ، فعُوجل مُصحفهم قبل أن يُعْرَض ومصحفنا ومصحف أهل البصرة لم يُبعث به حتى عُرِض .

وعن أبي عُبيد الله مسلم بن مِشْكَم قال : قال لي أبو الدرداء :

اعدُدْ من يقرأ عندنا ، يعني في مجلسنا هذا ، قال أبو عبيد الله : فعددت ألفاً وستَّ مئةٍ ونيفاً ، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرةً عشرة ، لكل عشرةٍ منهم مقرئ . وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن ـ يعني المقرئين ـ فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء . وكان [٣٧ / ب] أبو الدرداء يبتدئ في كل غداةٍ إذا انفتل من الصلاة ، فيقرأ جزءاً من القرآن ، وأصحابه مُحْدقون به يسمعون ألفاظه ، فإذا فرغ من قراءته جلس كلُّ رجل منهم في موضعه ، وأخذ على العشرة الذين أضيفوا إليه ، وكان ابن عامر مُقدَّماً فيهم .

وعن يزيد بن أبي مالك عن أبيه قال :

كان أبو الدرداء يأتي المسجد ثم يصلي الغداة ثم يقرأ في الحلقة ويُقرئ ، حتى إذا أراد القيام قال لأصحابه : هل من وليمةٍ نشهدها أو عقيقة أو فطرة ؟ فإن قالوا : نعم قام إليها ، وإن قالوا : لا قال : اللهم إني أُشهدك أني صائم .

وإن أبا الدرداء هو الذي سَنّ هذه الحَلق يقرأ فيها .

وقال الشيخ ، وهو أبو عمرو الكلبي :

عهدت المسجد الجامع ـ يعني بدمشق ـ وإنّ عند كل عمود شيخاً ، وعليه الناس يكتبون العلم .

وقال الأوزاعي :

كانت الخلفاء بالشام ، فإذا كانت بَليَّةٌ سألوا عنها علماء أهل الشام وأهل المدينة ، وكانت أحاديث العراق لا تجاوز جُدُرَ بيوتهم .

وقال سفيان بن عيينة :

مَن أراد المناسك فعليه بأهل مكة ، ومَن أراد مواقيت الصلاة فعليه بأهل المدينة ،

ومن أراد السِيَر فعليه بأهل الشام ، ومن أراد شيئاً لا يُعرَفُ حقُّه من باطله فعليه بأهل العراق .

وفي حديث آخر عنه قال :

من أراد الإسناد والحديث الذي يُسكَن إليه فعليه بأهل المدينة ، ومن أراد المناسك والعلم بها والمواقيت فعليه بأهل مكة ، ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام ، ومن أراد شيئاً لا يُعْرَف حقُّه من باطله فعليه بأهل العراق .

وقال الشافعي :

إن أردتَ الصلاة ـ يعني ـ فعليك بأهل المدينة ، وإن أردت المناسك فعليك بأهل مكة ، وإن أردت الملاحم فعليك بأهل الشام ، والرأي عن أهل الكوفة .

وقال ابن المبارك :

ما دخلت الشام إلا لأستغني عن حديث أهل الكوفة .

وقال موسى بن هارون :

أهل البصرة يكتبون لعشر سنين ، وأهل الكوفة لعشرين ، وأهل الشام لثلاثين .

وقال [٣٨ / أ] أبو عبد الله الزُّبَيْري :

نسختُ كُتُب الحديث في العشرين لأنها مُجْتَمع العقل . قال : وأُحبّ أن يُشتَغل دونها بحفظ القرآن والفرائض .

وقال عطاء الخراساني :

ما رأيت فقيهاً أفقه ـ إذا وجدته ـ من شامي .

(١) قال صدقة بن خالد(١) : قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر :

كان يُقال : من أراد العلم فلينزل بداريّا بين عَنْس وخَوَلان .

زاد غيره عن يزيد بن محمد ، قال يزيد :

عَنْسٌ وخَوْلان قريتان بدمشق ، فيها مسجدان . يتجمّع في واحد عَنْس وفي واحد خَوْلان . فإذا كان هذا في أهل داريّا ـ وهي قرية من قرى دمشق ـ فما ظَنك بأهل البلد الكبير الذي يحوي الخلق ؟ .

(١ ـ ١) ما بينهما في هامش الأصل وبجانبه « صح »

باب صفة أهل الشام بالدين والثقة

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال :

باعت امرأة طَسْتاً في سوق الصُفر بدمشق ، فوجده المشتري ذهباً فقال لها : أما إني لم أشتره إلا على أنه صُفر وهو ذهب ، فهو لكِ . فقالت : ما ورثناه إلا على أنه صُفر ، فإن كان ذهباً فهو لك . قال : فاختصما إلى الوليد بن عبد الملك ، فأحضر رجاء بن حَيْوَة فقال : انظر فيما بينهما . فعرضه رجاء على المرأة فأبت أن تقبله ، وعرضه على الرجل فأبى أن يقبله . فقال : يا أمير المؤمنين ، أعطها ثمنه واطرحه في بيت مال المسلمين .

وعن يزيد بن جابر قال :

رأيت سواراً من ذهب ، وزنه ثلاثون مثقالاً ، مُعلقاً في قنديل من قناديل مسجد دمشق أكثر من شهر ، لا يأتيه أحد فيأخذه .

وعن جعفر بن محمد ، قال :

كنت مع أبي ، محمد بن علي بمكة في ليالي العشر قبل التروية بيوم أو يومين ، وأبي قائم يُصلي في الحِجْر وأنا جالس وراءه ، فجاءه رجل أبيض الرأس واللحية ، جليل العظام ، بعيد ما بين المنكبين ، عريض الصدر ، عليه ثوبان غليظان ، في هيئة المُحْرِم ، فجلس إلى جنبه ، فعلم أبي أنه يُريد أن يُخفّف الصلاة ، فسلّم ثم أقبل عليه فقال له الرجل : يا أبا جعفر ، أخبرني عن بدء خلق هذا البيت كيف كان ؟ فقال له أبو جعفر [٣٨ / ب] محمد بن علي : ممن أنت ؟ قال : رجُلٌ من أهل الشام ، فقال له محمد بن علي : إن أحاديثنا إذا سقطت إلى الشام جاءتنا صحاحاً ، وإذا سقطت إلى العراق جاءتنا وقد زِيْد فيها ونُقص ثم قال له : بَدْءُ خَلْق هذا البيت . وذكر الحديث .

باب النهي عن سبّ أهل الشام

عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال :

تكون في آخر الزمان فتنة ، يُحَصَّل فيها الناس كما يحصَّل الذهب في المعدن ، فلا تسبوا أهل الشام ، ولكن سُبّوا شرارهم ، فإن فيهم الأبدال . يوشك أن يُرسَل على أهل الشام سَيب من السماء فيفرّق جماعتهم ، حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم ، فعند ذلك يخرج خارجٌ من أهل بيتي في ثلاث رايات ، المُكثر يقول : هم خمسة عشر ألفاً ، والمُقِلّ يقول : هم اثنا عشر ألفاً ، أمارتهم : أَمِتْ أَمِتْ ، يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب المُلْك ، فيقتلهم الله جميعاً ، ويردُّ الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم ، وقاصيهم ودانيهم .

وعنه أيضاً قال :

يا أهل العراق لا تسبُّوا أهل الشام ، فإن فيهم الأبدال .

قال رجاء بن حَيْوَة :

اذكرْ لي رجلين من أهل بيسان ، فإنه بلغني أنه اختص بيسان برجلين من الأبدال ، لا يقبض الله رجلاً منهم إلا بعث الله مكانه رجلاً . ولا تذكرْ لي متماوتاً ولا طعاناً على الأئمة ، فإنه لا يكون منهم الأبدال .

وعن صفوان بن عبد الله بن صفوان

أن رجلاً قال يوم صِفّين : اللهمَّ العنْ أهل الشام . فقال علي : لا تسبوا أهل الشام جماً غفيراً ، فإن فيهم قوماً كارهين لما يَرون ، وإن فيهم يكون الأبدال .

وعن أبي هريرة قال :

لا تسبُّوا أهل الشام ، فإنهم جُنْد الله المُقدَّم .

ما ورد فيمن قُتل من أهل الشام بصِفّين

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

أربع ملاحم في الجنة : [٣٩ / أ] الجمل في الجنة ، وصفين في الجنة ، وحَرّة في الجنة ، وكان يكتم الرابعة .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال :

سمع علي يوم الجمل أو يوم صفين رجلاً يغلو في القول ، يقول الكَفَرة . قال : لا تقولوا ، فإنهم زعموا أنا بغَيْنا عليهم ، وزعمنا أنهم بَغَوا علينا .

وعن سالم بن عُبَيد الأشجعي قال :

رأيت علياً بعد صفين ، وهو آخذ بيدي ونحن نمشي في القتلى ، فجعل علي يستغفر لهم حتى بلغ قتلى أهلِ الشام فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إنّا في أصحاب معاوية ، فقال علي : إنما الحسابُ عَلَيّ وعلى معاوية .

وعن عبد الرحمن بن نافع القارئ قال :

قدمتُ العراق فدخلت دار علي بن أبي طالب التي كان يسكن ، فإذا الموالي حلقتان يتحدثون ، فجلست معهم . فخرج علي وهم يذكرون قتلى علي ومعاوية ، فقالوا : قِبْلتنا واحدة ، وإلهُنا واحد ، ونبيُّنا واحد ، فأين قتلانا وقتلاهم ؟ فأقبل علي ، فلما رآهم قصد إليهم فسكتوا ، فقال علي : ما كنتم تقولون ؟ فسكتوا . فقال علي : عزمتُ عليكم لَتُخْبِرُنّي ، فقالوا : ذكرنا قتلانا وقتلى معاوية ، وأنّ قِبْلَتنا واحدة ، وإلهَنا واحد ، وديننا واحد ، فقال علي : فإني أُخبركم عن ذلك ، إن الحساب عَلَيّ وعلى معاوية .

وعن سَعْد بن إبراهيم قال :

خرج علي بن أبي طالب ذات يوم ومعه عديّ بن حاتم الطائي ، فإذا رجل من طيّء قتيل ، قد قتله أصحاب علي ، فقال عدي : يا ويح هذا ، كان أمسِ مُسلماً واليوم كافراً . فقال علي : مهلاً ، كان أمس مؤمناً وهو اليوم مؤمن .

وعن مكحول :

أن أصحاب علي سألوه عمن قتلوا من أصحاب معاوية . قال : هم المؤمنون .

وعن عُقْبة بن عَلْقَمة اليَشْكُري قال :

شهدتُ مع علي صفين ، فأُتِيَ بخمسة عشر أسيراً من أصحاب معاوية ، فكان من مات منهم غسّله وكفنّه وصلّى عليه .

وعن عبد الرحمن بن جُنْدَب قال :

سئل علي عن قتلاه وقتلى معاوية ، قال : يُؤتى بي وبمعاوية يوم القيامة ، فنجتمع عند ذي العرش ، فأينا فَلَج[1] ، فَلَج أصحابه .

وعن علي رضي الله عنه قال :

[٣٩ / ب] من كان يريد وجه الله منا ومنهم نجا ـ يعني : صفين .

قال عبد الله بن عُروة :

حدثني رجل شهد صفين قال : رأيتُ علياً خرج في بعض تلك الليالي ، فنظر إلى أهل الشام فقال : اللهمَّ اغفر لي ولهم . قال : فأُتِيَ عمّار فأُخبر ، فقال : جُروا له الحصير ما جَرّه لكم .

وعن عبد الله بن رياح أن عماراً قال :

لا تقولوا كَفَرَ أهل الشام ، ولكن قولوا : فَسَقُوا أو ظلموا .

وعن رياح بن الحارث قال : قال رجل من أهل الكوفة :

كفر أهل الشام وربِّ الكعبة ، فقال عمار : لا تقل كفروا ، ولكنهم قوم مفتونون ، بَغَوْا علينا ، فحقٌّ علينا قتالهم .

وعنه قال : كنت إلى جَنْب عمّار بن ياسر بصِفِين ، وركبتي تَمسُّ ركبته ، فقال رجل :

كفر أهل الشام فقال عمار : لا تقلْ ذلك : نبيّنا ونبيّهم واحد ، وقِبْلَتُنا وقِبْلتهم واحدة . ولكنهم قومٌ مفتونون ، جارُوا عن الحق ، فحقٌّ علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه .

---

(١) الفَلْج : الظفر والفوز . القاموس : « فلج »

ذكر ماورد في ذم أهل الشام وبطلانه

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

الجفاء والبغي في الشام .

قال : هذا حديث لا يمكن الاعتماد عليه لضعف إسناده .

وعن أنس أنه سمع النبي ﷺ يقول :

إذا ركب الناس الخيل ولبسوا القُباطيّ ونزلوا الشام ، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء عَمَّهم اللهُ بعقوبة من عنده ،

ذكر في إسناده عَمرو بن زياد الثَّوْباني[1]، وقال : كان مُنكر الحديث ، يسرق الحديث ويحدِّث بالبواطيل .

عن أبي هريرة قال :

سينعِق الشيطان بالشام نعقةً يُكذِّب ثلثاهم بالقَدَر .

قال ابنُ أَبْزَى :

بلغ عمر أن أناساً تكلموا في القَدَر فقام خطيباً فقال : يا أيها الناس ، إنما هلك مَن كان قبلكم في القَدَر ، والذي نفسي بيده لا أسمع برجلين تكلما فيه إلا ضربتُ أعناقهما . قال : فأمسك الناس عنه ، حتى نبغت[2] نابغة أو نبغة بالشام .

وعن الشيباني قال : قال لي الأوزاعي :

يا أبا زُرْعة هلك [٤٠ / أ] عُبّادنا وخيارنا في هذا الرأي ، يعني القَدَر .

كان المتكلِّم في القَدَر بالشام : غَيْلان القَدَري ، وتبعه على ذلك أتباع ، فأخذه

(١) في الأصل : « عبد الوهاب الثقفي » . وانظر تعليق ابن عساكر في التاريخ ٢٣٥/١

(٢) نبغ فيهم النفاق إذا ظهر بعد ما كانوا يخفونه منه . اللسان : « نبغ » .

هشام بن عبد الملك فصلبه ، وكفى أهلَ الشام أمرَه . وقد كانت القَدَرية بالبصرة أكثر ، وضررهم على أهل السنة أكبر ، فإنهم صنفوا في نفيه التصانيف ، وألف أهل الاعتزال فيه التآليف ، فأفناهم الله وأبادهم .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

إن الله عزَّ وجلَّ خلق أربعة أشياء وأردفها أربعة أشياء : خلق الجَدْب ، وأردفهُ الزهد ، وأسكنه الحجاز ، وخلق العفّة ، وأردفها الغَفْلة ، وأسكنها اليمن ، وخلق الزَّيْف ، وأردفه الطاعون ، وأسكنه الشام ، وخلق الفجور ، وأردفه الدرهم ، وأسكنه العراق .

قال : وهذا حديث فيه مجاهيل لا يُحْتَج به .

وعن سليمان بن يسار قال :

كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار أنِ اخترْ لي المنازل فكتب إليه :

يا أمير المؤمنين ، إنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء : أريد اليمن ، فقال حسن الخُلُق : أنا معك . وقال الجفاء : أريد الحجاز ، فقال الفقر : وأنا معك ، وقال البأس : أريد الشام ، فقال السيف : وأنا معك . وقال العلم : أريد العراق ، فقال العقل : وأنا معك . وقال الغِنى : أريد مصر ، فقال الذلّ : وأنا معك . فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين .

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال : فالعراق إذاً ، فالعراق إذاً .

ورواه ابن عائشة أيضاً .

قال ابن عساكر : والمحفوظ عن كعب سوء القول في العراق ، وضعَّف هذه الأحاديث .

وعن أنس بن مالك قال :

لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحاً شرقيّة وغربيّة وقِبْليّة وبحريّة ، فجمعتهم إلى بابل ، فاجتمعوا يومئذٍ ينظرون ، لما حُشِروا له إذ نادى منادٍ : مَن جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره ، واقتصد إلى البيت الحرام بوجهه ، فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود : أنت هو . فكان أولَ مَن تكلم بالعربية [٤٠ / ب] ولم يزل المنادي ينادي : مَن فعل كذا وكذا فله كذا

وكـذا ،حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسـانـاً . وانقطـع الصـوت وتبلبلت الألسن ، فسُمّيت بابل . وكان اللسان يومئذ بابلياً . وهبطت ملائكة الخير والشر ، وملائكة الحياء والإيمان ، وملائكة الصحة والشقاء ، وملائكة الغنى ، وملائكـة الشرف ، وملائكـة المروءة ، وملائكـة الجفاء ، وملائكة الجهل ، وملائكة السيف ، وملائكة البأس ، حتى انتهوا إلى العراق ، فقال بعضهم لبعض : افترقوا . فقال مَلَك الإيمان : أنا أسكن المدينة ومكة ، فقـال ملـك الحيـاء : أنا معك ، فأجْمَعت الأمة على أن الإيمان والحياء ببلد رسول الله ﷺ . وقال ملك الشقـاء : أنا أسكن البادية ، فقال ملك الصحة : وأنا معك ، فأجْمَعت الأمة على أن الصحـة والشقـاء في الأعراب . وقال ملَك الجفاء : أنا أسكن المغرب ، فقال ملك الجهل : أنا معك ، فـأجمعت الأمة على أن الجفاء والجهل في البربر . وقال ملَك السيف : أنا أسكن الشام ، فقال لـه ملَـك البأس : أنا معك . وقال ملَك الغنى : أنا أقيم هاهنا ، فقـال لـه ملَـك المروءة : أنـا معـك . فقال ملك الشرف : وأنا معكما ، فاجتمع ملكُ الغنى والمروءة والشرف بالعراق .

وعن حكيم بن جابر قال :

أُخبرت أن الإسلام قـال : أنـا لاحِقٌ بـأرض الشـام ، قـال الموت : وأنـا معـك . قـال المُلْك : وأنا لاحق بأرض العراق قال القتل : وأنـا معـك . قـال الجوع : وأنـا لاحق بـأرض العرب ، قالت الصحة : وأنا معك .

قال : إنما أراد بذلـك كثرةَ مـا كان بهـا من الطـاعون ، أو القتل في الجهـاد ، وكلاهمـا شهادة . وذلك مَدْح ليس بذم .

قال الجاحظ :

أشياءُ اتفقتْ ثمانيةَ أزواج ستة عشر صنفاً ، ثم اتفقت أزواجاً فصـارت ثمـانيـة أزواج : فقال الدين : أسكنُ الحَرَمَيْن مكة والمدينة ، قالت الأمانة : أنا معك . قال الغنى واليسـار : أسكن مصر ، قال الذل : أنا معك . قال السخـاء : أسكنُ الشـام ، قـالت الشجـاعـة : وأنـا معـك . قــال العقـل : أسكن العراق ، قــالت المروءة : وأنــا معــك . قــال العلم : أسكن خراسان ، قال الورع : وأنا معك . [٤١ / أ] قالت التجارة : أسكنُ خُوْزستان وأصبهان ، قالت النَّذالة : وأنـا معـك . قـال الجفـاء : أسكن المغرب ، قـال الجهل : وأنـا معـك . قـال الفقر : أسكن اليمن ، قالت القناعة : وأنا معك .

وهذا مَدْحٌ ليس بذمّ .

وعن عبد الله بن أبي الهُذَيل :

أن عمر رضي الله عنه أُتي برجل قد أفطر في رمضان . فلما رُفع إليه عَثر ، فقال : على وجهك ـ أو بوجهك . [تُفطر][1] وصبيانُنا صيام ؟ فضربه الحدّ . وكان إذا غضب على إنسان سَيَّره إلى الشام ، فسَيَّره إلى الشام .

لم يكن عمر رضي الله عنه ينفي إلى الشام لدناءة حال أهله عنده ، وإنما كان ينفي إليها لكثرة ما كان بها من الطاعون رجاءَ أن يكفيَه الطاعون أمر مَن يَغضب عليه ، فينفيه إليها ليكون الطاعون شهادةً له ، ومكفراً عنه ما فَرَط منه .

وعن أبي عَسِيب مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

أتاني جبريل عليه السلام بالحمّى والطاعون ، فأمسكتُ الحمى بالمدينة ، وأرسلتُ الطاعون إلى الشام . فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ، ورجسٌ على الكافر .

وعن علي بن زيد بن جُدْعان قال :

قال رجل لعمرو بن العاص : صف لي الأمصار . قال : أهل الشام أطوع الناس للمخلوق وأعصاهم للخالق ، وأهل مصر أكيَسُهم صغاراً ، وأحمقهم كباراً ، وأهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم فيها ، وأهل العراق أطْلَب الناس للعلم وأبعدهم منه .

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية ، فقال له معاوية : أخبرني عن أهل البصرة . قال : يقاتلون معاً ، ويُدبرون شتى . قال : فأخبرني عن أهل الكوفة . قال : أنظَرُ الناس في صغيرة وأوقعه في كبيرة . قال : فأخبرني عن أهل المدينة . قال : أحرَصُ الناس على الفتنة ، وأعجزه فيها . قال : فأخبرني عن أهل مصر قال : لقمةُ آكل . قال : فأخبرني عن أهل الجزيرة . قال : كُناسة بين مدينتين . قال : فأخبرني عن أهل الموصل : قال : قلادةُ وليدةٍ ، فيها من كل خَرَزة . قال : فأخبرني عن أهل الشام . قال : جُند أمير المؤمنين ، ولا أقول فيهم شيئاً . قال : لَتقولَنّ . قال : [٤١ / ب] أطْوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق ، ولا يَحسبون للسماء ساكناً .

---

(١) ليست اللفظة في الأصل واستدركت عن التاريخ ٣٤١/١

وفي حديث آخر :

أطوعُ الناس لمخلوق في معصية الخالق ، وأجرؤهم على الموت لا يُدرى ما بعده . دمشقيُّهم يشتمل ولا يدري ، وحمصيهم يسمع ولا يعي .

قال : والمرادُ في هذه الحكايات ما كان عليه أهل الشام من طاعة أئمتهم وأمرائهم ، واقتدائهم في الفتن والحروب بآرائهم ، من غير نَظَرٍ في عواقب الفتن كما فعلوا في سالف الزمن من قتالهم علي بن أبي طالب ، وهو الإمام المرتضى ، وفعلهُم يوم الحرّة ، وحصار ابن الزبير . وتلك أمورٌ قد خَلَتْ ، وفتن قد مضت ، عصم الله منها .

وابن الكوّاء لا يُعْتمد على ما يرويه ، فكيف يُعتمد على ما يقوله عن نفسه ؟ .

قال أبو المُخَيِّس :

كنت جالساً عند الأحنف ، فأتاه كتابٌ من عبد الملك بن مروان يدعوه إلى نفسه ، فقال : يدعوني ابنُ الزرقاء إلى طاعة أهل الشام ؟! ولَوَدِدت أن بيننا وبينهم جبلاً من نار ، من أتانا منهم احترق ، ومن أتاهم منا احترق .

وهذا ، لِما كان يجري بين أهل الشام والعراق من الحروب . وَأما الآن فقد ألّف الله بين القلوب .

وعن الأوزاعي قال :

لا نأخذ من قول أهل العراق خَصلتين ، ولا من قول أهل مكة خصلتين ، ولا من قول أهل المدينة خصلتين ، ولا من قول أهل الشام خصلتين : فأما أهل العراق فتأخير السحور وشرب النبيذ ، وأما أهل مكة فالمتعة والصَّرف[1] ، وأما أهل المدينة فإتيان النساء في أدبارهن والسماع ، وأما أهل الشام فبيع العصير وأخذ الديوان .

قال :

وهذان الأمران قد ذهبا . أما بيع العصير فليس في الشام اليوم عالم يبيحه ، وأما الديوان فقد منعهُموه السلطان .

---

(١) الصَّرْف : بيع الذهب والفضة بذهب أو فضة ، وبيع النقد بالنقد . القاموس الفقهي : ٢١٠

وعن النعمان بن المنذر الغساني قال :

كنت مع مكحول بالصائفة قال : فأتاه فتيان من أهل العراق قال : فجعلوا يسألونه ، قال : فجعل يخبرهم قال : فقالوا له : [٤٢ / أ] عمّن ومن حدثك ، قال : فنشِط لهم مكحول ، فجعل يُسند لهم ، قال : فلما تهيأ قيامه ضحك ، ثم قال : هكذا ينبغي لكم يا أهل العراق ، لا يصلحكم إلا هذا ، وأما أصحابنا هؤلاء أهل الشام فيأخذون كما تيّسر . قال : ثم قام .

قال الأعمش :

كنا إذا جاءنا الحديث وأنكرناه قلنا : شامي

وقيل لعبد الرحمن بن مهدي :أي الحديث أصَحُّ ؟ قال : حديث أهل الحجاز ، قيل : ثم من ؟ قال : حديث أهل البصرة ، قيل : ثم من ؟ قال : حديث أهل الكوفة ، قالوا : فالشام ؟ قال : فنفض يده .

في هذه الحكاية نظر ، والعَدَوي ، بعضُ رواتها ، كذّاب ، ويَحتمل إن كان صحيحاً أنه إنما قال ذلك لأن الغالب على أحاديث أهل الشام أحاديثُ الفتن والملاحم .

وأما إذا جاء الحديث مُسنَداً من رواية ثقاتهم ، بعضهم عن بعض فهو صحيح ، تلزم به الحجّة كما يلزم بأحاديث غيرهم .

قال حُميد بن إبراهيم :

سألت عمرو بن عُبَيد عن هذه الآية : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمْ الفَاسِقُون ﴾[1] قال : قلت : هم أهل الشام ؟ قال نعم .

عَمرو هُوَ العدوي لا يُحتج بما يرويه عن غيره ، فكيف بما يقوله برأيه في كتاب الله مما لا يعضده بالحجة ؟

قال الأوزاعي :

كانوا يستحبّون أن يحدّثوا أهلَ الشام بفضائل أهل البيت ، ليرجعوا عما كانوا عليه .

وقال الثوري :

إذا كنتَ بالشام فحدّثْ بفضائل علي ، وإذا كنت بالعراق فحدث بفضائل عثمان .

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٥٠

وهذا ، لما كان في أهل الشام من الانحراف عن أهل بيت الرسول ، وأما الآن فقد أُمن ذلك ، لما وقفوا عليه من فضائلهم .

حدث أبو يحيى السكري قال :

دخلت مسجد دمشق فرأيت في مسجدها حَلَقاً ، فقلت : هذا بلد قد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وعليهم ، ومِلت إلى حلقة في المسجد في صدرها شيخ جالس فجلست إليه ، فسأله رجل ممن بين يديه فقال : يا أبا المهلب ؛ مَن علي بن أبي طالب ؟ [٤٢ / ب] قال : خنّاق كان بالعراق ، اجتمعت إليه جمعيّة فقصد أمير المؤمنين يحاربه فنصرَه الله عليه . قال : فاستعظمت ذلك وقمت ، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي إلى سارية ، حَسن السَّمت والصلاة والهيئة فقصدت إليه فقلت له : يا شيخ ، أنا رجل من أهل العراق جلستُ إلى تلك الحلقة . وقصصت عليه القصة ، فقال لي : في هذا المسجد عجائب . بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد حجّاج بن يوسف فعليّ بن أبي طالب مَن هو ؟

وقد روي مثل معنى هذه الحكاية عن أهل حمص . وكلتا الحكايتين ضعيف .

وأما ما تحكيه العامة من تأخير معاوية صلاة الجمعة إلى يوم السبت ورضى أهلِ الشام بذلك فأمرٌ مُختلَق لا أصل له ، ومعاوية ومَن كان في عصره بالشام من الصحابة والتابعين أتقى لله وأشد محافظة على أداء فريضة ، وأفقه في دينه من أن يخفى عنهم أنّ ذلك لا يجوز .

قال :

ولم أجد لذلك أصلاً في شيء من الروايات . وإنما يُحكى بإسناد منقطع أن بعض مغفّلي أهل الشام امُتحن بذكر ذلك في العراق في زمن الحجاج ، فلعل بعض الناس بلغه ذلك فعزاه إلى أهل الشام .

قال :

كان للحجاج قاضٍ في الكوفة من أهل الشام يقال له أبو حِمْير ، فحضرت الجمعة فمضى يريدها فلقيه رجل من أهل العراق فقال : أبا حِمْير ، أين تذهب ؟ قال : إلى الجمعة . قال : أما بلغك أن الأمير قد أخّر الجمعة اليوم ؟ فانصرف راجعاً إلى بيته . فلما

كان من الغد قال له الحجاج : أين كنت يا أبا حِمْير لَمْ تحضر معنا الجمعة ؟ قال : لقِيَني بعض أهل العراق فأخبرني أن الأمير أخّر الجمعة فانصرفت . قال : فضحك الحجاج وقال : أبا حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخّر ؟

قال :

وهذه الحكاية إن صحّت تدل على بُطلان ما يُدّعى على معاوية من ذلك ، لأنه لو كان تقدَّم ذلك من معاوية لما خفِي على أبي حِمْير حتى كان يقول للحجاج : فقد [٤٣ / أ] فعل مثلَ هذا معاوية ، ولا على الحجّاج حتى يقول لأبي حِمْير : هذا كما قال معاوية لأهل الشام . والله يعيذنا من إشاعة الكذب في السلف ، ويمنّ علينا بالثبات على الحق .

قال :

وإنما يتم من الأمر ما هذا سبيله على من اشتهر منه تغفيله .

كما روي عن أبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري قال : سألت أبا عمرو هلالاً يعني : ابن العلاء ـ عن أبي بكر بن بدر قال :

ذكروا أنه خرج يوم خميس قد لبس ثيابه يريد الجمعة ، فمر بميمون بن مِهران فقال له : أين تريد : فقال : الجمعة ، فقال له ميمون : قد أخّروها إلى غدٍ ، فرجع إلى أهله فقال لهم : قال لي ميمون بن مهران إنهم قد أخّروا الجمعة إلى غد .

فأما ما كان في عصر معاوية من الصحابة والتابعين فلا يجوز أن يلحق بهم ما لا يليق . وقد كان معاوية يأمر بحضور الجمعة أهل القرى القاصية ، فكيف يُظَنّ به أنه أخّرها عن حاضرتها ؟!

كما روي عن يونس بن حَلْبَس قال : سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر منبر دمشق ـ يقول :

يا أهل قَرَدا ، يا أهل زاكية ، يا أداني البَثَنِيَّة ، الجمعة الجمعة ، وربما قال : يا أهل قَيْن ، يا أقاصي الغوطة ، الجمعة الجمعة ، لا تَدَعوها .

ذكر ما جاء من أخبار

ملوك الشام قبل الإسلام

عن ابن عباس قال :

كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان . فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أما إنهم سيظهرون . فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا : اجعل بيننا وبينكم أجلاً ، إن ظَهَروا كان لك كذا وكذا ، وإن ظَهَرنا كان لنا كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلَ خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : ألا جعَلتَه ـ أراه قال : دون العشرة ـ قال : فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ ألم غُلِبَتِ الرُّومُ في [٤٣ / ب] أدنى الأرضِ ، وهُمْ مِنْ بعدِ غَلَبِهم سيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِيْن ﴾ قال : فغُلبت الروم ثم غَلَبت بعد : ﴿ للهِ الأمرُ من قبلُ ومِنْ بَعْدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمِنُون بنَصْرِ اللهِ ﴾[1]

قال سفيان :

وسمعت أنهم ظَهَروا يوم بدر .

وعن عبد الله بن عباس[2]

أنه سمع عمر بن الخطاب يسأل الهرمزان عظيم الأهواز ، وكان نزل على حُكْم عمر

---

(١) سورة الروم ٣٠ / ١ ـ ٣

(٢) الخبر في المعرفة والتاريخ ١ / ٣٠١

فأسلم فعفا عنه ، فسأله عمر عن جيوش فارس التي بعث كسرى مع شهربراز ، وما الذي كشف فارس عنهم فقال الهرمزان :

كان كسرى بَعَث شهربراز وبعث معه جنود فارس ، فَلَكَ الشام ومصر وخرّب عامة حصون الروم ، وطال زمانُه بالشام ومصر وتلك الأرض ، فطفق كسرى يستبطِئُهُ ويكتب إليه : إنك لو أردتَ أن تفتح مدينة الروم فتحتها ، ولكنك رضيت بمكانك فأردت طول السلطان ، فأكثَر إليه كسرى من الكتب في ذلك وأكثر شهربراز مراجعته واعتذاراً إليه ، فلما طال ذلك على كسرى كتب إلى عظيم من عظماء فارس مع شهربراز يأمره بقتل شهربراز ويلي أمر الجنود ، فكتب إليه ذلك العظيم يذكر أن شهربراز جاهِدٌ ناصح وأنه هو أنبل ، وهو أمثل بالحرب منه ، فكتب إليه كسرى يعزم عليه ليقْتُلَنَّه ، فكتب أيضاً يراجعه ، ويقول إنه ليس لك عبد مثل شهربراز ، وإنك لو تعلم ما يوازي من مكابدة الروم عَذَرْته . فكتب إليه كسرى يعزم عليه ليقتلَنَّهُ ولَيَلِيَنَّ أمر الجنود ، فكتب إليه يراجعه أيضاً فغضب كسرى ، فكتب إلى شهربراز يعزم عليه ليقتلَنَّ ذلك العظيم ، فأرسل شهربراز إلى ذلك العظيم من فارس فأقرأه كتاب كسرى فقال له : راجع فيّ ، فقال له : قد علمتَ أن كسرى لا يُراجَع وقد علمت محبتي إياك ، ولكنه قد جاءني مالا أستطيع تركه ، فقال له ذلك الرجل : أفلا تَدعني أرجع إلى أهلي فآمرهم بأمري ، وأعهد إليهم عهدي ؟ فقال بلى ، وذلك الذي أملك لك [٤٤ /أ] فانطلق إلى أهله ، فأخذ صحائف كسرى الثلاث التي كتب إليه ، فجعلهنّ في كمّه ، ثم جاء حتى دخل على شهربراز ودفع إليه الصحيفة الأولى فاقترأها شهربراز فقال له شهربراز : أنت خير مني ، ثم دفع إليه الصحيفة الثانية فاقترأها ، فنزل عن مجلسه وقال : اجلس عليه ، فأبى أن يفعل ، ودفع إليه الصحيفة الثالثة فاقترأها . فلما فرغ شهربراز من قراءته قال : أقسم بالله لأسوأنّ كسرى . فأجمع شهربراز المكر بكسرى ، وكاتب هرقل وذكر له أن كسرى قد أفسد فارسَ ، وجهّز بعوثها ، وابتليت بملكه ، وسأله أن يلقاه بمكان نَصَف يُحكمان فيه الأمرَ ويتعاهدان ، ثم يكشف عنه شهربراز جنود فارس ويخلي بينه وبين السَّير إلى كسرى .

فلما جاء كتاب شهربراز دعا رهطاً من عظماء الروم فقال لهم حين جلسوا : أنا اليوم أحزم الناس ، أو أعجز الناس ، وقد أتاني أمرٌ لا تحسبونه ، وسأعرض عليكم فأشيرُوا

عليّ فيه ، ثم قرأ عليهم كتاب شهربراز ، فاختلفوا عليه في الرأي ، فقال بعضهم : هذا مكر من كسرى ، وقال بعضهم : أراد هذا العبد أن يلقاك كسرى فيشمت بك ثم لا يبالي ما لَقي . فقال هرقل : إنّ الرأي ليس حيث ذهبتم ، إنه لَعمري ما طابت نفس كسرى بأن يشتم هذا الشتم الذي أجد في كتاب شهربراز ، وما كان شهربراز لِيكتُب بهذا الكتاب وهو ظاهر على عامّة ملكي إلاّ لأمرٍ حدث بينه وبين كسرى ، وإني والله لألقَينَّه ، فكتب إليه هرقل إنه قد بلغني كتابُك ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وإني لاقيك ، فموعدك مكان كذا وكذا ، فاخرج بأربعة آلاف من أصحابك فإني خارج في مثلهم ، فإذا بلغت مكان كذا وكذا فضع ممن معك خمس مئة ، فإني سأضع بمكان كذا وكذا مثلهم ، ثم ضع بمكان كذا خمس مئة ، فإني سأضع بمكان كذا مثلهم ، حتى نلتقي أنا وأنت في خمس مئة . وبعث هرقل الرسل من عنده [٤٤ / ب] إلى شهربراز فأمرهم أن يقوموا على ذلك ، فإن فعل شهربراز لم يرسلوا إليه ، وإن أبى ذلك عجلوا إليه بكتابٍ ، فرأى رأيه ، ففعل ذلك شهربراز . وسار هرقل في أربعة آلاف التي خرج بها ولم يَضَع منهم أحداً حتى التقى للموعد ، ومع هرقل أربعة آلاف ومع شهربراز خمس مئة ، فلما رآهم شهربراز أرسل إلى هرقل : أغدرت ؟ فأرسل إليه هرقل : لم أغدر ولكن خفتُ الغدر منْ قِبلك ، وأمر هرقل بقبّةِ ديباج فضُربت لهما بين الصَّفّين ، فنزل هرقل فدخلها وأدخل ترجمانه ، وأقبل شهربراز حتى دخل عليه ، فانتحيا ومعهما ترجمان حتى أحكما أمرهما ، واستوثق كل واحد منهما بالعهد والمواثيق ، حتى إذا فرغا من أمرهما خرج هرقل ، فأشار إلى شهربراز أن يقتل الترجمان لكي يخفى أمرُهما وسرُّهما ، فقتله شهربراز ، ثم انكشف شهربراز فجيّش الجنود ، وسار جيش هرقل إلى كسرى حتى أغاروا على كسرى ومن بقي معه ، فكان ذلك أولَ هَلَكَة كسرى ، ووفى هرقل لشهربراز بما أعطاه من ترك أرض فارس وسبيها ، فانكشف حين ولّى ، وقَتَلت فارس كسرى ، ولحق شهربراز بفارس والجنود التي معه .

حدث محمد بن مهاجر الأنصاري ، وذكر مسير هرقل إلى بيت المقدس فقال :[1]

إن كسرى وفارساً ظهرت على الروم بالشام وما دون خليج القسطنطينية ، وسار

(١) الخبر في المعرفة والتاريخ ٣ / ٣٠٤

بجنوده حتى نزل بخليجها وأخذ في كَبْسِه[1] بالحجارة والكلس ليتخذوا طريقاً يبساً ، فبينما هو على ذلك إذ بلغه أن ملك الهند وملك الخزر قد خلّفاه في بلاده من العراق . فانصرف عن القسطنطينية وخلف على ما ظهر عليه من مدائن الشام عاملاً في حكمه من أساورته وخيولهم فنزل ذلك العامل حمص وضبط له ما خلفه عليه ،ومضى كسرى إلى عراقه ، فإذا الحرب قد [٤٥ / أ] نشبت بين ملِك الهند وبين ملِك الخزر ، فكتبا إليه كلاهما يسألانه النُّصرة على كل واحد منهما على أن يردّ مَن والاه على صاحبه جميعَ ما استباح وسبى من بلاده ويزيده كذا وكذا ، فرأى كسرى وأساورتُه أن يظاهِر ملِك خزر على ملك الهند لجِواره ملك خزر ، ومقارعته إياه في كل يوم ، ولجرأة ملك الهند عليه ، وتناوله الفرصة منه إذا أمكنته من بعد . فوالى كسرى ملكَ خزر على ملك الهند وقهراه ، واستنقذا ما كان أصاب من بلاده من سبي أوغير ذلك ، وزاده هدية ثلاثين ألف مملوك ، وانصرف عنه جنوده فملَّكَ كسرى على الثلاثين ألف مملوك الذين خلّفهم ملكُ خزر عنده ، رجلاً ، وسيّرهم إلى ما خلف القسطنطينية ، وأسكنهم تلك البلاد وهي يومئذ خراب .

قال محمد بن مهاجر :

فهم اليوم برجّان[2] .

وعن العلاء بن الزبير الكلابي[3] عن أبيه قال :

رأيت غَلَبة فارس الرومَ ، ثم رأيت غَلَبة الروم فارساً ، ثم رأيت غَلَبة المسلمين فارس والروم ، وظهورُهم بالشام والعراق ، وكلّ ذلك في خمس عشرة سنة .

---

(١) كبست النهر والبئر كبأ طممتها بالتراب اللسان : « كبس »

(٢) البرجان من ولد يونان من يافث ، وهي مملكة واسعة . انظر في ذلك أخبار الزمان للمسعودي ص ٩٧

(٣) في الأصل : العلاء بن الزبير الغلابي . وهو الكلابي ، نسبة إلى بني كلاب بن ربيعة . حدث عن أبيه . حدث عنه أسيد الكلابي . لم يترجم له سوى ابن عساكر في تاريخه ، وأورد الخبر عن كتاب يعقوب بن سفيان : « المعرفة والتاريخ » ١ / ٢٧٩ ، أما الاستيعاب ٢ / ٥١٠ .وأسد الغابة ٢ / ١٩٦ والإصابة ١ / ٥٤٤ ، وهو في الأخير « الكلاعي » فقد أوردت كلها الخبر في ترجمة أبيه الزبير بن عبد الله .

باب تبشير النبي أمته بافتتاح الشام

عن سفيان بن أبي زهير قال : قال رسول الله ﷺ :

يُفتح اليمن فيأتي قوم يبسُّون[1] فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، ثم تُفتح العراق فيأتي قوم يبسُّون فيتحمّلون بأهاليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم ، لو كانوا يعلمون ثم تفتح الشام فيأتي قوم يبِسّون فيتحمّلون بأهاليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون .

وعن بُسْر بن سعيد أنه سمع في مجلس الشَّنَئيين[2] يذكرون أن سفيان بن أبي زهير أخبرهم

أن فرسه أعيت عليه بالعقيق ، وهم في بَعث رسول الله ﷺ فرجع إليه يستحمله ، فزعم سفيان كما ذكروا أن رسول ﷺ خرج يبتغي له بعيراً . [٤٥ /ب] فلم يجده إلا عند أبي جَهْم بن حُذيفة العَدَويّ فسامه : فقال أبو جهم : لا أبيعكه يا رسول الله ، ولكن خذه فاحمل عليه من شئت ، فزعم أنه أخذه منه ، ثم خرج حتى إذا بلغ بئر الإهاب زعم أن رسول الله ﷺ قال : يوشك البنيان أن يبلغ هذا المكان ، ويوشك الشام أن يُفتح فيأتيه رجال من أهل هذا البلد ، ويعجبهم ريفه ورخاؤه ، فيسيرون والمدينة خير لهم ، لو كانوا يعلمون ، إن إبراهيم عليه السلام دعا لأهل مكة ، وإني أسأل الله أن يبارك لنا في صاعنا ومُدنا ، وأن يبارك لنا في مدينتنا بما بارك لأهل مكة .

وعن أبي ذر قال :

استعيذوا بالله من زمن التباغي وزمن التلاعن . قالوا :وما ذاك ؟ قال : لا تقوم الساعة حتى يكون قتال [قوم][3] دَعْوتهم دعوى جاهلية ، فيقتل بعضهم بعضاً ، ولا تقوم

---

(١) بسستَ الدابة وأبسستُها إذا سقتها وزجرتها ، وهو من كلام أهل اليمن . اللسان : بس .

(٢) في الأصل (الشنييّن) وفي تاريخ ابن عساكر ٣٧٠/١ « الشنائيّين » والنسبتان صحيحتان . انظر : اللباب ٣٠/٢ و ٣١ ، واللسان ، والقاموس : « شنأ » ، والأعلام (ط . الجديدة) ١٧٧/٣

(٣) اللفظة مستدركة عن تاريخ ابن عساكر ٣٧١/١

الساعة حتى توقف العربية التي تنتسب إلى سبعة آباء ، بالأسواق ، لا يمنع الرجل أن يبتاعها إلا حموشة[1] ساقيها ، وكان يقال : المحرومُ من حرم غنيمة كلب .

قال : وقال رسول الله ﷺ :

أوّل الناس هلاكاً قريش ، وأوّل قريش هلاكاً أهل بيتي .

قال : ويقال :

اشتُكِيَ إليه وباء المدينة فقال : اللهم انقُلْ وباءها إلى مَهْيَعة[2] ، اللهم حببها إلينا ضعف ما حبَّبت إلينا مكة .

قال : ويقال :

استقبل الشام فقال : يُفتح ما هاهنا فيبسّ الناس إليه بسّاً ، ويُفتح المشرق فيَبِسّ الناس إليه بسّاً ، والمدينة خير لهم ، لو كانوا يعلمون ، وبورك لهم في صاعهم ومُدّهم .

وقال :

من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً يوم القيامة .

وعن أبي زُغب الإيادي قال :

نزل بي عبد الله بن حوالة صاحب النبي ﷺ وقد بلغنا أنه فرض له في المئتين فأبى إلا مئة . قال : قلت : أحقّ ما بلغنا أنه فرض لك في [٤٦ /أ] مئتين فأبيت إلا مئة ؟ فوالله ما منعه وهو نازل عليّ أن يقول : لا أمّ لك ، أو لا تكفي ابن حوالة مئة في كل عام ؟ ثم أنشأ يحدثنا عن رسول الله ﷺ قال :

إن رسول الله ﷺ بعثنا على أقدامنا حول المدينة لنغنم ، فقدمنا ولم نغنم شيئاً . فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بنا من الجهد قال رسول الله ﷺ : اللهم لا تَكِلهم إليّ فأضعف عنهم ، ولا تكلهم إلى الناس فيهونوا عليهم ويستأثروا عليهم ، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها ، ولكن توحّد بأرزاقهم ، ثم قال : لَتُفتَحُن لكم الشام ، ثم لتُقسَمَنّ لكم كنوز فارس والروم ، وليكونَنّ لأحدكم من المال كذا وكذا ، وحتى إن أحدكم ليُعطى مئة دينار فيتسخّطها ، ثم وضع يده على رأسي فقال : يا بن حَوالة ، إذا رأيت الخلافة قد نزلت

(١) الحموشة : الدقة . اللسان : « حمش » .

(٢) مَهْيَعَة : هي الجحفة أو قريب منها ، وتقع على طريق المدينة من مكة وهي ميقات أهل مصر والشام .

الأرض المقدسة فقد أتت الزلازل والبلابل والأمور العظام . والساعة أقرب إلى الناس من يدي هذه إلى رأسك .

وعن البَراء بن عازب قال :

لما كان حيث أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فلما رآها ألقى ثوبه وأخذ المعول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها وقال : الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح الشام ، والله إني لأُبصر قصورها الحمراء الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأُبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة وقال : بسم الله فقطع بقية الحجر وقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء في مكاني هذا الساعةَ .

وعن أبي أمامة الباهلي قال :

سمعت رسول الله ﷺ [٤٦ /ب] يقول : إن الله استقبل بي الشام ، وولّى ظهري اليمن فقال لي : يا محمد ، إني جعلت ما وراءك مدداً لك ، وجعلت ما تجاهك عصمة لك ورزقاً ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يزال الله يزيد الإسلام وأهله ، ويَنقُص الشرك وأهله حتى يسير الراكب بين النُطْفتين لا يخشى إلا جوراً ، يعني جور السلطان . قيل : يا رسول الله ، وما النطفتان ؟ فقال بحر المشرق والمغرب . قال : فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده ، والذي نفسي بيده ليبلغنّ هذا الدين ما بلغ الليل .

وعن عبد الله بن بُسْر قال :

أهديت للنبي ﷺ شاة والطعام يومئذ قليل ، فقال لأهله : اطبخوا هذه الشاة ، وانظروا إلى هذا الدقيق فاخبزوه ، واطبخوا واثْرُدوا عليه . قال : وكانت للنبي ﷺ قصعة يقال لها : الغرّاء ، يحملها أربعة رجال ، فلما أصبح وسبّح الضحى أتى بتلك القصعة والتقوا عليها ، فإذا كثر الناسُ جثا رسول الله ﷺ فقال له أعرابي : ما هذه الجلسة ! فقال النبي ﷺ : إن الله جعلني عبداً كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً ، ثم قال : كلوا من جوانبها ودعوا ذروتها يبارك الله فيها . ثم قال : خذوا فكلوا ، فوالذي نفس محمد بيده لتُفتَحنّ عليكم أرض فارس والروم حتى يكثر الطعام ، ولا يذكر اسم الله تعالى عليه .

وعن سليمان قال :

كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في عصابة من أصحابه فجاءت عصابة فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا قريب عهد بالجاهلية ، كنا نصيب من الزنى فائذن لنا في الخِصاء ، فكره رسول الله ﷺ مَسْألتهم ، حتى عُرف ذلك في وجهه ، ثم جاءت عصابة أخرى فقالوا : يارسول الله ، إنا كنا قريب عهد بالجاهلية كنا نصيب من الآثام ، فائذن لنا في الجلوس في البيوت نصوم ونقوم حتى يدركنا الموت ، فسُرّ رسول الله [٤٧ / أ] ﷺ بمسألتهم حتى عرف البشر في وجهه وقال : إنكم ستُجندون أجناداً ، وستكون لكم ذمة وخراج وأرض يفتحها الله لكم ، منها ما يكون على شفير البحر ، ومدائن وقصور ، فمن أدرك ذلك منكم ، فاستطاع منكم أن يحبس نفسه في مدينة من تلك المدائن أو قصر من تلك القصور حتى يدركه الموت فليفعل .

وعن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قال لأصحابه :

الفقر تخافون أو العَوَز أو تهمّكم الدينا ؟ إن الله عزّ وجلّ فاتحٌ لكم أرض فارس والروم ، ويصب عليكم الدنيا صباً حتى لا يُزيغكم إلا هي .

وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إنها ستفتح عليكم الشام وتجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات ، وهي حرام على رجال أمتي إلا بأُزُر ، وعلى نساء أمتي إلا نفساء أو سقيمة .

وعن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول :

ستهاجرون إلى الشام فتُفتح لكم ، ويكون فيكم داء كالدُمَّل أو كالحرّة يأخذ بمَرَاقّ[1] الرجل يستشهد الله به أنفسهم ، ويزكي به أعمالهم .

وعن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ قال :

سيُفتح عليكم الشام ، وستُضرب عليكم بعوث يكره الرجل فيها البعث ، ثم يتخلف عن قومه ثم يتبع القبائل فيقول : من أكفيه من أكفيه ؟ ألا وذاك الأجير إلى آخر قطرة من دمه .

---

(١) المَرَاقّ : مارقّ من أسفل البطن . اللسان ، والنهاية : « مرق ، رقّ » .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ :

تنزلون مَنزلاً يقال له الجابية أو الجُوَيْبية يصيبكم فيه داء مثل غدّة الجمل يستشهد الله به أنفسكم وذراريكم ويزكي به أموالكم .

وعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ كان يقول :

اتقوا الله يا عباد الله ، فإنكم إن اتقيتم الله أشبعكم من خير الشام وزيت الشام .

وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَعَدَكُم اللهُ مغَانِمَ كَثِيرَةً [٤٧ / ب] تَأْخُذُونَها ﴾ إلى قوله : ﴿ على كُلِّ شَيْءٍ قَديراً ﴾[١] المغانم : فتوح من لَدُن خيبر . ﴿ تأخذونها ﴾ تلونها وتغنمون ما فيها . عجّل لكم من ذلك خيبر ﴿ وكفّ أَيْديَ النَّاسِ ﴾ : قريش ، ﴿ عَنْكُم ﴾ بالصلح يوم الحديبية ، ﴿ ولِتَكُونَ آيَةً لِلمُؤمِنِين ﴾ شاهداً على ما بعدها ، ودليلاً على إنجازها ، ﴿ وَأُخرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها ﴾ : على علم وقتها ، أفيئُها عليكم ، فارس والروم ، ﴿ قَدْ أَحاطَ اللهُ بها ﴾ قضى الله بها أنها لكم ، منها الأيام والقوادس[٢]والواقوصة[٣] والمدائن والحمر[٤] بالشام ومصر والضواحي . فاجتمعت هذا الصفات فيمن قاتل فارس والروم وسائر أعاجم ذلك الزمان .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله :

﴿ وأَثَابَهُم فَتْحاً قَرِيْبا ﴾[٥] قال : خيبر ، قال : ﴿ وأُخْرَى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بها ﴾ قال : فارس والروم[٦] .

وعن الواقدي : قال :

ويقال : مكة[٧] .

---

(١) سورة الفتح ٤٨ / ٢٠ ، ٢١

(٢) ج القادسية التي عند الكوفة ، جاءت في شعرهم كذلك ، كأنها جمعت بما حولها . معجم البلدان

(٣) هو واد بالشام في أرض حوران ، نزله المسلمون أيام أبي بكر الصديق على اليرموك لغزو الروم . معجم البلدان

(٤) الحمر ج : الحمراء . وهي سبعة مواضع منها الحمراء : حصن من أعمال بيت المقدس ، وحمراء ثلاث من قرى مصر . انظر المشترك وضعاً ، والقاموس ، ومعجم البلدان : « حمراء » .

(٥) سورة الفتح ٤٨ / ١٨

(٦) انظر طبقات ابن سعد ٢ / ١١٥

(٧) انظر مغازي الواقدي ٢ / ٦٢٢

وعن ابن عباس في هذه الآية :

﴿ وأُخْرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : ما فتح الله من هذه الفتوح .

وعن مجاهد في قوله :

﴿ أُولي بأسٍ شَدِيْد ﴾[1] قال : هم فارس والروم .

---

(١) سورة الفتح ٤٨ / ١٦

باب سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه

وهي غزوة دومة الجندل وذات أطلاح وغزوة مؤتة وذات السلاسل[1]

ذكر الواقدي

أن غزوة دومة الجندل أول غزوات الشام ، وهي من المدينة على ثلاث عشرة مرحلة ، ومن الكوفة على عشر مراحل في بريّةٍ مَرْتٍ[2] ، ومن دمشق على عشر مراحل ، وهي أرض نخل وزرع ، يسقون على النواضح ، وحولها عيون قليلة ، وزرعهم الشعير وهي مدينة عليها سور ، ولها حصن عادي مشهور في العرب يدعى مارد .

والثانية مؤتة ، والغزوة الثالثة تبوك ، والغزوة الرابعة غزوة أسامة بن زيد يُبنى[3] من أرض فلسطين في سنة عشر ، والغزوة الخامسة غزوة أسامة [٤٨ / أ] بن زيد آبل الزيت في سنة إحدى عشرة ، وهي التي أمّره عليها ﷺ وهو مريض ، فغزاها بعد وفاته ﷺ .

قال : ولم يفرق أحد بين غزوة يُبنى وبين غزوة آبل الزيت غير الواقدي . وعندي أنهما غزوة واحدة أغار فيها على الموضعين جميعاً . والله أعلم .

عن ابن عمر[4] قال :

دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف قال : تجهز فإني باعثك في سريّة من يومك هذا أو من غدٍ إن شاء الله . قال ابن عمر : فسمعت ذلك فقلت : لأدخلَنّ فلأُصلّيَنّ مع النبي ﷺ الغداةَ فلأسمعَنّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف . قال : فغدوت فصليت فإذا أبو بكر

---

(١) انظر في سرد الغزوات : مغازي الواقدي : ٢ / ٥٦٠ ـ ٥٦٢ و ٧٥٢ و ٧٥٥ ، ٧٦٩ .

(٢) المرت القفر لا نبات فيه : التاج والقاموس : « مرت » .

(٣) انظر ص ١٧١ من هذا الجزء .

(٤) استدركت اللفظة في هامش الأصل .

وعمر وناس من المهاجرين ، فيهم عبد الرحمن ، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومَة الجندل ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن : ما خلّفك عن أصحابك ؟ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابه في السفر ، فهم معسكرون بالجُرْف ، وكانوا سبع مئة رجل فقال : أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك وعليّ ثياب سفري . قال : وعلى عبد الرحمن بن عوف عِمامة قد لفّها على رأسه . قال ابن عمر : فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه فنفض عمامته بيده ثم عمّمه بعمامة سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ثم قال : هكذا فاعتمّ يا بن عوف ، قال : وعلى ابن عوف السيف متوشّحه ، ثم قال رسول الله ﷺ : اغز بسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، لا تغلّ ولا تغدِر ولا تقتل وليداً . قال ابن عمر : ثم بسط يده فقال : أيّها الناس ، اتقوا خمساً قبل أن يُحَلّ بكم ، ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون ، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم ، قطْر السماء . ولولا البهائم لم يُسقَوا ، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سَلّط عليهم [٤٨ / ب] الطاعون ، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض .

قال : فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه ، فسار حتى قدم دومة الجندل ، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أوّل ما قدِم يعطونه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً وكان رأسهم ، فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جهينة يقال له : رافع بن مَكيث ، وكتب يخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم فكتب إليه النبي ﷺ أن تزوج ابنة الأصبغ تماضر ، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها ثم أقبل بها . وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .

وأما سريّة ذات أطلاح فرُوي عن الزهري قال : بعث رسول الله ﷺ كعب بن عُمير الغِفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام ، فوجدوا جمعاً من جمعهم كبيراً ، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنَّبل . فلما رأى ذلك أصحاب النبي ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قُتِلوا فأفلت منهم رجل [كان][1] جريحاً في

(١) اللفظة مستدركة عن تاريخ ابن عساكر ١ / ٣٨٧ .

القتلى ، فلما بَرَد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ وهمّ بالبعثة إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم .

وأما غزوة مؤتة فكان سببها فيما رَوى عُمر بن الحكم قال : بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمير الأزدي ، ثم أحد بني لِهْب إلى ملك بُصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عَمرو الغساني فقال : أين تريد ؟ قال : الشام [٤٩ / أ] قال : لعلك من رُسُل محمد ، قال : نعم ، أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ ، فأُوثق رباطاً ثم قدّمه فضرب عنقه صبراً ، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره ، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فاشتد عليه ، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَن قتله ، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف ، ولم يبيِّن رسول الله ﷺ الأمراء ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر جلس ، وجلس أصحابه حوله ، وجاء النعمان بن مهَضّ اليهودي فوقف على رسول الله ﷺ مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : زيد بن حارثة أمير الناس فإن قُتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم ، فقال النعمان بن مهضّ : أبا القاسم ، إن كنت نبياً فسمَّيتَ من سمَّيت قليلاً أو كثيراً أُصيبوا جميعاً ، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا : إن أصيب فلان ، فلو سمى مئة أصيبوا جميعاً ، ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة ، اعهدْ ، فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً ، فقال زيد : فأشهد أنه نبيّ صادق بارّ . فلما أجمعوا المسير وقد عقد رسول الله ﷺ لهم اللواء ودفعه إلى زيد بن حارثة ـ لواءً أبيض ـ مشى الناس إلى أمراء رسول الله ﷺ يودّعونهم ويَدْعون لهم ، وجعل المسلمون يودّع بعضهم بعضاً ، والمسلمون ثلاثة آلاف ، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون : دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين .

قال[1] البيهقي :

فلما ودّعوا عبد الله[1] بن رواحة بكى ، فقالوا : ما يُبكيك يا بن رواحة ؟ قال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ وإن مِنْكُم

(١ ـ ١) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل وبجانبه « صح » .

إلا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ [٤٩ / ب] حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾[1] فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود .

ثم خرج القوم حتى نزلوا مَعان ، فبلغهم أن هرقل قد نزل بمآب[2] في مئة ألف من الروم ومئة ألف من المستعربة ، فأقاموا بمعان يومين . وقالوا : نبعث إلى رسول الله ﷺ فنخبره بكثرة عدونا . فإما أن يمدّنا ، وإما أن يأمرنا أمراً ، فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة ، قال : يا قوم ، والله إن التي تكرهون لَلّتي خرجتم لها ، إياها تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعَددٍ ولا كثرة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فإنْ يُظهرنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة ، وليست بشرّ المنزلتين ، فقال الناس : والله لقد صدق ابن رواحة ، فانشمر الناس وهم ثلاثة آلاف حتى لَقُوا جموع الروم بقرية من قرى البلقاء يقال لها : شَرَاف ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة ، قرية فوق أحساء .

وقيل : كانوا ستة آلاف من المهاجرين والأنصار وغيرهم .

قال عطّاف بن خالد المخزومي :

وخرج رسول الله ﷺ مشيّعاً لهم حتى بلغ ثَنيّة الوداع فوقف ووقفوا حوله ، فقال : اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدوّ الله وعدوكم بالشام ، وستجدون بها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين ، للشياطين في رؤوسهم مفاحيص[3] ، فافلقوا هامهم بالسيوف ، ولا تقتُلُنّ امرأة ولا صغيراً ضَرَعاً[4] ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تعزِقُنّ نخلاً ، ولا تقطعُن شجراً ولا تهدِموا بناء .

وعن أبي هريرة قال :

شهدتُ مؤتة . فلما رأينا المشركين رابنا مالا قِبَل لنا به من العدد والسلاح والكُراع[5] والديباج والحرير والذهب ، فبرِق بصري ، فقال لي ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، ما لك ، كأنك ترى جموعاً كثيرة ! قلت : نعم ، قال : لم تشهدنا ببدرٍ أنّا لم ننصر بالكثرة ؟ .

---

(١) سورة مريم ١٩ / ٧١

(٢) مآب : مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء : معجم البلدان .

(٣) مفاحص : ج مفحَص القطاة : حيث تفرخ فيه من الأرض . اللسان والنهاية « فحص » .

(٤) الضَرَع والضارع : الصغير من كل شيء ، وقيل الضعيف الضاوي . اللسان : « ضرع » .

(٥) الكراع : قيل هو اسم يجمع الخيل والسلاح . اللسان : كرع .

وعن عبد الله بن أبي بكر قال :

لما التقى الناس بمؤتة [٥٠ / أ] جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وكُشف له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى مُعْتركهم ، فقال رسول الله ﷺ : أخذ الراية زيد بن حارثة فجاءهُ الشيطان فحبّبَ إليه الحياة وكرّه إليه الموت ، وحبّب إليه الدنيا فقال : الآن ؟ أحين استحكمَ الإيمان في قلوب المؤمنين ، تحبب إليّ الدنيا ؟! فمضى قُدُماً حتى استُشهد ، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال : استغفروا له ، وقد دخل الجنة وهو يسعى ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فجاءه الشيطان فمنّاه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، ومنّاه الدنيا فقال : الآن ؟ حين استحكَم الإيمان في قلوب المؤمنين تُمنّيني الدنيا ! ثم مضى قُدُماً حتى استُشهد فصلى عليه رسول الله ﷺ ، ودعا له . ثم قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة ، فهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنة . ثم أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فاستُشهد ثم دخل الجنة مُعترضاً ، فشقّ ذلك على الأنصار ، قيل : يا رسول الله ، ما اعتراضه ؟ قال : لمّا أصابته الجراح نكل ، فعاتب نفسه فشجع فاستُشهد فدخل الجنة ، فسُرّي عن قومه .

وروي أنه لما قتِل عبدَ الله بن رواحة انهزم القوم أسوأ هزيمة رأيتها قط ، في كل وجهٍ ، ثم إن المسلمين تراجعوا فأقبل رجل من الأنصار ، يقال له ثابت بن أقرم فأخذ اللواء وجعل يصيح بالأنصار ، فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجه ، وهم قليل ، وهو يقول : إليّ أيها الناس ، فاجتمعوا إليه ، قال : فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد فقال : خذ اللواء يا أبا سليمان فقال : لا آخذه ، أنت أحقّ به ، أنت رجل لك سنّ وقد شهدتَ بدراً ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك فأخذه خالد ، فحمله ساعة وجعل المشركون يحملون عليه فتثبت حتى تكركر[1] المشركون ، وحمل بأصحابه ، ففضّ جمعاً من جمعهم ، ثم دهمه منهم بشر كثير [٥٠ / ب] وانحاش[2] بالمسلمين فانكشفوا راجعين .

قال عطاف بن خالد :

لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غَدَوْا ، وقد جعل مقدّمته

---

(١) تكركر : تجمع . اللسان .

(٢) انحاش عنه : نفر . اللسان : حاش .

ساقةً ، وساقته مقدّمـة ، وميمنتـه ميسرة ، وميسرتـه ميمنـة ، فـأنكروا مـا كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم ، وقالوا : قـد جـاءهم مـدد ، فرُعِبوا ، فـانكشفوا منهزمين ، فقُتِّلوا مقتلـةً لم يُقتلها قوم .

وروي أن زيـد بن حـارثـة سـار بهم على حبـال[1] بين الشّراة والبلقـاء على ريفهـا وعمارتها فمرّ بقرية من قرى حبال يقال لها اكبث ، فشد أهلها على ساقة المسلمين ، فأصابوهم بجراحة ، وقتلوا رجلاً من المسلمين فبلغ ذلك جماعة الجيش ، فاستـأذنوا زيـد بن حـارثـة في الرجعة إليهم والانتقام منهم ، فقال زيد : لا أرى ذلك ، لأن عـدوّكم أمـامكم قـد جمعوا لكم ، ودنَوا منكم ، فأكرَه أن يَفُلّوا حـدّكم ونشـاطكم بقتـال غيرهم ، ثم لا آمن أن يجمعوا لكم فيكونوا من ورائكم ، فتكـونـوا بين عسكرين ، فمضى زيـد ومن معـه حتى لَقُـوا عـدوّهم بين قريـات ثلاث : بين مؤتة ، والعَمْقة ، وزقوقين فصَافّوهم هنالك .

وروي أن خالداً لما أخذ الراية قاتلهم قتالا شديداً ثم انحاز الفريقان كلٌ عن كلٍ قـافلاً عن غير هزيمة ، فقفل المسلمون على طريقهم التي أبدوا منها حتى مرّوا بتلك القريـة والحصن الـذين كانوا شـدّوا على سـاقتهم ، وقتلوا رجلاً منهم ، فحـاصروهم في حصنهم حتى فتحـه الله عليهم عَنوة ، فقتل خالد بن الوليـد مقـاتلتهم في نقيع إلى جـانب حصنهم صبراً . فبهـا سُمّي ذلك النقيع نقيع الدم إلى اليوم ، وهدَموا حصنهم هدماً لم يُعْمر بعده إلى اليوم .

وفي حديث أبي قتادة :

ثم أخـذ اللواء خـالـد بن الوليـد ، ولم يكن من الأمراء . قـال : فرفع رسـول الله ﷺ أصبعيه فقال : اللهم هو سيف من سيوفك ، فانتصر به . قال : فيومئذ سمي خـالـد : سيفَ الله . [٥١ / أ] ثم قال رسول الله ﷺ : انفروا فـأمِـدّوا إخوانكم ولا يتخلفَنّ أحـد . قـال : فنفر الناس في حرّ شديد مشاة وركباناً .

قال عوف بن مالك الأشجعي :

خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتـة فوافقني مـددي[2] من أهل اليمن ليس معـه غير سيفه فنحر رجل من المسلمين جزوراً ، فـسأله المددي طائفـةً من جلـده فـأعطـاه إيـاه ،

---

(١) حبال بالكسر : من قرى وادي موسى من جبال السراة قرب الكرك بالشام « معجم البلدان » .

(٢) المددي : منسـوب إلى المدد ، وهي العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله . اللسان .

فاتخذ كهيئة الدَّرَقَة ، ومضَيْنا ، فلقينا جموع الروم . قال : وفيهم رجل على فرس له ، أشقر ، عليه سرج مذهب وسلاح مذهب ، فجعل الرومي يُغري بالمسلمين وقعد له المدديّ خلف صخرة فمر به الرومي فعَرْقب[1] فرسه فخرّ ، وعلاه فقتله فحاز فرسه وسلاحه . فلما فتح الله عز وجل على المسلمين بعث خالد بن الوليد فأخذ من السلب . قال عوف : فأتيته فقلت : يا خالد ، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكني استكثرته ، قال عوف : فقلت : لتردنّه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يردّه عليه ، قال عوف : فاجتمعنا فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد ، فقال رسول الله ﷺ : يا خالد ، ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله ، استكثرته ، فقال رسول الله ﷺ : ردّ عليه ما أخذت منه ، فقلت : دونك يا خالد . ألم أقل لك ! فقال رسول الله ﷺ : ما ذاك ؟ فأخبرته ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : يا خالد، لا تردّ عليه ، هل أنتم تاركو لي أمرائي ، لكم صفوة أمركم وعليهم كدرُه .

وأما غزوة ذات السلاسل فهي بعد غزوة مؤتة ، وقال ابن إسحاق : إنها قبل غزوة مؤتة :

روي أنه بلغ رسولَ الله ﷺ أن جمعاً من بَلِيّ وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله صلى [٥١ / ب] الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في سَراة المهاجرين والأنصار - في ثلاث مئة - عامر بن ربيعة وصُهيب بن سنان وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل وسعد بن أبي وقاص ، ومن الأنصار : أُسيد بن حُضَيْر ، وعَبّاد بن بشر ، وسَلَمة بن سلامة ، وسعد بن عبادة ، وأمره أن يستعين بمن مرّ به من العرب ، وهي بلاد بليّ وعُذرة وبَلْقَين . وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم : كانت أم العاص بن وائل بَلَويّة ، فأراد رسول الله ﷺ يتألفهم بعمرو ، فسار ، وكان يكْمُن النهار ، ويسير الليل ، وكانت معه ثلاثون فرساً . فلما دنا من القوم بلغه أنّ لهم جمعاً كثيراً ، فنزل قريباً منهم عِشاء ، وهم شاتون ، فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا ، وهي أرض باردة ، فمنعهم فشقّ ذلك عليهم حتى كلّمه في ذلك بعضُ المهاجرين فغالظه ، فقال عمرو : قد أُمرتَ أن تسمع لي

(١) عرقب الدابة : قطع عرقوبها . اللسان .

وتطيع ، قال : نعم ، قال : فافعل ، وبعث رافع بن مَكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يخبره أن لهم جمعاً كبيراً ، ويستمده بالرجال ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواءً وبعث معه سَراة المهاجرين : أبو بكر وعمر ، والأنصار وأمره رسول الله ﷺ أن يلحق عمرَو بن العاص فخرج أبو عبيدة في مئتين وأمره أن يكونا جميعاً ولا يختلفا ، فساروا حتى لحقوا بعمرو بن العاص ، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمراً ، فقال له عمرو : إنما قدمت مدداً لي ، وليس أن تؤمني وأنا الأمير ، وإنما أرسلك النبي ﷺ إليّ مدداً ، فقال المهاجرون : كلا بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو : لا بل أنتم مددٌ لنا ، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف وكان حَسَن الخلق ليّن الشيمة قال : انظرَن يا عمرو ، تعلمَن أن آخر ما عهد [٥٢ / أ] إليّ رسول الله ﷺ أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعَنّك ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلي بالناس ، فآب إلى عمرو جمع فصاروا خمس مئة ، فسار الليل والنهار حتى وطئوا بلاد بليّ ودوّخها[1] ، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع ، فلما سمعوا به تفرقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَلِيّ وعذرة وبَلْقَين ، في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير ، فتقاتلوا ساعة وترامَوا بالنبل ، ورُمي يومئذ عامرٌ بن ربيعة بسهم فأصيب ذراعه ، وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرّقوا ، ودوّخ عَمرو ما هناك ، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا بمكانٍ صاروا فيه ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشّاء والنَّعَم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، فلم يكن في ذلك أكثر من ذلك . لم يكن غنائمُ تُقْسَم إلا ما لا ذِكْر له .

وفي بعض روايات هذا الخبر :

حتى إذا كان على ماء بأرض جُذام يقال لها السلاسل ، فبذلك سُمّيت هذه الغزوة : ذاتَ السلاسل .

وفي هذه الرواية أن رسول الله ﷺ قال :

إني لأُؤمِّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً ، وأبصر بالحرب .

وفي رواية :

أن أبا عبيدة لما أطاع عمرو بن العاص وَجَدَ عُمر من ذلك وقال : أتطيع ابن

(١) دوّخ المكان : جال فيه .

النابغة[1] وتؤمّره على نفسك وعلى أبي بكرٍ وعلينا ؟! ما هذا الرأي . فقال أبو عبيدة لعمر : يابن أمّ ، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ وإليه ألاّ نتعاصيا ، فخشيت إن لم أطعه أن أعصي رسول الله ﷺ ، فيدخل بيني وبين الناس ، وإني والله لأطيعنّه حتى أقفل . فلما قفلوا كلّم عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ وشكا إليه ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : لن أؤمّر عليكم بعدها إلا منكم [٥٢ / ب] يريد المهاجرين . فكانت تلك غزوة ذات السلاسل ، أُسر فيها ناس كثير من العرب وسُبوا .

قال عمرو بن العاص :

بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل ، وفي القوم أبو بكر وعمر ، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده ، قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه ، وقلت : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة ، قلت : إني لست أسألك عن أهلك . قال : فأبوها . قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر . قلت : ثم من ؟ حتى عدد رهطاً . قال : قلت في نفسي : لا أعود أسأل عن هذا .

ولما بعث عمرو بن العاص في ذات السلاسل سأله أصحابه أن يأذن لهم أن يوقدوا ناراً ليلاً فمنعهم ، فكلموا أبا بكر فكلمه في ذلك فأباه . فقال : قد أرسلوك إليّ ! لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها .

قال : فلقوا العدو فهزموهم ، فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم . فلما انصرف ذلك الجيش ذكر ذلك للنبي ﷺ وشكوه إليه ، فقال : يا رسول الله إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قلّتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مَدَد فيعطفوا عليهم ، فأحمد رسول الله ﷺ أمره . قال : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : لم ؟ قال : لأحب من تحب . قال : عائشة . قال : من الرجال ؟ قال : أبو بكر .

---

(١) النابغة : أم عمرو بن العاص ، وهي سبية من عَنَزَة . انظر جمهرة أنساب العرب ١٦٣

باب غزوة تبوك

قال ابن عباس :

لبث رسول الله ﷺ بعد خروجه من الطائف ستة أشهر ، ثم أمره الله بغزوة تبوك ، وهي التي ذكر الله ساعة العسرة[1] ، وذلك في حرّ شديد ، وقد كثر النفاق ، وكثر أصحاب الصفة ، والصفةُ بيت كان لأهل الفاقة يجتمعون فيه فتأتيهم صدقة النبي ﷺ والمسلمين ، وإذا حضر غزو عمد المسلمون إليهم فاحتمل الرجلُ الرجلَ أو ما شاء الله بشبعةٍ [٥٣ / أ] فجهزوهم وغزوا معهم واحتسبُوا عليهم ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالنفقة في سبيل الله والحِسْبَة ، فأنفقوا احتساباً ، وأنفق رجال غير محتسبين ، وحُمِل رجال من فقراء المسلمين ، وبقي أناس . وأفضل ماتَصَدق به يومئذ أحد عبد الرحمن بن عوف ، تَصَدق بمئتي أوقية ، وتصدق عمر بن الخطاب بمئة أوقية ، وتصدق عاصم الأنصاري بتسعين وَسْقاً[2] من تمر . وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، إني لا أرى عبد الرحمن إلا قد احترب[3]، ما ترك لأهله شيئاً ، فسأله رسول الله ﷺ هل تركت لأهلك شيئاً ؟ قال : نعم ، أكثر مما أنفقته وأطيب ، قال : كم ؟ قال : ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير . وجاء رجل من الأنصار يقال له أبو عقيل بصاع من تمر فتصدق .

وعمد المنافقون حين رأوا الصدقات ، فإذا كانت صدقة الرجل كثيرة تغامزوا به وقالوا : مُراءٍ ، وإذا تَصَدق الرجل بيسير طاقته من تمر ، قالوا : هذا أحوج إلى ما جاء به ، فلما جاء أبو عقيل بصاعه من تمر قال : بتّ ليلتي أجر بالجرير على صاعين والله ما كان عندي من شيء غيرهما وهو يعتذر ويستحي ، فأتيت بأحدهما وتركت الآخر لأهلي ، فقال

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة في سورة التوبة ٩ / ١١٧ : ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ .

(٢) الوَسْق : ستون صاعاً أو حمل بعير . القاموس : « وسق » .

(٣) في المطبوع « اخترب » .

المنافقون : هذا أفقر إلى صاعه من غيره ، وهم في ذلك ينتظرون يصيبون من الصدقات غنيهم وفقيرهم ، فلما أزف خروج رسول الله ﷺ أكثروا الاستئذان وشكَوا شدة الحر وخافوا ، زعموا الفتنة إن غزوا ، ويحلفون بالله على الكذب ، فجعل رسول الله ﷺ يأذن لهم لا يدري ما في أنفسهم ، وبنى طائفة منهم مسجد النفاق يرصدون به الفاسق أبا عامر ، وهو عند هرقل قد لحق به ، وكنانة بن عبد ياليل وعلقمة بن عُلاثة العامري ، وسورة براءة تنزل في ذلك أرسالاً . ونزلت فيها آية ليست فيها رخصة لقاعد . فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ انفِرُوا خِفَافاً [٥٣ / ب] وثِقَالاً ﴾[1]. اشتكى الضعيف الناصح لله ورسوله والمريض والفقير إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : هذا أمر لا رخصة فيه . وفي المنافقين ذنوب مستورة لم تظهر حتى كان بعد ذلك ، وتخلّف رجال غير مستيقنين ولا ذوي علة ونزلت هذه السورة بالبيان والتفصيل في شأن رسول الله ﷺ [فسار][2] بمن اتبعه حتى بلغ تبوك ، فبعث منها علقمة بن مُجَزِّز المُدْلِجي إلى فلسطين ، وبعث خالد بن الوليد إلى دُومة الجندل ، فقال : أسرعْ لعلك أن تجده خارجاً يتقنّص فتأخذه ، فوجده فأخذه وأرجف المنافقون في المدينة بكل خبرِ سَوْءٍ . فإذا بلغهم أن المسلمين أصابهم جهد وبلاء تباشروا به وفرحوا ، وقالوا : قد كنا نعلم ذلك ونحذّر منه ، وإذا أُخبروا بسلامة منهم وخيرٍ أصابوه حزنوا وعرف ذلك منهم فيهم كل عدو لهم بالمدينة ، فلم يبق أحد من المنافقين أعرابي ولا غيره إلا استخفى بعمل خبيث ومنزلة خبيثة واستعلن ، ولم يبق ذو علة إلا هو ينتظر الفرج فيما يُنزل الله في كتابه ، ولم تزل سورة براءة تنزل حتى ظنّ المؤمنون الظنون ، وأشفقوا أن لا ينفلت منهم كبير أحدٍ أذنب في شأن التوبة قط ذنباً إلا أُنزل فيه أمر بلاء حتى انقضت ، وقد وقع بكل عامل تبيان منزله من الهدى والضلالة .

وعن كعب بن مالك عن رسول الله ﷺ

أنه كان إذا أراد المسير في الغزاة أذّن في المسلمين بالجهاز ، وكتمهم أين يجاهدون مكيدةً للعدو ، وما كان رسول الله ﷺ يؤذّن بالجهاز إلا وعندي بعير فأقوى به على الخروج معه حتى كانت تبوك ، فكانت في حَرٍّ شديدٍ وحين أقبلت الثمرة ، فأذّن رسول الله ﷺ بالجهاز

(١) سورة التوبة ٩ / ٤١

(٢) مكان اللفظة بياض في الأصل . وأُشير إلى ذلك بحرف « ط » في الهامش . وما هنا عن تاريخ ابن عساكر ١ / ٤٠٩

إلى تبوك وبيّنها للمسلمين ووافق ذلك عندي [٥٤ / أ] بعيرين ، فرأيت أني قويّ على الخروج ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون ، وأغدو أنا لأتجهز ، فوالله لكأنما أُرْبط فأُرْجع وما قطعت شعرة وعندي بعيران ، وأنا أرى أني قويّ على الخروج إذا أردت . فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون ، ثم ذهبتُ أنظر ، فإذا ما أرى رجلاً تخلّف إلا رجلاً مغموصاً[١] عليه في دينه ، غير أني قد رأيت رجلين من الأنصار صحيحَيْن كدتُ أسكن إليهما : هلال بن أمية الواقفي ومرارة العَمْري ، حتى إذا أيست من الخروج قلت : أعتذر إلى رسول الله ﷺ إذا رجع .

قال ابن إسحاق :

ثم خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري . فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنيّة الوداع ، ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس ، وضرب عبد الله بن أُبيّ عدو الله على ذي حِدة عسكراً أسفل منه نحواً من كذا وكذا ، وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين . فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف عنه عبد الله بن أُبَيّ فيمنْ تخلّف من المنافقين وأهل الرّيَب ، وخلّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلّفه إلا استثقالاً له وتخفّفاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بالجُرْف ، فقال : يا رسول الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلّفتني تستثقلني وتَخَفّفُ مني . فقال رسول الله ﷺ : كذبوا ، ولكني خلّفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، ألا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبيٌّ بعدي ، فرجع إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ لسفره .

وعن كعب بن مالك قال :

لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ [٥٤ / ب] في غزوة غزاها ، حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً ولم يعاتب النبي ﷺ أحداً تخلّف عن بدر ، إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مُغْوِثين[٢] لعيرهم ، فالتقوا عن غير موعد كما قال الله عزّ وجلّ . ولعمري إن أشرف مشاهد

---

(١) أي مطعوناً في دينه متهماً بالنفاق . النهاية : « غمص » .

(٢) أي مغيثين فجاء به على أصله ولم يُعِلّه كاستحوذ واستنوق ، ولو روي مُغَوِّثين بالتشديد من غوّث بمعنى أغاث ـ لكان وجهاً . النهاية : « غوث » .

رسول الله ﷺ في الناس لبدر ، وما كنتُ أُحبُّ أني شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حيث توافقنا على الإسلام ، ولم أتخلف بعدُ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها ، حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها ، فأذّن رسول الله ﷺ الناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة عدوّهم ، وذلك حين طاب الظلال وطابت الثار ، فكان قلّما أراد غزوة إلا ورّى بغيرها ، وكان يقول : الحرب خدعة ، فأراد النبي ﷺ في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبته ، وأنا أيسرُ ما كنت ، قد جمعت راحلتين ، وأنا أقْدَرُ شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحاذ[1]، وأنا في ذلك أصغو إلى الظلال وطيب الثار . فلم أزل كذلك حتى قام النبي ﷺ غادياً بالغداة ، وذلك يوم الخميس ، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس .

وعن محمد بن مسلم الزهري قال :

ثم غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك وهو يريد الروم وكفار العرب بالشام ، حتى إذا بلغ تبوك أقام بها بضع عشرة ليلة ولقيه بها وفد أذْرُح ووفد أيْلَة ، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية ، ثم قفل رسول الله ﷺ من تبوك ولم يجاوزها .

وفي حديث غيره

فبينما رسول الله ﷺ ذات يوم في جهازه في غزوة تبوك إذ قال للجَدّ بن قيس : ياجَدّ ، هل لك في بنات بني الأصفر ؟ قال : يارسول الله ﷺ لقد علم قومي أنه ليس من أحد أشدّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتنّي ، فائذن لي يارسول الله . فأعرضَ عنه [٥٥ / أ] رسول الله ﷺ وقال : قد أذنتُ ، فأنزل الله تعالى ﴿ ومِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لي وَلا تَفْتِنّي ألاَ في الفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾[2] يقول : ماوقع فيه من الفتنة بتخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه أعظم مما يخاف من فتنة نساء بني الأصفر ﴿ وإنَّ جَهَنَّم لَمحيطَةٌ بالكَافِرِينْ ﴾[3] يقول لمن وراءه . وقال رجل من جملة المنافقين : لاتنفروا في الحر . فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ نارُ جَهَنَّم أشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا

(١) أي خفيف الظّهر من العيال . النهاية : « حوذ » .

(٢) التوبة ٩ / ٤٩

(٣) التوبة ٩/ ٥٠

يَفْقَهُون ﴾[1] ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره ، وأمر الناس بالجهاز وحضّ أهل الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى وأحسنوا ، وأنفق عثمان رضي الله عنه في ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحدٌ أعظم منها وحمل على مئتي بعير .

ومما جمع من أحاديث تبوك قالوا :

كانت الضافطة[2] وهم الأنباط يقدمون المدينة بالدَّرْمَك[3] والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام ، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط ، فقدمت منهم قادمةٌ ، وذكروا أنّ الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رَزق أصحابه لسَنَة ، وأجليت معه لخم وجذام وغسان وعاملة ، وزحفوا وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها ، وتخلف هرقل بحمص . ولم يكن ذلك ، وإنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه ، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم ، وذلك لما عاينوا منهم ، إذ كانوا يقدمون عليهم تجاراً ، من العدد والعُدة والكُراع ، وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا ؛ حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزواً وعدداً كبيراً ، فجلا للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة عدوهم [٥٥ / ب] وأخبرهم بالوجه الذي يريد . وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم فبعث إلى أسلَم بُريدة بن الحُصَيْب ، وأمره أن يبلغ الفَرع ، وبعث أبا رُهَم الغِفاري إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم . وخرج أبو واقد الليثي في قومه ، وخرج أبو جَعْد الضّمري في قومه بالساحل ، وبعث رافع بن مَكيث وجندب بن مَكيث في جهينة ، وبعث نُعيم بن مسعود في أشجع ، وبعث في بني كعب بن عمرو عدّة : بُدَيْل بن ورقاء وعمرو بن سالم وبسر بن سفيان ، وبعث في سُليم عدة منهم العباس بن مرداس .

وحضّ رسول الله ﷺ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم فيه ، وأمرهم بالصدقة ، فحملوا صدقات كبيرة ، فكان أول من حمل أبو بكر الصديق جاء بماله كله أربعة آلاف درهم فقال له

---

(١) التوبة ٩ / ٨١

(٢) في الأصل : « الظافطة » والضافط والضفّاط : الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن والمكاري الذي يكري الأحمال ، وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما . النهاية « ضفط »

(٣) هو الدقيق الحُوّارى . النهاية : « درمك » .

رسول الله ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئاً قال : الله ورسوله أعلم ، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : نعم نصف ماجئت به . وبلغ عمر ماجاء به أبو بكر الصديق فقال : ماستبقنا إلى خير قط إلا سبقني إليه ، وحمل العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ مالاً ، وحمل طلحة بن عُبيد الله إلى النبي ﷺ مالاً ، وحمل عبد الرحمن بن عوف إليه مالاً مئتي أوقية ، وحمل سعد بن عبادة إليه مالاً ، وحمل محمد بن مَسلمة إليه مالاً ، وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وَسْقاً تمراً ، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش ، وكان من أكرمهم نفقةً حتى كفى ثلث ذلك الجيش مؤونتهم ، حتى إن كان لَيقال : ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شُنُق[1] أسقيتهم فيقال : إن رسول الله ﷺ قال يومئذ : ما يضرّ عثمان مافعل بعد هذا . ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف ، واحتسبوا في ذلك الخير [٥٦ / أ] وقوى ناسٌ دون هؤلاء مَن هو أضعف منهم ، حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه ، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض مَن يخرج ، حتى إن كنّ النساءُ ليُعِنَّ بكلّ ماقدرْنَ عليه .

لقد قالت أم سنان الأسلمية : لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة فيه مَسَكة[2] ومعاضد[3] وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات[4] مما يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين في جهازهم ، والناس في عسرة شديدة ، وحين طابت الثمار وأُحبّتِ الظلالُ ، فالناس يحبون المقام ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه . وأخذ رسول الله ﷺ وسلم الناس بالانكماش والجد ، وضرب رسول الله ﷺ عسكره بثنيّة الوَداع ، والناس كثير لايجمعهم كتاب قل رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزَّل فيه وحي من الله عزّ وجلّ . فلما استمر برسول الله ﷺ سفره ، وأجمع المسير استخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطَة الغِفاري ، ويقال محمد بن مسلمة ، لم يتخلف عنه في غزوة غيرها ، ويقال ابن أم مكتوم وأثبتهم محمد بن مسلمة . وقال رسول الله ﷺ : استكثروا من النعال ، فإن الرجل لا يزال راكباً مادام متنعلاً . فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أُبيّ عن

---

(١) ج شِناق : وهو الخيط أو السير الذي تعلق به القربة ، والخيط الذي يشدّ به فمها . النهاية : « شنق »

(٢) المَسَك : الأسورة والخلاخيل واحدته مَسَكَة . اللسان : « مسك »

(٣) المعضدة والمعضد : الدملج لأنه على العضد يكون ، والجمع معاضد . اللسان : « عضد »

(٤) الخَدَمَة : الخلخال . اللسان ، والنهاية « خدم »

رسول الله ﷺ فيمن تخلّف من المنافقين وقال : يغزو محمد بني الأصفر مع جَهد الحال والحرّ والبلد البعيد إلى مالا قِبل له به ! يَحسِب محمد أنّ قتال بني الأصفر اللعبَ ؟! ونافق ممن هو معه على مثل رأيه ثم قال ابن أُبيّ : والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مُقَرَّنين في الحبال ، إرجافاً برسول الله ﷺ [٥٦ / ب] وأصحابه .

فلما رحل رسول الله ﷺ من ثنيّة الوداع إلى تبوك وعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر ، ورايته العظمى إلى الزبير ، ودفع راية الأوس إلى أُسَيد بن حُضير ، ولواء الخزرج إلى أبي دُجانة ، ويقال إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح . قال : ومضى رسول الله ﷺ من المدينة فصبّح ذا خُشُب[١] فنزل تحت الدُّومة ، وكان دليله إلى تبوك علقمة بن الفَغْواء الخزاعي ، فقال رسول الله ﷺ تحت الدومة ، فراح منها مُمسياً حيث أَبرد ، وكان في حرّ شديد .

قالوا : وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً . ومن الخيل عشرة آلاف فرس ، وأمر رسول الله ﷺ كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء أو راية . والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية ، وكان رسول الله ﷺ قد دفع راية بني مالك بن النجار إلى عُمارة[٢] بن حزم . فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فأعطاه الراية . قال عمارة : يا رسول الله ، لعلك وجدت علي ، قال : لا والله ، ولكن قدّموا القرآن . وكان زيد أكثر أخذاً للقرآن منك . والقرآن مقدم ، وإن كان عبداً أسود مجدّعاً ، وأمر في الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذاً للقرآن . وكان أبو زيد يحمل راية بني عمرو بن عوف ، وكان معاذ بن جبل يحمل راية بني سَلمة .

قال : وكان هرقل قد بعث رجلاً من غسان إلى النبي ﷺ ينظر إلى صفته وإلى علاماته ، إلى حمرةٍ في عينيه وإلى خاتم النبوة بين كتفيه . وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة ، فوعى أشياء من حال النبي ﷺ ثم انصرف إلى هرقل يذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى التصديق به فأبوا حتى خافهم على ملكه وهو في موضعه لم يتحرك [٥٧ / أ] ولم يزحف .

---

(١) خُشُب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . له ذكر كثير في الحديث والمغازي . معجم البلدان

(٢) كتب الاسم الصحيح في هامش الأصل . وهو موافق لما في الإصابة ٥١٥/٢ ، وفي المتن « عبادة » وفوقه ضبّة

وكان الذي خبر النبي ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوّه إلى أدنى الشام باطلاً لم يرد ذلك ولم يهمّ به ، وشاور رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم ، فقال عمر بن الخطاب : إن كنت أُمرت بالمسير فسِر ، قال رسول الله ﷺ : لو أُمرت به ما استشرتكم فيه ، قال : يا رسول الله ، فإن للروم جموعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الشام ، وقد دنوتَ منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دُنُوّك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله تعالى لك في ذلك أمراً .

وعن معاذ بن جبل قال :

إنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ، فكان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ، فأخر الصلاة يوماً ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً ثم قال : إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك . وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمسّ من مائها شيئاً حتى آتي ، قال : فجئناك وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الشراك ، تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله ﷺ : هل مسستما من مائها شيئاً قالا : نعم . فسبّهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا من العين بأيديهم قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناسُ . ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً .

وعن سعيد بن أبي راشد مولى لآل معاوية قال :

قدمت الشام فقيل لي : في هذه الكنيسة رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ قال : فدخلنا الكنيسة فإذا أنا بشيخ كبير : [٥٧ / ب] فقلت له : أنت رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم . قال : قلت : حدثني عن ذلك . قال : إنه لما غزا تبوكاً كتب إلى قيصر كتاباً وبعث به مع رجل يقال له دِحْية بن خليفة . فلما قرأ كتابه وضعه معه على سريره ، وبعث إلى بطارقته ورؤوس أصحابه فقال : إنّ هذا الرجل قد بعث إليكم رسولاً ، وكتب إليكم كتاباً يخيركم إحدى ثلاث : إما أن تتبعوه على دينه ، أو تُقرّوا له بخراج يجري عليكم ويُقِرّكم على هيئتكم في بلادكم ، أو أن تُلقوا إليه بالحرب . قال فنخروا[1] نَخرةً حتى خرج بعضهم من برانسهم وقالوا : لا نتبعه على دينه ، ونَدَع ديننا ودين آبائنا ، ولا نُقِر له

---

(١) نخروا : أي تكلموا . وكأنه كلام مع غضب ونفور . وقيل إن اللفظة حبشية . اللسان والنهاية : « نخر »

بخراج يجري لـه علينـا ، ولكن نَلقي إليـه الحرب . فقـال : قـد كان ذاك ولكني كرهت أن أفتات[1] دونكم بأمر ، قال عباد : فقلت لابن خثيم : أوليس قد كان قارب وهمّ بـالإسلام فيما بلغنا ؟ قال : بلى لولا أنه رأى منهم . قال : فقال : ابغوني رجلاً من العرب أكتب معه إليـه جواب كتابه . قال : فأتيتُ وأنا شاب وانطُلق بي إليه فكتب جوابـه وقـال لي : مهما نسيت من شيء فاحفظ عني ثلاث خلال : انظر إذا هو قرأ كتـابي هـذا هل يـذكر الليل والنهـار ، وهل يذكر كتابه إلي ، وانظر هل ترى في ظهره علماً ، قال : فأقبلت حتى أتيته وهو بتبوك في حلقة من أصحابه منتحين . فسألت فأخبرت به فدفعت إليه الكتاب ، فدعا معاوية فقرأ عليه الكتاب . فلما أتى على قوله : دعوتني إلى جنة عرضهـا السموات والأرض فـأين النـار ؟ قال رسول الله ﷺ : إذا جـاء الليل فـأين النهـار ؟ قـال : فقـال : اني كتبت إلى النجـاشي فحرقه ، فحرقـه الله محرق الملـك . قـال عبـاد : فقلت لابن خثيم : أليس قـد أسلم النجـاشي ونعاه رسول الله ﷺ بالمـدينـة إلى أصحـابـه فصلى عليـه ؟ قـال : بلى . ذاك فلان بن فلان وهـذا فلان بن فـلان [٥٨ / أ] قـد ذكرهمـا ابن خثيم جميعـاً ونسيتهما[2] وكتبت إلى كسرى كتاباً فمزقـه ، فمزقـه الله ، ممزق الملـك . وكتبت إلى قيصر كتـابـاً فـأجـابني فيـه ، فلن يزال النـاس يخشـون[3] منهم بـأسـاً مـا كان في العيش خير . ثم قـال لي : ممن أنت ؟ قلت : من تنوخ . قال : يا أخا تنوخ ، هل لـك في الإسلام ؟ قلت : لا ، إني أقبلت من قِبَل قوم وأنـا فيهم على دين ، ولست مستبدلاً بـدينهم حتى أرجع إليهم فضحـك رسول الله ﷺ أو تبسم . فلما قضيت حاجتي قمت ، فلما وليت دعاني فقال : يـا أخـا تنوخ ، هلمّ فـامض للـذي أُمرت به ، قال : وكنت نسيتها ـ فـاستـدرتُ من وراء الحلقـة وألقى بردة كانت عليـه عن ظهره ، فرأيت على غضروف كتفه مثل المِحْجَم الضخم .

وفي رواية : فضحـك رسول الله ﷺ ـ يعني حين دعـاه إلى الإسلام ، فـأبى أن يسلم ، وتلا هذه الآية : ﴿ إنَّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ الله يَهدِي مَنْ يَشَاء ﴾[4] ثم قـال رسول

---

(١) يقال لكل من أحدث شيئاً في أمرك دونك : قد افتات عليك فيه . النهاية

(٢) في الأصل : « نَسَبها » وما هنا عن الإمام أحمد ٧٥/٤ والحديث بطوله في مسند الامام أحمد ٧٤/٤ ـ ٧٥

(٣) في الأصل (يخسرون) وفي هامشه إشارة إلى هذا الخطأ بحرف (ط) ، ومـا هنـا عن مسنـد الإمـام أحمـد ٧٥/٤

(٤) سورة القصص ٢٨ / ٥٦

الله ﷺ : إنك رسول قوم وإن لك حقاً ، ولكن جئتنا ونحن مُرْمِلون ، فقال عثمان بن عفان : أنا أكسوه حلة صُفُورِيّة[1] وقال رجل من الأنصار : علي ضيافته .

قال ابن إسحاق :

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يُحنّة بن رؤبة صاحبُ أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْباء وأذرُح[2] فأعطوه الجزية ، وكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً فهو عندهم . فكتب ليُحنّة بن رؤبة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي ورسوله ليحنّة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفهم وسائرهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه [٥٨ / ب] من بَرّ أو بحر . هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق :

وكتب لأهل جَرْباء وَأَذْرُح : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح : إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وإن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين . ومن لجأ إليهم من المسلمين . وذكر باقي الحديث .

وأعطى رسول الله ﷺ أهل أيلة بُرده مع كتابه الذي كتب لهم أماناً لهم ، فاشتراه أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاث مئة دينار .

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دُومة .

وعن قيس بن النعمان السكوني قال :

خرجَتْ خيلٌ لرسول الله ﷺ فسمع بها أُكيدر دُومة الجندل فانطلق إلى رسول الله

---

(١) الصُّفُورية : جنس من الثياب . القاموس وحاشيته : « صفر »

(٢) جرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال الشراة من ناحية الحجاز ، وهي قرية من منطقة أذرح من البلقاء . ومعجم البلدان « جرباء وأذرح »

ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلَغنا أن خيلك انطلقت ، وإني خفت على أرضي ومالي ، فاكتب كتاباً لا يعرضوا من شيء لي ، فإني مُقِرٌّ بالذي عليَّ من الحق ، فكتب له رسول الله ﷺ . ثم إن أُكَيدر أخرج قَباء من ديباج منسوج مما كان كسرى يكسوهم فقال : يا رسول الله ، اقبل عني هذا فإني أهديته لك . فقال له رسول الله ﷺ : ارجع بقبائك فإنه ليس يَلبس هذا في الدنيا إلا حُرِمَهُ - يعني في الآخرة - فرجع به حتى أتى منزله ، وإنه وجد في نفسه أن يردّ عليه هديته فقال : يا رسول الله ، إنا أهل بيت يشقّ علينا أن تُردّ علينا هديتنا ، فاقبل مني هديتي فقال رسول الله ﷺ : انطلق فادفعه إلى عمر بن الخطاب قال : وقد كان عمر قد سمع ما قال رسول الله ﷺ فبكى ، فدمعت عيناه . [٥٩ / أ] وظن أنه قد لحقه شيء . فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أحدث فيّ أمر ؟ قلت في هذا القباء ما قلت ثم بعثت به إليّ ، فضحك رسول الله ﷺ حتى وضع يده أو ثوبه على فيه . ثم قال : ما بعثت به إليك لتلبسه . ولكن تبيعه وتستعين بثمنه .

ذكر بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد

وأمره بشنّ الغارة على مُؤته ويبنى وآبل الزيت

عن أبي مُوَيْهبة[1] مولى رسول الله ﷺ قال :

رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعدما قضى حجة التمام ، فتحلل بـه السيرُ وضرب على الناس بعثاً ، وأمّر عليهم أسـامـة بن زيـد ، وأمره أن يوطئ آبل الزيت من مشـارف الشـام بـالأردنّ ، فقـال المنـافقـون في ذلـك ، وردّ عليهم النبي ﷺ إنـه لَخليـق لهـا ، أي حقيـق بالإمارة ، ولَئن قلتم فيه لقد قلتم في أبيـه من قبلـه وإن كان لها لخليقاً . وطـارت الأخبـار ـ لتحلل السير[2] بـالنبي ﷺ ـ أن النبي ﷺ قـد اشتكى ، ووثب الأسـود بـاليمن ومسيلمـة[3] باليمامة . وجـاء النبيَّ ﷺ الخبر عنهما ، ثم وثب طليحـة في بلاد بني أسـد بعـدمـا أفـاق النبي ﷺ . ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي توفاه جلّ وعزّ فيه .

وعن ابن عباس قال :

كان النبي ﷺ قـد ضرب بعث أسـامـة ولم يستتبّ لوجـع النبي ﷺ ، ولخلـع مسيلمـة والأسود ، وقد أكثر المنـافقون في تـأمير أسـامـة حتى بلغ النبي ﷺ فخرج عـاصبـاً رأسـه من الصُداع ، لذلك من الشأن ، ولبشارة أُريَها في بيت عائشة . وقال : إني أُريت البـارحـة فيما يرى النـائم في عَضُـدي سـوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطـارا . فـأولتهما هـذين الكـذابين : صـاحب اليمامـة ، وصـاحب اليمن ، [٥٩/ ب] وقـد بلغني أن أقوامـاً يقولون في إمرة أسامة ، ولَعمري لَئن قالوا في إمارته لقـد قـالوا في إمـارة أبيـه من قبلـه ، وإن كان أبوه لخليقاً لها ، وإنه لها لخليق ، فأنفذوا بعثَ أسـامـة . وقـال : لعن الله الـذين يتخـذون قبور أنبيائهم مساجد .

---

(١) ويقال : أبو موهبة وأبو موهوبة الاصابة ١٨٨/٤

(٢) تحللّ السـفرُ بالرجل : اعتلّ بعد قدومه . اللسـان : « حلل »

(٣) لفظتا « باليمن ومسـيلمة » مستدركتان في هامش الأصل . وبعدهما : « صح »

فخرج أسامة فضرب بالجُرف ، وأنشأ الناس في العسكرة ، ونجم طليحة ، وتمهل الناس . وثقل رسولُ الله ﷺ فلم يستتم الأمر . انتظر أولهم آخرهم حتى توفى اللهُ عزّ وجلّ نبيه ﷺ .

وعن أسامة بن زيد

أن النبي ﷺ كان وجّهه وجهاً ، فقُبض النبي ﷺ ولم يتوجه في ذلك الوجه .

ثم استُخلِف أبو بكر ، فقال أبو بكر لأسامة : ما الذي عهد إليك رسول الله ﷺ ؟ فقال : عهد إلي رسول الله ﷺ أن أغير على أُبْنَى صباحاً وأحرق .

أهل الشام يقولون : يُبنى بالياء . وكلا القولين صواب . قال عبد الله بن عمرو الغزّي : سمعت أبا مسهر قيل له : أُبْنى قال : نحن أعلم . هى يُبنى فلسطين .

وعن الحسن بن أبي الحسن قال :

ضرب رسول الله ﷺ بعثاً قبل وفاته على أهل المدينة ومَن حولهم ، وفيهم عمر بن الخطاب ، وأمّر عليهم أسامة بن زيد . فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قُبض رسول الله ﷺ فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي فأرجع بالناس فإن معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وثَقَل[1] رسول الله ﷺ وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار : فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا ، واطلب إليه أن يولّي أمرنا رجلاً أقدمَ سناً من أسامة . فخرج عمر بأمر أسامة فأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة . فقال أبو بكر : لو اختطفتني الكلاب والذئاب لم أردّ قضاءً قضاه رسول الله ﷺ قال : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم [٦٠ / أ] يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدمَ سناً من أسامة . فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه ؟! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم مالقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله ﷺ . ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيّعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب . وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له

---

(١) الثَّقَل : كل شيء نفيس مصون . القاموس . « ثقل »

أسامـة : يـا خليفـة رسـول الله ﷺ لتركبَنّ أو لأنـزلن . فقـال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب . وما عليّ أن أغبّر قدمي ساعة في سبيل الله . فإن للغـازي بكل خطوة يخطوهـا سبعَ مئة حسنة ، تُكتب له ، وسبع مئة درجة ترفع لـه ، وتُمحى عنـه سبع مئـة خطيئـة . حتى إذا انتهى قـال لـه : إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطـاب ، فـا فعـل . فـأذن لــه . وقال :

يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغلوا ولا تغـدِروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخـاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تـذبحـوا شـاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمـأكلـة . وسـوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فَدَعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقـدَمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعـام ، فـإذا أكلتم منهـا شيئـاً بعـد شيء فـاذكروا اسم الله عليهـا . وسوف تلْقَون أقوامـاً قـد فحصوا أوسـاط رؤوسهم وتركوا حولهـا مثل العصـائب فـاخفقـوهم بالسيوف خفقاً . اندفعوا باسم الله . أفناكم الله بالطعن والطاعون .

وفي رواية :

فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا حتى شهدوه . فلما فرغوا أنفـذه أبو بكر رضي الله عنـه على ما قال رسول الله ﷺ [٦٠/ ب] وخرج أبو بكر إلى الجُرْف فاستنفر أسـامـةَ وبَعْثَـه ، وسأله عمرَ فأذِن له ، وقال لـه : اصنع مـا أمر بـه نبي الله ﷺ ، ابـدأ ببلاد قضـاعـة ثم ائت آبل ، ولا تقصرنّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ ، ولا تعجلن لمـا خَلّفت عن عهـده ، فمضى أسامة مغذاً[1] على ذي المروَة ، والوادي . وانتهى إلى ما أمَرَه به النبي ﷺ من بثّ الخيول في قبائل قضاعة والغارة على آبل ، فسَلم وغَنِم ، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومقيلـه راجعاً .

وحدث زيد بن أسلم قال :

مات رسول الله ﷺ وعُماله على قضاعة : على كلب امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي من بني عبد الله . وعلى القين عمرو بن الحكم . وعلى سعد هذيم معاوية بن فلان الوائلي . فارتـد وديعة الكلبي فيمن آزره من كلب ، وبقي امرؤ القيس على دينه وارتد زميل بن قطبة القيني

(١) في الأصل : ماصورته : « بتغبا » . وما هنا عن ابن عساكر ١ / ٤٣٢

فمن آزرَه من بني القين وبني عمرو ، وارتـد معـاويـة فمن ازره من سعـد هـذيم . فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس بن فلان وهو جدّ سكينـة بنت الحسين رضي الله عنهما فثـار بوديعـة ، وإلى عمرو فأقام لزُمَيل وإلى معاوية العذري فأقام لمعاوية ، فلما توسّط أسامـة بلاد قضـاعـة بثّ الخيول قِبَلهم ، وأمرهم أن يُنهضوا من أقام على الإسلام إلى من رجع عنه ، فخرجوا هراباً حتى أرزَوا[1] إلى دُومة ، واجتمعوا إلى وديعة ، ورجعت خيول أسامة إليه فمضى فيهـا أسـامـة حتى أغار على الحَمْقَتَيْن[2] ، فـأصـاب في بني الضُبيب من جُـذام . وفي بني حيليل[3] من لخم ولِفّها من القبيلتين . وجازهم من آبل ، ثم انكفأ سالماً غانماً .

وعن عروة قال :

لما فرغوا من البيعة واطمأن الناس قال أبو بكر لأسامة : امض لوجهك الذي بعثك لـه رسول الله ﷺ ، فكلمه رجال من المهاجرين والأنصار ، وقالوا : أمسك أسامة وبعثه ، فإنـا نخشى أن تميل علينـا العرب إذا سمعوا بوفـاة رسول الله ﷺ . فقـال أبو بكر [٦١/ أ] وكان أحزمهم أمراً : أنا أحبس جيشاً بعثهم رسول الله ﷺ ؟! لقد اجترأتُ على أمر عظيم ، والذي نفسي بيده لأن تميل عليَّ العرب أحبّ إليّ من أن أحبس جيشاً بعثهم رسول الله ﷺ . امض يا أسامة في جيشك للوجه الـذي أُمرتَ بـه . ثم اغزُ حيثُ أمرك رسول الله ﷺ من نـاحيـة فلسطين ، وعلى أهـل مـؤتـة ، فـإن الله سيكفي مـا تركت ، ولكن إن رأيت أن تـأذن لعمر بن الخطـاب فـأستشره واستعن بـه ، فـإنـه ذو رأي وَمنـاصحٌ للإسلام فـافعل ، ففعـل أسامة . ورجع عامة العرب عن دينهم وعامة أهل المشرق وغطفان وبنو أسد وعامـة أشجع ، ومسكت طيء بالإسلام . وقال عامة أصحاب النبي ﷺ : أمسِـكْ أسـامـةَ وجيشـه ووجّههم نحو من ارتد عن الإسلام من غطفان وسائر العرب ، فأبى ذلـك أبو بكر أن يحبس أسـامـة ، وقـال : إنكم قـد علمتم أنـه قـد كان من عهـد رسول الله ﷺ إليكم في المشـورة فيما لم تمض من نبيِّكم فيه سنَّة ، ولم ينزل عليكم به كتاب ، وقد أشرتم . وسأشير عليكم . فانظـروا أرْشَـدَ ذلـك فائتمروا به ، فإن الله لن يجمعكم على ضلالة . والذي نفسي بيـده ، مـا أرى من أمرٍ أفضل في

---

(١) أرزى إليه : التجأ . القاموس : « رزى »

(٢) الحمقتان من مشارف الشام . معجم البلدان .

(٣) ورد في كتب الأنساب حَليل وحُلَيْل . انظر الاشتقاق ٣٩ و ٤٦٩ ١ / ٢٩٠ ـ ٢٩١ . ومعجم قبـائل العرب وجمهرة أنساب العرب ٢٢٥ ، ٢٢٦

نفسي من جهادِ مَنْ منع منا عِقالاً كان يأخذ رسول الله ﷺ ، فانقاد المسلمون لرأي أبي بكر ، ورأوا أنه أفضل من رأيهم ، فبعث أبو بكر أسامة بن زيد لوجهه الذي أمره به رسول الله ﷺ . فأصاب في العدوّ مصيبة عظيمة ، وسلّمه الله وغنّمه هو وجيشه ، وردّهم صالحين ، وخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار حين خرج أسامة حتى بلغ نقعاً حذاء نجد وهربت الأعراب بذراريهم . فلما بلغ المسلمين هربُ الأعراب كلموا أبا بكر وقالوا : ارجع إلى المدينة وإلى الذراري والنساء ، وأمّر رجلاً من أصحابك على الجيش . واعهد إليه أمرك فلم يزل المسلمون بأبي بكر حتى رجع . وأمَّر خالدَ بن الوليد [٦١/ ب] على الجيش . فقال له : إذا أسلموا وأعطَوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع . ورجع أبو بكر إلى المدينة .

قال الواقدي : قالوا :

لم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه ووجد عليهم وجْداً شديداً ، فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وأمرهم بالانكماش في غزوهم ، فتفرق المسلمون من عند رسول الله ﷺ وهم مجدون في الجهاد . فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من صفر دعا أسامة بن زيد فقال : يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهيَ إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتك هذا الجيش ، فاغز صباحاً على أهل أُبْنى وحرق عليهم وأسرع السير تسبق الخبر ، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاّء وقدّم العيونَ أمامَكَ والطلائع . فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر بُدئ رسول الله ﷺ فصُدع وحُمَّ . فلما أصبح يوم الخميس لليلة بقيت من صفر عقد له رسول الله ﷺ بيده لواء ثم قال : يا أسامة ، اغز باسم الله ، في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لاتدرون لعلكم تُبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم ، واكفف بأسهم عنا ، فإن لقوكم قد أجلبوا وصيَّحوا فعليكم بالسكينة والصمت ، ﴿ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُم ﴾[1] ، وقولوا : اللهم ، إنا نحن عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة .

---

(١) سورة الأنفال ٨ / ٤٧

وعن أسامة بن زيد

أن النبي ﷺ أمره بأن يُغير على أهل أُبنى صباحاً وأن يحرق . قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ لأسامة : امض على اسم الله . فخرج بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بريدة بن [٦٢/ أ] الحُصيب الأسلمي ، فخرج به إلى بيت أسامة ، وأمر رسول الله ﷺ أسامة فعسكر بالجُرْف ، وضرب عسكره في موضع سقاية سليمان اليوم ، وجعل الناس يؤخذون بالخروج إلى العسكر ، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ ، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة : عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة ، وسعيد بن أبي وقاص ، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، في رجال من المهاجرين . والأنصار عدة : قتادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم بن حريش .

فقال رجال من المهاجرين ، وكان أشدهم في ذلك قولاً عياش بن أبي ربيعة : يُستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فكثرت القالة في ذلك ، فسمع عمر بن الخطاب بعض ذلك القول ، فرده على من تكلم به ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقول من قال ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فخرج قد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟! والله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله ، وأيم الله ، إن كان للإمارة لَخليق ، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي . وإنّ هذا لمن أحب الناس إلي ، وإنهما لمخيلان لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم . ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته ، وذلك يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الأول .

وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ فيهم عمر بن الخطاب ، ورسول الله ﷺ يقول : أنفذوا بعث أسامة . ودخلت أم أيمن فقالت : أي رسول الله ، لو تركت أسامة يقيم في معسكره حتى تماثلَ ، فإن أسامة إن خرج على حاله هذه لم ينتفع بنفسه ، فقال رسول الله ﷺ : أنفذوا بعث [٦٢/ ب] أسامة ، فمضى الناس إلى المعسكر ، فباتوا ليلة الأحد . ونزل أسامة يوم الأحد ، ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور وهو

اليوم الذي لدّوه[1] فيه . فدخل على رسول الله ﷺ وعيناه تهملان ، وعنده العباس والنساء حوله ، فطأطأ عليه أسامة فقبله ورسول الله ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبها على أسامة . قال أسامة : فأعرف أنه كان يدعو لي .

قال أسامة : فرجعت إلى معسكري ، فلما أصبح يوم الاثنين غدا من معسكره وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً ، فجاءه أسامة فقال : اغد على بركة الله ، فودعه أسامة ورسول الله ﷺ مُفيق مُريح مفيق[2] ، وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته . ودخل أبو بكر فقال : يا رسول الله ، أصبحت مفيقاً بحمد الله . واليوم يوم ابنة خارجة[3] فائذن لي ، فأذن له ، فذهب إلى السُّنْح وركب أسامة إلى معسكره ، وصاح في أصحابه باللحوق إلى العسكر فانتهى إلى معسكره ونزل ، وأمر الناس بالرحيل ، وقد متع النهار ، فبينا أسامة بن زيد يريد أن يركب من الجُرف أتاه رسول أم أيمن وهي أمه تخبره أن رسول الله ﷺ يموت ، فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يموت .

فتوفي عليه السلام حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول ، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عنده .

فلما بويع لأبي بكر أمر بُريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ولا يحله أبداً حتى يغزوهم أسامة ، فقال بريدة : فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة ثم خرجت به إلى الشام معقوداً مع أسامة ثم رجعت به إلى بيت [٦٣ / أ] أسامة فما زال معقوداً في بيت أسامة حتى توفي أسامة .

فلما بلغ العرب وفاة رسول الله ﷺ وارتدّ من ارتدّ منها عن الإسلام قال أبو بكر لأسامة : انفذ في وجهك الذي وجّهك فيه رسول الله ﷺ . وأخذ الناس بالخروج وعسكروا

---

(١) اللدود من الأدوية : مايسقاه المريض في أحد شقي الفم . النهاية : « لدد » .

(٢) فوق اللفظة في الأصل ضبة

(٣) هي زوجته ، حبيبة بنت خارجة . الإصابة ٢٦٩/٤

في موضعهم الأول وخرج بريدة باللواء حتى انتهى إلى معسكرهم الأول ، فشقّ على كبار المهاجرين الأولين ، ودخل على أبي بكر عُمرُ وعثمان وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ ، إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب وإنك لاتصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً . اجعلهم عُدّة لأهل الردة ، ترمي بهم في نحورهم . وأخرى لاتأمن على أهل المدينة أن يغار عليها ، وفيها الذراري والنساء ، فلوا استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه ويعود أهل الردة إلى ما خرجوا منه ، أو يفنيهم السيف ، ثم تبعث أسامة حينئذ . فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا . فلما استوعب أبو بكر كلامهم قال : هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً ؟ قالوا : لا . قد سمعت مقالتنا . فقال : والذي نفسي بيده ، لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث ، ولا بدأت بأول منه ، ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول : أنفذوا جيش أسامة ، ولكن خصلة ، أكلّم أسامة في عمر يخلّفه يقيم عندنا ، فإنه لا غنى بنا عنه . والله ما أدري يفعل أسامة أم لا ؟ والله إن أبى لا أكرهه ، فعرف القوم أن أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعث أسامة . ومشى أبو بكر إلى أسامة في بيته فكلمه في أن يترك عمر ففعل أسامة ، وجعل يقول له : أذنتَ ونفسك طيبة ؟ فقال أسامة : نعم . قال : وخرج فأمر مناديه ينادي : عزمة مني ألا يتخلف عن أسامة مِنْ بعثه مَنْ كان انتدب معه في حياة رسول الله ﷺ ، فإني لن أوتى بأحد أبطأ الخروج معه [٦٣/ ب] إلا ألحقته به ماشياً وأرسل إلى النفر من المهاجرين الذين كانوا تكلموا في إمارة أسامة فغلّظ عليهم وأخذهم بالخروج ، فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد .

وخرج أبو بكر يشيع أسامة والمسلمين . فلما ركب أسامة من الجُرف في أصحابه وهم ثلاثة آلاف رجل وفيهم ألف فرس ، فسار أبو بكر إلى جانب أسامة ساعة ثم قال : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ، إني سمعت رسول الله ﷺ يوصيك ، فانفذ لأمر رسول الله ﷺ فإني لست آمرك ولا أنهاك عنه ، إنما أنا منفّذ لأمر أمَرَ به رسول الله ﷺ ، فخرج سريعاً ، فوطئ بلاداً هادئة لم يرجعوا عن الإسلام : جُهَينة وغيرها من قضاعة . فلما نزل وادي القرى قدّم عيناً له من بني عذرة يدعى حُرَيثاً ، فخرج على صدر راحلته أمامه مُغذاً حتى انتهى إلى أُبْنَى ، فنظر إلى ما هناك ، وارتاد الطريق ، ثم رجع سريعاً حتى لقي

أسامة على مسيرة ليلتين من أُبْنَى ، فأخبره أن الناس غارّون[1] ولا جموع لهم ، وأمَرَه أن يُسرع للسير قبل أن تجتمع الجموع وأن يشنها غارةً .

وروى المنذر بن جهم قال :

قال بريدة لأسامة : يا أبا محمد ، إني شهدت رسول الله ﷺ يوصي أباك أن يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أطاعوه خيّرهم إن أحبوا أن يقيموا في ديارهم ويكونوا كأعراب المسلمين فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، وإن تحولوا إلى دار الإسلام كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . قال أسامة : هكذا وصية رسول الله ﷺ لأبي ؟ ولكن رسول الله ﷺ أمرني ، وهو آخر عهده إلي أن أسرع السير وأسبق الأخبار وأن أشنّ الغارة عليهم بغير دعاء فأحرق وأخرّب . فقال بريدة : سمعاً وطاعة لأمر رسول الله ﷺ . فلما انتهى إلى أُبْنَى فنظر إليها منظر العين عبّأ [٦٤/ أ] أصحابه وقال : اجعلوها غارة ، ولا تُمعِنوا في الطلب ولا تفترقوا واجّمعوا ، وأخفُوا الصوت واذكروا اسم الله في أنفسكم ، وجردوا سيوفكم وضعوها فيمن أشرف لكم . ثم دفع عليهم الغارة ، فما نبح كلب ، ولاتحرك أحد ، ولا شعروا إلا بالقوم قد شَنّوا عليهم الغارة ينادون بشعارهم : يا منصور أمِتْ ، فقتل من أشرف له وسبى من قدر عليه ، وحرّق في طوائفها بالنار ، وحرق منازلهم وحروثهم ونخلهم ، فصارت أعاصير من الدخاخين ، وأقام الخيل في عرصاتهم ، ولم يُمعِنوا في الطلب . أصابوا ما قرُب منهم ، وأقاموا يومهم ذلك في تعبئة ما أصابوا من الغنائم . وكان أسامة خرج على فرس أبيه الذي قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، كانت تدعى سَبْحة ، وقتل قاتل أبيه في الغارة . خبرّه به بعض من سُبي ، وأسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهماً وأخذ لنفسه مثل ذلك . فلما أمسَوا أمر الناس بالرحيل ، ومضى ومضى الدليل أمامه حريث العذري ، فأخذوا الطريق الذي جاء منها ، ودأبوا ليلتهم حتى أصبحوا بأرض بعيدة ثم طوى البلاد حتى انتهوا إلى وادي القرى في تسع ليال ، ثم قصد يغذّ السير إلى المدينة وما أصيب من المسلمين أحد فبلغ ذلك هرقل وهو بحمص ، فدعا بطارقته فقال : هذا الذي حذرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني ، قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر ، فتغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تُكلم . قال أخوه يناق : فابعث رابطة تكون بالبلقاء فبعث رابطة واستعمل

(١) غارون : أي غافلون . النهاية « غرر »

عليهم رجلاً من أصحابه ، فلم يزل مقيماً حتى قدمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

قالوا : واعترض لأسامة في منصرفه قوم من أهل كثكث ، قرية هناك ، وقد كانوا اعترضوا لأبيه في بدأته ، فأصابوا من أطرافه فناهضهم أسامة بمن معه ، فظفر بهم وخرّق عليهم وساق من نعمهم وأسر منهم أسيرين فأوثقهما وهرب من بقي ، فقدم بهما المدينة ، فضرب أعناقهما .

[٦٤ / ب] وعن يحيى بن النضر

أن أسامة بن زيد بعث بشيره من وادي القرى بسلامة المسلمين وأنهم قد أغاروا على العدو وأصابوهم . فلما سمع المسلمون بقدومهم خرج أبو بكر في المهاجرين وخرج أهل المدينة حتى العواتق ، وبشروا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين ، ودخل يومئذ على فرسه سبحة ، كأنما خرجت من ذي خُشُب ، عليه الدرع واللواء أمامه ، يحمله بريدة ، حتى انتهى به إلى المسجد فدخل فصلى ركعتين وانصرف إلى بيته معه اللواء . وكان مخرجه من الجرف لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، فغاب خمسة وثلاثين يوما سار عشرين في بدائه ، وخمس عشرة في رجعته .

وعن أبي هريرة قال :

والذي لا إله إلا هو ، لولا أن أبا بكر استُخلف ما عُبِد الله ، ثم قال الثانية ثم قال الثالثة ، فقيل له : يا أبا هريرة ! فقال : إن رسول الله ﷺ وجّه أسامة بن زيد في سبع مئة إلى الشام ، فلما نزل بذي خشب قُبض النبي ﷺ وارتدت العرب حول المدينة فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له : يا أبا بكر ، ردّها ولا توجّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ، فقال : والذي لا إله إلا هو ، لو جرّت الكلاب بأرجل الناس ما رددت جيشاً وجّهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ . فوجه أسامة . فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن نَدَعهم حتى يلقَوا الروم ، فلقُوا الروم فهزموهم وقتلوهم ، ورجعُوا سالمين فثبتوا على الإسلام .

ذكر اهتمام أبي بكر بفتح الشام وحرصه عليه

قال ابن إسحاق :

كان فتح اليمامة واليمن والبحرين ، وبعث الجنود إلى الشام في سنة ثنتي عشرة .

وقال أيضاً :

إن أبا بكر لما حدث نفسه بأن يغزو الروم [٦٥ / أ] فلم يُطلع عليه أحداً إذ جاءه شرحبيل بن حسنة ، فجلس إليه فقال : يا خليفة رسول الله ، أتُحدث نفسك أن تبعث إلى الشام جنداً ؟ فقال : نعم ، قد حدثت نفسي بذلك ، وما أطلعت عليه أحداً . وما سألتني عنه إلا لشيء . قال : أجل ، إني رأيت يا خليفة رسول الله فيما يرى النائم كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشَفَة[1] من الجبل ، ثم أقبلتَ تمشي حتى صعدت فيه من القِنان العالية ، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك ، ثم إنك هبطت من تلك القنان إلى أرض سهلة دمثة ، فيها الزرع والقرى والحصون ، فقلتَ للمسلمين : شُنّوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة ، فشدّ المسلمون وأنا فيهم معي راية ، فتوجهت بها إلى أهل قرية ، فسألوني الأمان فأمنتهم ثم جئت ، فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم ، ففتح الله لك ، وألقوا إليك السَّلَم . ووضع الله لك مجلساً فجلستِ عليه ، ثم قيل لك يفتح الله عليك وتُنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته ، ثم قرأ ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْح ﴾ إلى آخرها . ثم انتبهتُ ، فقال له أبو بكر : نامت عيناك ، خيراً رأيت ، وخيراً يكون إن شاء الله ، ثم قال : بشَّرت بالفتح ونعيتَ إلي نفسي ، ثم دمعت عينا أبي بكر ثم قال : أما الخرشفة التي رأيتنا نمشي عليها حتى صعدنا إلى القنّة العالية ، فأشرفنا على الناس ، فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه ، ثم نعلو بعدّ ويعلو أمرنا ، وأما نزولنا من القنة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزرع والعيون والقرى والحصون فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب

---

(١) الخرشفة : الأرض الغليظة . اللسان : « خرشف »

والمعاش . وأما قولي للمسلمين : شنوا على أعداء الله الغارة ، فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة فإن ذلك دنوّ المسلمين إلى بلاد المشركين ، وترغيبي إياهم على الجهاد والأجر والغنيمة التي تقسم لهم [٦٥ / ب] ، وقبولهم . وأمّا الراية التي كانت معك ، فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها ، واستأمنوا فأمّنتهم فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك . وأما الحصن الذي فتح الله لي ، فهو ذلك الوجه الذي يفتح الله لي ، وأما العرش الذي رأيتني عليه جالساً فإن الله يرفعني ويضع المشركين . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ورَفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْش ﴾[1] وأما الذي أمرني بطاعة الله وقرأ علي السورة فإنه نعى إلي نفسي ، وذلك أن النبي ﷺ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السورة ، وعلم أن نفسه قد نُعيت إليه ، ثم سالت عيناه فقال : لآمرنّ بالمعروف ولأنْهَيَنّ عن المنكر ولأجهدَنّ فيمن ترك أمر الله ، ولأجهزنّ الجنود إلى العادلين[2] بالله في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا : الله أحد أحد لا شريك له ، أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . هذا أمر الله وسنّة رسول الله ﷺ ، فإذا توفاني الله عزّ وجلّ لا يجدني الله عاجزاً ولا وانياً ولا في ثواب المجاهدين زاهداً . فعند ذلك أمّر الأمراء . وبعث إلى الشام البعوث

وعن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي قال :

لما أراد أبو بكر غزو الروم دعا علياً وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه . قال عبد الله بن أبي أوفي وأنا فيهم فقال : إن الله عزّ وجلّ لا تُحصى نعماؤه ولا يبلغ جزاءها الأعمالُ ، فله الحمد ، قد جمع اللهُ كلمتَكم وأصلح ذاتَ بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا به ولا تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأبٍ ، وقد رأيتُ أن أستنفر [٦٦ / أ] المسلمين إلى جهاد الروم بالشّام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا مع أن للمسلمين في ذلك الحظ[3] الوافر لأنه من هلكَ منهم هلك شهيداً . وما عند الله خيرٌ للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين ، وهذا رأيي الذي رأيت ، ما شار امرؤ علي برأيه ، فقام عمر بن

(١) سورة يوسف ١٢ / ١٠٠

(٢) عدل بالله أي أشرك وجعل له مثلاً . النهاية : « عدل »

(٣) اللفظة مستدركة في الهامش

الخطاب فقال : الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه . والله ما استبقْنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، ﴿ ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾[1] قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت . فما قضى أن يكون حتى ذكرته ، فقد أَصَبْتَ أصابَ الله فيك سبيلَ الرشاد ، سرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابعث الرجال بعد الرجال ، والجنود تتبعها الجنود . فإن الله ناصر دينه ، ومعزّ الإسلام وأهله .

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام فقال : يا خليفة رسول[2] الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حديد وركن شديد ، ما أرى أن تقحم عليهم إقحاماً . ولكن نبعث الخيل فنغير في قواصي أرضهم ثم نرجع إليك . فإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضروا بهم وغنموا من أدنى أرضهم فقووا بذلك على عدوهم ، ثم تبعث إلى أراضي أهل اليمن وأقاصي ربيعة ومضر ثم تجمعهم جميعاً إليك ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم ثم سكت وسكت الناس . قال : فقال لهم أبو بكر : ماذا ترون ؟ فقال عثمان بن عفان : إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين شفيق عليهم ، فإذا رأيت رأياً تراه لعامّتهم صلاحاً فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين . فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عُبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار : صدق عثمان ، ما رأيتَ [٦٦ / ب] من رأيٍ فأمْضِهِ ، فإنا لا نخالفك ، ولا نتهمك . وذكروا هذا وأشباهه ، وعليٌّ في القوم لم يتكلم . قال أبو بكر : ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك إن سرتَ إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرتَ عليهم إن شاء الله فقال : بشرّك الله بخير ! ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون . فقال : سبحان الله ما أحسن هذا الحديث . لقد سررتني به سرّك الله .

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس فذكر الله بما هو أهله وصلى على نبيه ﷺ ثم قال : أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأكرمكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على كل دين فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمّرٌ عليكم أمراء ، وعاقد لكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم لتحسُن نيتكم وشربكم وأطعمتكم . فـ ﴿ إنَّ اللهَ مَعَ الّذِينَ

(١) المائدة ٥ / ٥٤

(٢) الكلمة مستدركة في هامش الأصل .

اتَّقَوْا والّـذينَ هُمْ مُحْسِنُـون ﴾[1] فسكت القـوم ، فـو الله مـا أجـابـوا فقـال عمر : يـا معشر المسلمين ، مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله ﷺ وقـد ﴿ دَعَـاكُم لِمـا يُحْيِيْكُم ﴾[2] . أمـا إنـه ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وسَفَراً قاصِداً﴾[3] لابتـدرتموه . فقـام عمرو بن سعيـد فقـال : يـا بن الخطاب ، ألنا تضرب الأمثال أمثال المنافقين ؟! فما منعـك مما عِبت علينـا فيـه أن تبتـدئ به ؟! فقال عمر : إنه يعلم أني أجيبه لو يدعوني ، وأغزو لو يغزيني . قال عمرو بن سعيـد ، ولكن نحن لا نغزو لكم إن غـزونـا ، إنمـا نغـزو لله . فقـال عمر : وفّقـك الله فقـد أحسنت . فقال أبو بكر لعَمرو : اجلس رحمك الله فإن عمر لم يُرد بما سمعت أذى مسلم ولا تأنيبه ، إنمـا أراد بما سمعت أن ينبعث المتثاقلون إلى الأرض إلى الجهـاد [٦٧ / أ] فقـام خـالـد بن سعيـد فقال : صدق خليفـة رسول الله ﷺ . اجلس ابن أخي . فجلس . وقـال خـالـد : الحمـد لله الـذي لا إلـه إلا هو الـذي بعث محمـداً بـالهـدى ودين الحق ليظهره على الـدين كلـه ولو كره المشركون . فالله مُنجز وَعْده ومُظهر دينه ومُهلِـك عـدوّه ، ونحن غير مخـالفين ولا مختلفين ، وأنت الوالي النـاصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنـا ونطيعـك إذا أمرتنـا . ففرح بمقـالتـه أبو بكر وقال : جزاك الله خيراً من أخ وخليل ، فقد كنت أسلمت مرتغبـاً وهـاجرت محتسبـاً ، وقـد كنت هربت بـدينـك من الكفـار لكيمـا يطـاع الله ورسولـه وتعلو كلمتـه ، وأنت أمير الناس ، فسر يرحمك الله ثم إنـه نزل ، ورجع خـالـد بن سعيـد فتجهز ، وأمر أبو بكر بلالاً فـأذّن في النـاس أن انفروا أيهـا النـاس إلى جهـاد الروم بـالشـام ، والنـاس يرون أن أميرهم خالد بن سعيـد ، وكان النـاس لا يشكون أن خـالـد بن سعيـد أميرهم ، وكان أول خلق الله عسكر ، ثم إن النـاس خرجـوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين وثـلاثين وأربعين وخمسين ومئـة ، كل يـوم ، حتى اجتمع أنـاس كثير . فخرج أبـو بكر ذات يـوم ، ومعـه رجـال من الصحابة حتى انتهى إلى عسكرهم فرأى عدة حسنة لم يرض عدتها للروم ، فقـال لأصحـابـه : ما ترون في هؤلاء ؟ أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العـدة لجموع بني الأصفر . فقال لأصحابه : ماذا ترون فقـالوا : نحن نرى مـا رأى عمر ، فقـال : ألا

---

(١) سورة النحل ١٦ / ١٢٨

(٢) سورة الأنفال ٨ / ٢٣

(٣) سورة التوبة ٩ / ٤٢

أكتب كتاباً إلى أهل[1] اليمن ندعوهم إلى الجهاد فنرغبهم في ثوابه ، فرأى ذلك جميع أصحابه . قالوا : نِعْم ما رأيت . افعل . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من خليفة رسول الله ﷺ إلى من قرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن : سلام عليكم [٦٧ / ب] فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والجهاد فريضة مفروضة ، والثواب عند الله عظيم ، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام وقد سارعوا إلى ذلك . وقد حسُنت في ذلك نيّتهم وعظُمت حِسبتهم ، فسارِعوا عبادَ الله إلى ما سارعوا إليه ولتحسن نيتكم فيه ، فإنكم إلى إحدى الحسنيين ، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله تبارك وتعالى لم يرض من عباده بالقول دون العمل ، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق ويُقِروا بحكم الكتاب . حفظ الله لكم دينكم ، وهدى قلوبكم ، وزكا أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين . وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك رضي الله عنه .

قال ابن حزم :

ولما أجمع أبو بكر أن يبعث الجيوش إلى الشام كان أول من سار من عماله عمرو بن العاص وأمره أن يسلك على أيلة عامداً لفلسطين ، فقدم عمرو أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار . وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمشي إلى جنب راحلة عمرو بن العاص وهو يوصيه ويقول : يا عمرو اتق الله في سرّ أمرك وعلانيته . واسْتَحْيِه فإنه يراك ويرى عملك ، وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقة منك ، ومن كان أعظم غناء عن الاسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله . وكن والداً لمن معك ولا تكشفن الناس عن أستارهم ، واكتف بعلانيتهم . وكن مجداً في [٦٨ / أ] أمرك ، واصدُق اللقاء إذا لاقيت ، ولا تجبن ،

---

(١) استدركت اللفظة في هامش الأصل وبجانبها « صح » .

وتقدم في الغلول وعاقب عليه ، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . في وصيةٍ له طويلة وعهدٍ عهده إليه يعمل به .

وفي رواية :

قال أبو بكر لعمرو بن العاص : إني قد استعملتك على مَن مررت به من بليّ وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب ، فاندبهم إلى الجهاد في سبيل الله ورغّبهم فيه ، فمن تبعك منهم فاحمله وزوّده . ورافق بينهم ، واجعل كل قبلية على حدتها ومنزلتها .

وبعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثلاثة أمراء إلى الشام : عمرو بن العاص . ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة . فكان عمرو هو الذي يصلي بالناس إذا اجتمعوا ، وإن تفرقوا كان كل رجل منهم على أصحابه . وكان أمر الناس إلى عمرو بن العاص يوم أجنادين ويوم فحل ، وفي حصار دمشق حتى فتحت .

ورد في الأصل : فحل بكسر الحاء . قال : والمحفوظ بسكونها .

ولما رأى عمرو بن العاص كثرة الجموع بالشام كتب إلى أبي بكر يذكر أمر الروم وماجمعوا ويستمده ، فشاور أبو بكر من عنده من المسلمين . فقال عمر بن الخطاب : يا خليفة رسول الله ﷺ : اكتب إلى خالد بن الوليد ، يسير بمن معه إلى عمرو بن العاص فيكون له مدداً ، ففعل أبو بكر . وكتب إلى خالد بن الوليد . فلما أتاه كتاب أبي بكر قال : هذا عمل عمر . حسدني على فتح العراق . وأن يكون على يدي ، فأحب أن يجعلني مدداً لعمرو بن العاص وأصحابه فأكون كأحدهم فإن كان فتح شركنا فيه ، أو أن أكون تحت يدي بعضهم فإن كان فتح كان ذكره له دوني ، وكتب أبو بكر الصديق إلى عمرو بن العاص أني كتبت إلى خالد بن الوليد يسير إليك مدداً لك ، فإذا قدم عليك فأحسن مصاحبته ، ولا تَطاوَل عليه ، ولا تقطع الأمور دونه لتقديمي إياك عليه ، وعلى غيره . شاورهم ولا تخالفهم .

وعن موسى بن عقبة [٦٨ / ب] قال :

ثم بعث أبو بكر ثلاثة أمراء إلى الشام : خالد بن سعيد على جند ، وعمرو بن العاص السهمي على جند ، وشُرحبيل بن حسنة على جند . ثم نزع خالد بن سعيد وأمّر على جنده

يزيد بن أبي سفيان ، فأدركه بذي المروة[1] ، فكأن عَمْراً وجَد على خالد بن سعيد . ولما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة جاءه كتاب أبي بكر يأمره بالمسير إلى الشام ، فمضى خالد على وجهه وسلك على عين التمر[2] فمرّ بدُومة فأغار عليها فقتل بها رجالاً ، وهزمهم وسبى ابنة الجودي ، ثم مضى حتى قدم الشام وبه يومئذ أبو عبيدة بن الجراح على جند ، ويزيد بن أبي سفيان على جند ، وعمرو بن العاص على جند وشرحبيل بن حسنة على جند ، فقدم عليهم خالد بن الوليد فأمدّهم يوم أجنادين وهزم الله عدوّه .

وحجّ أبو بكر في خلافته سنة ثنتي عشرة . فلما قفل من الحج جهز الجيوش إلى الشام فبعث عمرو بن العاص قِبلَ فلسطين ، فأخذ الطريق المُغرّبة على أيلة ، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا التبوكية من علياء الشام . ولما بعث أبو بكر الجيوش لقتال أهل الردة وأتته وفود العرب مُقرّة بما كانت أنكرت راجعةً إلى ما كانت خرجت منه ، ورأى أبو بكر حسن خلافة ربه نبيه ﷺ في تركته وجماعة أمته ومنّه عليهم بنصره وكفايته مؤونته على كل مرتدٍ ومرتاب ، وقوته عليهم جميعاً واجتماع كلمتهم على الإيمان بالله والعمل بفرائضه دعاهم إلى جهاد قيصر وكسرى ومن يليهما من أهل ملكهما ، وإقامة فريضة الله عليهم بذلك ، والعمل بسنّةِ رسول الله ﷺ فيما كان من مسيره بنفسه وجماعة أمته إلى قيصر ومن يليهم ، فأجابه إلى ذلك جماعة من المهاجرين والأنصار [٦٩ / أ] ومهاجرة الفتح وأمداد أهل العالية واليمن فاجتمع له منهم أربعة وعشرون ألفاً . وولّى عليهم الأمراء ، وعقد لهم الألوية وجهزهم بما قدر عليه من الأموال والظهر . ولم يرض ببعثه السرايا ولا الاقتصار عليها فمضَوْا لما وجّهم له ، فوليهم الله بحسن الصحبة في العاقبة وسعة الرزق والتمكين في البلاد والنصر والفَلْج والظهور على من تعرّض قتالهم بأجنادين ثم فحْل ثم مرج الصفر ثم نزلوا على دمشق وحاصروا أهلها .

وأمر أبو بكر خالداً أن ينزل تيماء ولا يبرحها ، وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه وألا يقبل إلا ممن لم يرتدّ ، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . فأقام واجتمع إليه جموع كثيرة . وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم ،

---

(١) ذو المروة : قرية بوادي القرى ، وقيل بين خُشُب ووادي القرى . معجم البلدان .

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة ، افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ هـ . معجم البلدان .

فكتب خالد بن سعيد[1] إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ، ونفر إليهم من بَهراء وكلب وسلح وتنوخ ولخم وجُذام وغسان من دون زَيْزاء[2] بثلاث ، فكتب إليه أبو بكر أن أقدِم ولا تُحجم ، واستنصِر الله ، فسار إليهم خالد . فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم . فنزله خالد . ودخل عامّة مَن كان تجمع له في الإسلام .

وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك . فكتب إليه أبو بكر : أقدِم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك ، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء وفيمن لحق به في طرف الرمل حتى نزلوا فيما بين آبِل[3] وزَيْزاء والقسطل[4]، فسار إليه بطريقٌ من بطارقة الروم يدعى باهان ، فهزمه وقتل جنده . وكتب بذلك إلى أبي بكر واستنفره . وقدم على أبي بكر أوائل مستنفَري اليمن ومَن بين مكة وبين اليمن وفيهم ذو الكلاع . وقدم عليه عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو ، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استُبدل ، [٦٩ / ب] فكلهم استبدل ، فسمّي ذلك الجيش جيش البدال . وقدموا على خالد بن سعيد ، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام ، وعنّاه أمره . وقد كان أبو بكر رد عمرو بن العاص على عَمَالةٍ كان رسول الله ﷺ ولاها إياه من صدقات سعد هُذيم ، وعذرة ومن لفّهم من جُذام وحَدَس[5] قبل ذهابه إلى عُمان ، فخرج إلى عُمان وهو على عِدة من عمله إذا هو رجع ، فخرج إلى عُمان فأنجز له ذلك أبو بكر . فكتب أبو بكر عند اهتياجه للشام إلى عمرو أني قد كنت رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاّ كَه مرةً وسماه لك أخرى ، مبعثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ فقد وليته ثم وليته وقد أحببت ، أبا عبد الله ، أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك ، فكتب إليه عمرو : إني سهم من سهام الإسلام . وإنك بعد الله للرامي بها ، والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي ، وكتب إلى الوليد نحو ذلك فأجابه بإيثار الجهاد .

---

(١) في الأصل خالد بن أبي سعيد ، وهو تحريف وقد مرّ الاسم قبلاً في ص ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢) زَيزاء : من قرى البلقاء في طريق الحاج . معجم البلدان .

(٣) آبل الزيت بالأردن من مشارف الشام . معجم البلدان .

(٤) القسطل : موضع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة . معجم البلدان .

(٥) في الأصل « جديس » وما هنا عن ابن عساكر ١ / ٤٥٢ وحَدَسٌ بطن عظيم من العرب» القاموس » .

قال سعيد بن المسيب :

لما بعث أبو بكر الجنود نحو الشام : يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة قال : لما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودّعهم حتى بلغ ثَنيّة الوداع فقالوا : يا خليفة رسول الله ، أتمشي ونحن ركبان ؟! فقال : إني احتسبت خُطاي هذه في سبيل الله .[1] وفي رواية : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من اغبرّتْ قدماه في سبيل الله حرّمها الله على النار[1] - ثم جعل يوصيهم فقال : أوصيكم بتقوى الله . اغزوا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه ولا تغُلّوا ولا تغدِروا ولا تجبُنوا ولا تُفسدوا في الأرض ، ولا تعصُوا ما تؤمرون ، فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله فادعوهم إلى ثلاث خصال فإن هم أجابوكم[2] فاقبَلوا منهم وكفّوا عنهم : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن هم أجابوكم[2] فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ثم ادعوهم إلى التحول [٧٠ / أ] من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثلَ ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين ، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم . وإن هم أبَوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم ، إن شاء الله ، ولا تعزِقُنّ نخلاً ولا تحرِقُنّها[3]، ولا تعقروا بهيمة ، ولا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء ، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان في أوساط رؤوسهم أفحاصاً[4]، فإذا وجدتم أولئك فاضرِبوا أعناقهم إن شاء الله .

(١ - ١) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل ، وبعده « صح » .

(٢ - ٢) في الموضعين : « أجابوك » وما هنا عن ابن عساكر ١ / ٤٥٥

(٣) في الأصل « ولا تعزقنها » وما هنا عن المطبوع ١ / ٤٥٦

(٤) أورد ابن الأثير في النهاية وابن منظور في اللسان : « فحص » كلام أبي بكر برواية (مفاحص : أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنساناً بشدة الغي والانهماك في الشر قالوا : قد فرّخ الشيطان في رأسه وعشش في قلبه فذهب بهذا القول ذلك المذهب)

قال ابن اسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير وقال لي :

هل تـدري لم فرّق أبـو بكر وأمر بقتـل الشمامسـة ونهى عن قتـل الرهبـان ؟ فقلت : لا أراه إلا لحبس هؤلاء أنفسهم ، فقـال : أجل ، ولكن الشمامسة يلقون القتـال فيقـاتلون ، وان الرهبـان رأيهم ألا يقـاتلوا . وقـد قـال تعـالى : ﴿ وقـاتِلُوا في سبيـل اللهِ الّـذينَ يقاتلونكم ﴾[1].

وقال اسحاق بن أبي فروة

إن خالداً ومن معه هبطوا من ثنيّة الغوطة ، تقدَمهم راية رسول الله ﷺ السوداء التي يقال لها العُقاب ، فبها سميت يومئذ ثنيّة العقاب .

قال ابن اسحاق :

وسار خالد حتى أغار على غسان بمرج راهط ثم سار حتى نزل على قناة بصرى ، وعليهـا أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيـد بن أبي سفيـان فـاجتمعوا فرابطوهـا ، حتى صالحت بصرى على أخذ الجزية ، وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في [٧٠ / ب] خلافة أبي بكر .

قال : وصالح خالد في وجهه ذلك أهل تدمر ، ومرّ على حُوّارين[2] فقتل وسبى .

وعن عبد الرحمن بن جُبَير

أن أبا بكر الصديق كان جهّز بعد النبي ﷺ جيوشاً على بعضها شرحبيل بن حسنـة ، ويزيـد بن أبي سفيـان ، وعمرو بن العـاص ، فسـاروا حتى نزلـوا الشـام فجمعت لهم الروم جموعاً عظيمة . فحُدّث أبو بكر بذلك فأرسل إلى خالد بن الوليـد وهو بـالعراق ، وكتب أن انصرف بثلاثة آلاف فارس فـأمـدّ إخوانـك بـالشـام ، والعجل العجل ، فـأقبل خـالـد مُغِـذّاً جواداً ، فاشتق الأرض بمن معـه حتى خرج إلى ضُمَيْر فوجـد المسلمين معسكرين بـالجـابيـة ، وتسامع الأعراب الذين كانوا في مملكـة الروم بخـالـد ففزعوا لـه ، ففي ذلـك يقول قـائلهم : [من الطويل]

---

(١) البقرة ٢ / ١٩٠

(٢) حُوّارين : حصن من ناحية حمص مر عليه خالد بن الوليد . معجم البلدان .

ألا يـا اصبَحِينـا قَبْلَ خَيلِ أبي بَكرِ   لَعَلّ منـايـانـا قَريبٌ ومـا نَـدرِي

فنزل خالـد على شرحبيل بن حسنـة ويزيـد وعمرو فاجتمع هـؤلاء الأربعـة أمراء . وسارت الروم من أنطاكية وحلب وقنسرين وحمص وما دون ذلك ، وخرج هرقل كراهية لمسيرهم متوجهاً نحو الروم وسار باهان الرومي ابن الرومية إلى الناس بمن كان معه .

روى عبد الحميد بن جعفر عن أبيه

أن المسلمين ساروا وعليهم هـؤلاء الأمراء : يـزيـد بن أبي سفيـان وعمرو بن العـاص وأبو عبيـدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنـة . كلٌّ على عسكر ، ومن كانت الـواقعـة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وساروا ، معهم النساء والذرية بالخيل والسلاح ، ليس معهم حمار ولا شاة ، فأخـذوا على طريق فلسطين حتى نزلوا بقريـة يقـال لها : ثـادَن من قرى غزة . ومما يلي الحجاز ، فلقيهم بها بطريقٌ من بطـارقـة الروم فـأرسل إليهم أن يُخرجوا إليـه أحـد القواد ليكلمه . قال : فتواكلوا ذلك وقالوا لعمرو بن العاص : أنت لذلك . فخرج إليه عمرو فرحّب بـه البطريـق ومتّ إليـه بقرابـة العيص [٧١ / أ] بن إسحـاق بن إبراهيم . وقـال : مـا الـذي جـاء بكم ، فقد كانت الآبـاء اقتسمت الأرض ، فصـار لكم مـا يليكم ، وصـار لنـا ما يلينا ، وقد عَرفنا أنكم إنما أخرجكم من بلادكم الجهـد ، وسنـأمر لكم بمعروف ، وتنصرفون . فقال عمرو : أما القرابة فهي على ما ذكرت ، وأما القسمة فإنها كانت قسمـة شططـاً علينـا ، فنحن نريد أن نزاد حتى تكون قسمة معتدلة ، لنأخذ نصف ما في أيديكم من الأنهار والعمارة ونعطيكم نصف مـا في أيـدينـا من الشـوك والحجـارة . وأمـا مـا ذكرت من الجهـد الـذي أخرجنا ، فإنا قدمنا فوجدنا في هذه البلاد شجرة يقال لها الحنطـة ، فذقنـا منها طعـامـاً لا نفـارقكم حتى نصيّركم عبيـداً أو تقتلـونـا تحت أصـول هـذه الشجرة . قـال : فـالتفت إلى أصحابه فقال : صدقوا ، وافترقا ، فاقتتلوا فكانت بينهم معركـة انصرف القوم على حـاميـة ، ومضى المسلمون في آثارهم حتى طووهم عن فلسطين والأردن إلا ما كان من إيلياء وقيسـاريـة تحصّن فيها أناس فتركوهم ومضوا إلى ناحية البثنيّة ودمشق .

وحدث أبو عثمان الصنعاني شُراحيل بن مرثد قال :

بعث أبو بكر الصـديق رضي الله عنـه في خلافتـه خـالـد بن الوليـد إلى أهل اليمامـة ، وبعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام . قـال : فكنت ممن سـار مع خـالـد إلى اليمامـة . فلمـا

قدمنا قاتلنا قتالاً شديداً وظفرنا بهم . وهلك أبو بكر واستخلف عمر بن الخطاب فبعث أبا عبيدة بن الجراح إلى الشام ، فقدم دمشق فاستمد أبو عبيدة عمرَ ، فكتب عمر إلى خالد أن سر إلى أبي عبيدة بالشام فدعا خالد بن الوليد الدليل فقال : في كم نأتي إلى الحيرة ؟ فقال : في كذا وكذا . قال : فعَطّش خالد الإبل ثم سقاها ، واستقى وسقى الخيل ، ثم كعم[1] أفواه الإبل وأدبارها ، وقال له الدليل : إن أنت أصبحت عند الشجرة نجوت ونجا من معك ، وإن أصبحت دون الشجرة فقد هلكت وهلك من معك [٧١ / ب] فسار خالد بمن معه فأصبح عند إضاءة الفجر عند الشجرة فنحر الإبل ، وسقى ما في بطونها الخيل ، وأطعم لحومها المسلمين ، وسقى المسلمين من المزاد التي كانت تُحمل معه ، ثم أتى الحيرة أو الكوفة ، فصالحه أسقفها .

قال ابن عساكر : كذا قال ، وإنما كان هذا بعد رجوعه عن الحيرة . وأبو عبيدة كان بالشام في أيام أبي بكر .

وكان أبو بكر قد وجه خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام حيث وجه خالد بن الوليد إلى العراق وأوصاه بمثل الذي أوصى به خالداً . وإن خالد بن سعيد سار حتى نزل على الشام ولم يقتحم ، واستجلب الناس وعزّ فهابته الروم وأحجموا عنه ، فلم يصبر على أمر أبي بكر ، ولكن تورّدها فاستطردت له الروم حتى أوردوه الصُّفَّرَيْن ثم تعطَّفوا عليه بعدما أمِن ، فوافقوا ابنه سعيد بن خالد مستمطراً فواقعوه فقتلوه ومن معه ، وأتى الخبر خالداً فخرج هارباً حتى أتى البرّ فتنزل منزلاً ، واجتمعت الروم إلى اليرموك فنزلوا به . وقالوا : والله لنشغلَن أبا بكر في نفسه عن تورُّد بلادنا بخيوله . وكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بالذي كان ، فكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص - وكان في بلاد قضاعة - بالسَّير إلى بلاد اليرموك ففعل . وبعث أبا عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وأمر كل واحد منهما بالغارة . وألا تَغلُوا[2] حتى لا يكون وراءكم أحد من عدوّكم . وقدم عليه شرحبيل بن حسنة بفتح من فتوح خالد فسرحه نحو الشام في جند ، وسمّى لكل رجل من أمراء الأجناد كورة من كور الشام ، فتوافوا باليرموك . فلما رأت الروم توافيهم ندموا على الذي ظهر منهم ،

---

(١) كعم البعير : شد فاه لئلا يعض أو يأكل . القاموس « كعم » .

(٢) وغل في الشيء يغل : دخل وتوارى أو بعد وذهب . القاموس : « وغل » .

ونسُوا الـذي كانوا يتواعـدون أبـا بكر بـه ، واهتموا وهَمَّتْهم أنفسهم وأشجوهم وشجوا بهم . ثم نزلوا الواقوصة ، وقال أبو بكر : والله لأنسينّ الروم وسـاوس الشيطـان بخـالـد بن الوليـد . فكتب إليه بالمسير إلى أبي عبيدة بـالشـام ، وأمره أن يستخلف [٧٢ / أ] المثنى بن حـارثـة على العراق في نصف الناس . فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق .

وبعث خالـد بـالأخمـاس إلاّ مـا نفّل منهـا مع عمير بن سعـد الأنصـاري ، وبمسيره إلى الشام ، ودعا خالد الأدلـة ، فـارتحل من الحيرة سـائراً إلى دومـة ثم طعن في البر إلى قراقر ثم قـال : كيف لي بطريقٍ أخرج فيـه من وراء جموع الروم ؟ فـإني إن استقبلتهـا حبستني عن غياث المسلمين ، فكلهم قال : لا نعرف إلا طريقـاً لا تحمل الجيوش يـأخـذه الفـذّ والراكب فإياك أن تُغَرِّر بالمسلمين . فعزم عليه ولم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيئة شديدة . فقال له خالد وللمسلمين : لا يهولنّكم ، فإنا عبـادَ الله ، وفي سبيل الله ، وعلى طـاعـة خليفـة رسول الله ، ونحن وإن كثرنا بعد أن نتزود كالقليل المنكمش ، فنـاشـدوه فثـاب فيهم فقـال : لا يختلفَن هديكم ، ولا يضعفَن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قَدْر النيـة ، والأجر على قَدْر الحِسبة ، وإن المسلم لا ينبغي لـه أن يكترث لشيء يقع فيـه مع معونـة الله لـه ، فقـالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك فطـابقوه ونووا واحتسبوا واشتهوا مثل الـذي اشتهى خالد .

ولمـا سـار خـالـد من الحيرة يَمُـد أهـل الشـام استعمـل على الضعفـاء عمير بن سَعـد ، واستعمل على من أسلم بالعراق المثنى بن حارثة الشيبـاني ، ثم سـار حتى نزل عين التمر وأغـار على أهلهـا ، ورابـط حصونَهـا مقـاتلـةٌ كانت لكسرى وضعهم فيهـا حتى استنزلهم ، فضرب أعنـــاقهم وسبى من عين التمر بشراً كثيراً ، فبعث بهم إلى أبي بكر . وذلـــك أول سبي قـــدم المـدينــة . من ذلــك السبي أبـو عَمرة جــد[1] عبــد الله بن أبي عَمْرة وعبيــد مـولى المعلى وأبو عبيد الله مولى بني زهرة وَخَير مولى أبي داود ويسار مولى قيس بن مخرمة .

قال ابن إسحاق :

وكان فيهم عمير بن زيتـون الـذي ببيت المقـدس ، ويســار مـولى أُبيّ بن كعب ، وهـو أبو الحسن [٧٢ / ب] بن أبي الحسن البصري ، وأفلح مولى أبي أيوب الأنصاري . ووجـدوا في

(١) في الأصل : « أبو » . وما هنا عن تاريخ ابن عساكر ١ / ٤٦٧

كنيسة اليهود صبياناً يتعلمون الكتابة في قريـة من قرى عين التمر يقـال لهـا نُقَيرة[1] . وكان فيهم حمران بن أبـان مـولى عثمان ، وقتـل هـلال بن عطيـة بن بشر النمري وصلبـه . ثم سـار ففوّز من قراقر - وهـو مـاء لكلب - إلى سُـوَى وهـو مـاء لبَهراء بينهما خمس ليـال ، فلم يهتـد الطريق ، فطلب دليلاً فدُل على رافع بن عميرة الطائي ، فأتاه رافع فاستـدلـه على الطريق فقال : انشُدِ الله في نفسك وجيشك ، فإنها مفـازة خمس ليـال ليس فيهـا مـاء مع مضلّتهـا ، وإن الراكب المُنْفرد يسلكها فيخاف على نفسه التهلكة ، وما يسلكها إلا مغرور . ما علمت أحداً أخذ فيها بثَقَل . فقال خالد : إنه لا بد منه . وقد كتب إلي الأمير بعزمه . فـأحضرنـا رأيك ونصيحتك ، ومُرنا بأمرك . قال رافع : فـابغني عشرين من الإبل سمان عظـام ، فـأتي بهن فظمّـأهن حتى جهِـدن ، فـأوردهـا المـاء فشربن حتى تمـلأن ثم أمر بمشـافرهـا فقُطعن ثم كَعمهن كيلا تجترن ، ثم حَلّ أذنابهن ، ثم قال لخـالـد : تزود واحمل مَن أطـاق أن يصرّ على أذن ناقته ماء فليفعل فإنها المهالك ، ففعل ، وساروا فسار معهم وسـار خـالـد معـه بـالخيول والأثقال . فكلما سار يوماً وليلة اقتطع منهن أربعة فأطعم لحمـانهـا . وسقى مـا في أكراشهـا الخيل ، وشرب الناس مـا كانوا حملوا . وبقي منزل واحـد ونفِـدت الإبل وخشي خـالـد على أصحابه في آخر يوم ، فأرسل خالد إلى رافع أن الإبل قد نفدت فما ترى ؟ قال : قد انتهيت إلى الري فلا بأس عليك . اطلبوا شجرة بمثل قعـدة الرجل ، فعنـدهـا المـاء . ورافع يومئـذ رمِد ، فطلبوها فلم يصيبوها فرجعوا إلى رافع ، فقالوا : إنا لم نصبها ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم وهلكتُ لا أبالكم . اطلبوهـا [٧٣ / أ] فطلبوهـا فـأصـابوهـا قـد قطعت الشجرة وقد بقي منها بقية ، فكبّر وكبّر النـاس . فقـال : احتفروا فـاحتفروا عينـاً عـذبـة مروية ، فتزوّدوا وسقوا وحملوا . فقال رافع : إن هذه المفازة ما سلكتها قـط إلا مرة واحـدة مع أبي وأنا غلام .

وفي رواية : فقال رافع . والله ما وردت هذا المـاء مـذ ثلاثين سنـة . فقـال شـاعر من المسلمين : قيل هو أبو أحيحة القرشي[2] : [من الرجز]

لله عينـــــا رافـــعٍ أنّى اهتـــــدى　　　فـــــوّزَ من قَراقرٍ إلى سُـــــوى

خمســاً إذا مــا ســارَهـــا الجِبسُ بكى　　　مــا ســارهـــا من قبلـــه إنس يُرى

(١) في الأصل : « بقير » ونقيرة : قرية من قرى عين التمر . معجم البلدان .

(٢) البيتان في معجم البلدان : « سوى » . وفي الأصل : « سَوَا ، الجيش ، أرى » .

ثم إن خالد بن الوليد أغار على أهل سُوى ، وهو ماء بَهراء ، قبل الصبح ، وهم يشربون شراباً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ومغنيهم يقول : [من الطويل]

ألا علّلاني قَبْلَ جيشِ أبي بكرِ لعلَّ منايانا قريبٌ وما ندرِي

فزعموا أن ذلك المغني قتل تحت الغارة ، فسال دمه في الجفنة .

ثم استقام بخالد الطريقُ فتواصلت به المياه ، حتى إذا أغار على مرج العذراء وبه ناس من غسان فأصاب منهم ، ثم مضى حتى نزل مع أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة على قناة بصرى فنزل معهم حتى صالحت بصرى على الجزية ، وكانت أول جزية وُقّعت بالشام في عهد أبي بكر .

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : أما بعد . فدع العراق وخلّف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه . ثم امض مخففاً في أهل القوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ، ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ما روي من توقع المشركين

لظهور دولة المسلمين

[٧٣ / أ] عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره

أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ[1] فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه ، وهو بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم وترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم به نسباً ، فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه فجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذّبوه ، قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء أن يَأْثُروا عليَّ كذباً لكذّبته عنه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه ملكٌ ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتدّ أحد سَخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول الذي قال ؟ قال : قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها . ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : فماذا يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة وبالصدقة والعفاف والصلة ، فقال : للترجمان قل له : إني سألتك عن نسبه ،

(١) مادّ فيها أي أطال المدة وهي فَاعَلَ من المدّ . النهاية « مدد »

فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت : رجل يَأْتَمُّ بقولٍ قيلَ قَبْلَه . وسألتك : هل كان من آبائه مَلِك ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آبائه مَلِك [٧٤ / أ] قلت : رجل يطلب مُلك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن لِيذَر الكذب على الناس ويكذب على الله عز وجل . وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أنّ ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك : أيرتدّ أحد منهم سَخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب . وسألتك : هل يغدر ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الرسل لا يغدرون . وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً . وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة وبالصدقة والعفاف والصلة ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وهو نبيّ ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظن أنه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دِحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بداعية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإرّيسين[1] ﴿ ياأهلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم ألاّ نعبد إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ به شَيْئاً ﴾[2] الآية .

قال أبو سفيان : فلما قال ماقال وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخبُ وارتفعت الأصواتُ وأُخرجْنا ، فقلتُ لأصحابي حين أُخرجنا : لقد أَمِرَ[3] أمرُ ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملكُ بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ

(١) قال ابن الأثير : « اختلف في هذه اللفظة صيغة ومعنى » فقيل هم الخدم والخول لصده إياهم عن الدين وقيل : فرقة من قوم هرقل قتلت نبيها . وقيل الملوك . وقيل العشارون . النهاية واللسان : « أرس » .

(٢) آل عمران ٣ / ٦٤

(٣) أي كثر وارتفع شأنه . يعني النبي ﷺ النهاية : « أمر » .

الإسلامَ ، وكان ابن قاطور وهو صاحب إيلياء وهرقل سَقّفَه على نصارى الشام يحدث [٧٤ / ب] أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيثَ النفس ، فقال له بعض بطارقته : لقد أنكرْنا هيئتك ، فقال ابن قاطور : وكان هرقل رجلاً حزاء ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الليلةَ حين نظرتُ في النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمم ؟ قالوا : ليس يختتن غير اليهود ، فلا يهمنَّك شأنهم واكتبْ إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود ، فبيناهم على أمرهم ذلك أتي هرقل برجلٍ أرسل به ملك غسان يخبّره عن خبرَ رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا مختتنٌ هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدّثوه أنه مختتنٌ ، فسأله عن العرب أيختتنون ؟ فقال : نعم هم يختتنون ، فقال هرقلُ : هذا ملكُ هذه الأمة قد ظهر ، فكتب هرقل إلى صاحبٍ لـه برُوميّةَ ، وكان نظيرَه في العلم ، وسار هرقل إلى حمص ، فلم يرِم حمص حتى أتاه كتابٌ من صاحبه يوافقُ هرقل على خروج رسول الله ﷺ وأنه نبيٌّ ، فأذِنَ هرقل لعظماءِ الروم في دسكرةٍ لـه بحمص ثم أمر بأبوابها فغلّقتْ ثم اطلع فقال لهم : يا معشر الروم هل لكم في الفلاحِ والرشد وأن يثبت ملككم ؟ تتبعوا هذا الرجل . فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أُغلقتْ ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيِسَ من إيمانهم فقال : ردّوهم عليَّ ، وقال : إني إنما قلت مقالتي التي قلتُ لكم آنفاً أختَبر بها شدَّتكم على دينكم فقد رأيتُ الذي أحبُّ فسجدوا لـه ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأنِ هرقل .

المحفوظ ابن الناظور ، ويقال بالطاء المهملة .

وقد كان أميرُ جند الروم باليرموك قد بعثَ عيناً من عرب الشام فدخل على المسلمين عسكرهم ، فرجع إليه فأخبرهم أنهم بالليل رهبانٌ وبالنهار فرسانٌ ، هم فيما بينهم كالعبيد وعلى مَنْ سواهم كالأسود ، إذا قالوا صدقوا ، وإذا عاهدوا أَوْفَوْا ، يأخذون لله حقوقَه ولو من [٧٥ / أ] أنفسهم ، فقال : أفٌّ لك ، لئن كنتَ صادقاً لَلْموتُ خيرٌ من الحياة ، ولَيرَنَّ علينا منهم شرٌّ طويل .

وفي رواية : ولو سرق ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رَجموه .

وقد كان هرقل قبل مَهْزم خالد بن سعيد حجّ بيت المقدس ، فبينما هو مقيمٌ به أتاه الخبرُ بقرب الجنود منه ، فجمع الرومَ وقال : أرى من الرأي أن لا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن

تصالحوهم فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشامُ ، وتأخذون نصفاً ، وتبقى لكم جبالُ الروم خيرٌ لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم ، فنخر أخوه ونخر ختنه وتصدَّع عنه من كان حوله . فلما رآهم يعصونه ويردّون عليه بعث أخاه وأمَّر الأمراء ووجه إلى كل جند جنداً ، فلما اجتمع المسلمون أمرهم بمنزلٍ جامعٍ واسعٍ حصينٍ ، فنزلوا بالواقوصة وخرج فنزل حمص . فلما بلغه أن خالداً قد طلع على سُوى فانتسف أهله وأمواله وعمد إلى بصرى فافتتحها وأباح عذرا قال لجلسائه : ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوامَ لكم مع هؤلاء القوم ، إن دينَهم دينٌ جديد يجدد لهم ثِبارهم[1] ولا يقوم لهم أحد حتى يبلى ، فقالوا له : قاتلْ عن دينك ولا تجبّن الناس واقضِ الذي عليك . قال : وأي شيء أطلب بهذا إلا توفير دينكم ؟ ولما نزلت جنود المسلمين اليرموك بعث إليه المسلمون : إنا نريد كلام أميركم وملاقاته ، أفَتَدَعونا نأتيه نكلمه ، فأبلغوه فأذن لهم فأتاه أبو عبيدة كالرسول ويزيد بن أبي سفيان كالرسول والحارث بن هشام وضرار بن الأزور وأبو جندل بن سهيل ، ومع أخي الملك يومئذ في عسكره ثلاثون رواقاً وثلاثون سرادقاً كلها من ديباج ، فلما انتهوا إليها أبَوْا أن يدخلوا عليه فيها ، وقالوا : لا نستحلُّ الحرير فابرز لنا فنزل إلى فُرشٍ له ممهدةٍ وبلغ ذلك هرقل فقال : ألم أقلْ لكم هذا أوّل الذّل . أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشؤوم ، ولم يتأتَّ بينهم وبين المسلمين صلحٌ فرجع أبو عبيدة وأصحابه واتعدوا ، فكان القتال حتى جاء الفتح .

[٧٥ / ب] حدث رجلان من غسان ، قال[2] :

لما كان المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر ، فقال أحَدنا لصاحبه : هل لك أن ندخل المدينة فنتبيّن من سوقها قبل حصارها ، فبينا نحن فيها نتسوق إذ أتانا رسول بِطْريقها اصطُراخيه ، فذهب بنا إليه ، فقال : أنتما من العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : وعلى النصرانية ؟ قلنا : نعم ، قال : ليذهب أحدُكما إلى هؤلاء فليتحسسْ لنا من خبرهم ورأيهم ، وليثبُت الآخر على متاع صاحبه ، ففعل ذلك أحدنا فلبث لبثاً ثم جاءه فقال : جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً[3] ، أما الليل فرهبان ، وأما

(١) في القاموس « ثبر » : « وهو على ثِبارِ أمر ، ككتاب ، على إشراف من قضائه » .

(٢) أي قال الراوي يحيى بن يحيى الغساني .

(٣) في الأصل : « عتاق » . وفوق اللفظة ضبّة . إشارة إلى الصواب الذي أثبتنا .

النهار فرسان ، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثاً مافهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر ، فالتفت إلى أصحابه فقال : أتاكم منهم مالا طاقةَ لكم به .

قال ابن إسحاق :

كان أصحاب الرسول ﷺ لا يثبت لهم العدو فُواقاً[1] عند اللقاء ، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمةُ الروم ، قال لهم : أخبروني وَيْلكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا هم بشرٌ مثلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ، قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : فما بالكُمْ تُهْزَمون كلما لقيتموهم ، فقال شيخٌ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون بالليل ، ويصومون بالنهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ، ونأمر بما يُسخط الله وننهى عما يرضي الله ، ونفسد في الأرض . قال : أنت صدقْتَني .

---

(١) الفواق : ما بين الحلبتين من الراحة للناقة ـ النهاية : « فوق »

ذكر ظفر جيش المسلمين
بأجنادين وفحل ومرج الصُفّر

قال ابن شهاب :

كانت وقعةُ أجنادين وفحل في سنة [٧٦ / أ] ثلاث عشرة : أجنادين في جمادى ، وفحل في ذي القعدة .

قالوا :

وكانت وقعة أجنادين يوم السبت صلاة الظهر لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة .

قال ابن إسحاق :

استُخلف عمر على رأس اثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً من مهاجرَ رسول الله ﷺ ، وكان الناس بالشام إلى خالد بن الوليد ، والأمراء على منازلهم ، فساروا قِبَل فحْل من الأردنّ ، وكانت فحْل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، وعلى رأس ستة أشهر من خلافة عمر ، [1]وقيل إن فحل كانت في رجب[1]

قال الواقدي :

وفي سنة أربع عشرة كان فتح مرج الصّفّر ، فأقام المسلمون بها خمس عشرة من المحرم ، وفيها زحف المسلمون إلى دمشق في المحرم فحاصروها ستة أشهر إلا يوماً .

وقال ابن إسحاق :

وقعة مرج الصفر يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، والأمير خالد بن الوليد .

(١ ـ ١) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل

حدث سعيد وابن جابر قالا :

ثم كانت بعد أجنادين وقعة مرج الصُفَّر . قال سعيد : التقوا على النهر عند الطاحونة ، فقُتلت الروم يومئذ حتى جرى النهر ، وطحنت طاحونتها بدمائهم ، فأنزل الله على المسلمين نصرَه ، وقتَلَتْ يومئذ أمٌ حكيم أربعةً من الروم بعمود فسطاطها .

حدث عبد الله بن عَمرو بن العاص في بيت المقدس ، قال :

شهدنا أجنادين ونحن يومئذ عشرون ألفاً ، وعلى الناس يومئذ عمرو بن العاص ، فهزمهم الله . ففاءت فئة إلى فحْل في خلافة عمر . فسار إليهم في الناس عمرو بن العاص فنفاهم إلى فحل . فأهل الشام قاطبة وعامة رواتنا يقولون إن أجنادين كانت قبل فحْل ، وهي في ولاية أبي بكر ، وكانت فحل في ذي القعدة في خلافة عمر على رأس خمسة أشهر من خلافته . وكانت أجنادين أول وقعة بين المسلمين والروم نصر الله المسلمين ، وهي إحدى ملاحم الروم التي أُبيروا فيها .

قال الواقدي :

كانت أجنادين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وبُشِّر بها أبو بكر رضي الله عنه وهو بآخر رمق .

قال :

ومضى خالد بن الوليد إلى أصحابه حتى نزل على قناة بصرى ، فيجد الأمراء مقيمين [٧٦ / ب] لم يفتحوا شيئاً قال : مامقامكم بهذا الموضع ؟ انهضوا ، فنهضوا بأهل بصرى فما أمْسَوا ذلك اليوم حتى دَعَوْا إلى الصلح فصالحوهم وكتبوا بينهم كتاباً ، فكانت أولَ مدينة فتحت من الشام صلحاً . وفيها مات سعدُ بن عبادة ، وكان فتحها لخمسٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ، وأهل الشام يقولون : إن فحل كانت قبل فتح دمشق .

وذكر سيف بن عمر التميمي :

أنها كانت بعد فتح دمشق . والله أعلم .

وخلف الناس بعد فتح دمشق يزيد بن أبي سفيان في خَيْله في دمشق وساروا نحو فحل ، فكان على الناس شُرحبيل بن حَسَنَة ، فبعث خالداً على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مُجَنِّبَتَيه ، وعلى الخيل ضرار ، وعلى الرَّجْل عياض ، وكرهوا أن يصمدوا لهرقل وخلفهم

ثمانون ألفاً ، وعلموا أن بإزاء فحل جندَ الروم وإليهم ينظرون ، وأن الشام بعدهم سَلْم ، فلما انتهوا إلى أبي الأعور قدّموه إلى طبرية فحاصروهم ، ونزلوا على فحل من الأردن ، وقد كان أهل فحل حين نزل بهم أبو الأعور تركوه وأرَزوا إلى بيسان فنزل شرحبيل بالناس فحلاً ، والروم ببيسان ، وبينهم[1] وبين المسلمين تلك المياه والأوحال ، وكتبوا إلى عمر بالخبر ، وهم يحدثون أنفسهم بالمقام ولا يريدون أن يريموا فحل حتى يرجع جواب كتابهم من عند عمر ، ولا يستطيعون الإقدام على عدوهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال ، وكانت العرب تسمي تلك الغزاة فحل ، وذات الرَّدْغة[2] وبيسان . وأصاب المسلمون من ريف الأردن أفضل ما [ترك][3] فيه المشركون : مادتهم متواصلة ، وخصبهم رغد ، فاغترهم القوم ، وعلى الروم سقلار بن مخراق ، ورجّوا أن يكونوا على غرة فأتوهم والمسلمون لا يأمنون مجيئهم فهم على حذر ، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة . فلما هجموا على المسلمين فغافصوهم[4] فلم يناظروهم ، فاقتتلوا بفحل كأشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل فأظلم عليهم [٧٧ / أ] الليل وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى وقد أصيب رئيسهم سقلار بن مخراق والذي يليه فيهم نسطورس ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهناه ، وركبوهم وهم يرون على أنهم على قصد وجدد ، فوجدوهم حيارى لا يعرفون ما حدّهم ، فأسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فركبوه ، ولحق أوائل المسلمين بهم وقد وحلوا ، فركبوهم وما يمنعون يد لامسٍ فوخزوهم بالرماح فكانت الهزيمة في فحل ، وكانت مقتلتهم في الرِّدَاغ ، فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت إلا الشريد ، وكان الله عز وجل يصنع للمسلمين وهم كارهون . كرهوا البُثوق فكان عوناً لهم على عدوهم وأناة من الله عزّ وجلّ ليزدادوا بصيرة ، وجدّوا واقتسموا ما أفاء الله عز وجل عليهم ، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فحل إلى حمص ، وصرفوا بشير بن كعب من اليرموك معهم ، ومضوا بذي كلاع ومن معه ، وخلفوا شرحبيل ومن معه .

---

(١) استدركت اللفظة في هامش الأصل .

(٢) الرَّدْغ والرَّدْغَة والرَّدَغَة : الماء والطين والوحل الكثير الشديد . والجمع رِداغ . اللسان : « ردغ »

(٣) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ١ / ٤٨٦

(٤) غافص الرجل مغافصة وغِفاصاً : أخذه على غِرة فركبه بمساءة . اللسان : « غفص »

باب كيف كان أمر دمشق في الفتح

فتحت دمشق في سنة أربع عشرة في رجب[1] ، وقدم عمر بن الخطاب الشام سنة ست عشرة ، فولاه الله فتح بيت المقدس على صلح ثم قفل ، وكانت اليرموك سنة خمس عشرة ، وعلى المسلمين أبو عبيدة بن الجراح .

قال ابن إسحاق :

ثم ساروا إلى دمشق ، على الناس خالد ، وقد كان عمر عزله وأمّر أبا عبيدة ، فرابطوها حتى فتح الله عزّ وجلّ . فلما قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمرته وعزل خالد استحيا أن يقرئ خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق في سنة أربع عشرة في رجب . قال : فأظهر أبو عبيدة إمرته وعزل خالد ثم شتّى أبو عبيدة شتيته ـ وفي نسخة : شتيه ـ بدمشق .

قال ابن الكلبي :

كان الصلح يوم الأحد النصف من رجب سنة أربع عشرة ، صالحهم أبو عبيدة بن الجراح . وقد حاصرهم أبو عبيدة رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وتم الصلح في ذي القعدة . ومنهم من قال : [٧٧ / ب] حاصروها أربعة عشر شهراً .

قال أبو عثمان الصنعاني :

لما فتح الله علينا دمشق خرجنا مع أبي الدرداء في مسلحةِ برزة ثم تقدمنا مع أبي عبيدة بن الجراح ففتح الله بنا حمص ، ثم تقدمنا مع شرحبيل بن السمط فأوطأ الله بنا ماء دون النهر ، يعني الفرات وحاصرنا عانات وأصابنا لأواء ، وقدم علينا سلمان في مَدَد لنا .

وقال أبو عثمان أيضاً :

حاصرنا دمشق ، فنزل يزيد بن أبي سفيان على باب الصغير ، ونزل أبو عبيدة بن الجراح على باب الجابية ، ونزل خالد بن الوليد على باب الشرقي ، وكان أبو الدرداء في مسلحةِ برزة ، قال : فحاصرناها أربعة أشهر . قال : وكان راهب دمشق قد طلب من

---

(١) « في رجب » مستدرك في هامش الأصل .

خالد بن الوليد الصلح . قال : فشرط عليه خالد بن الوليد أشياء أبى الراهب أن يجيب إليها . قال : فدخلها يزيد بن أبي سفيان قسراً من باب الصغير حتى ركبها . قال : وذهب الراهب كما هو على الحائط فأتى خالد بن الوليد ولا يعلم خالد أنّ يزيد قد دخلها قسراً . فقال له : هل لك في الصلح ؟ قال : وتجيبني إلى ما شرطت عليك ؟ قال : نعم . فأشهد عليه ففتح له باب الشرقي ، فدخل يزيد فبلغ المقسلاط فالتقى هو وخالد عند المقسلاط ، فقال هذا : دخلتها عنوة . وقال هذا : دخلتها صلحاً فأجمع رأيهم على أن جعلوها صلحاً . قالوا : ونظروا فإذا ما بين باب الشرقي إلى المقسلاط أبعد مما بين باب الصغير إلى المقسلاط .

قال الأوزاعي :

كنت عند ابن سراقة حين أتاه أهل دمشق النصارى بعهدهم فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق ، إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تُسكن ولا تُهدم ، شهد يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وقضاعي بن عامر . وكتب في رجب من سنة أربع عشرة .

قالوا :

ولما نشَّب أصحابُ خالد بن الوليد القتالَ دنا رجل منهم وفي يده اليمنى [٧٨ / أ] سيف ، وفي اليسرى الدَّرَقة فنادى بالبراز فقالوا : ما يقول ؟ قيل : يقول إنه يدعو للمبارزة ، فأنزلوا حبشياً كالبعير مستلئماً ، في سلاحه ، فتدانى فضربه المسلم فقتله ، ثم نادى بالبراز ، فأنزلوا إليه صاحب بَدهم ، أجلسوه على بابٍ دلّوه فتدانى فضربه المسلم فقتله ، ثم نادى بالبراز ، فقال : قل للشيطان يبارزك .

وقيل

إن أبا عبيدة بن الجراح دخلها من باب الجابية بالأمان ، ودخل خالد بن الوليد من باب الشرقي عنوة بالسيف يقتل ، فالتقيا عند سوق الزيت فلم يدروا أيّهما كان أوّل العَنوة أو الأمان ، فاجتمعوا فقالوا : والله لئن أخذنا ما ليس لنا سفكنا الدماء وأخذنا الأموال لَنَأْثَمَنَّ ، ولئن تركنا بعض مالنا لا نأثم . قال : فاجتمعوا على أن أمضوه صلحاً .

قال عباس بن سهل بن سعد :

تولى أبو عبيدة حصار دمشق ، وولى خالد بن الوليد القتال على الباب الذي كان عليه

وهو الباب الشرقي ، فحاصر دمشق بعد موت أبي بكر حولاً كاملاً وأياماً ، ثم إنه لما طال على صاحب دمشق انتظار مَدَد هرقل ورأى المسلمين لا يزدادون إلا كثرة وقوة ، وأنهم لا يفارقونه أقبل يبعث إلى أبي عبيدة بن الجراح يسأله الصلح ، وكان أبو عبيدة أحبّ إلى الروم وسكان الشام من خالد ، وكان يكون الكتاب منه أحبّ إليهم ، فكانت رسل صاحب دمشق إنما تأتي أبا عبيدة بن الجراح وخالد يلح على أهل الباب الذي يليه فأرسل صاحب الرجال[1] إلى أبي عبيدة فصالحه ، وفتح له باب الجابية ، وألح خالد بن الوليد على الباب الشرقي ففتحه عنوة ، فقال خالد لأبي عبيدة : اسْبِهم فإني قد فتحتها عنوة ، فقال أبو عبيدة إني قد أمنتهم فتم لهم أبو عبيدة الصلح ، وكتب لهم كتاباً وهذا كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم ، [٧٨ / ب] إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا ، إنا شرطنا لك على أنفسنا ألا نُحدِث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاّية[2] ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها ما كان في خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، ولا نؤوي فيها ولا في منازلها جاسوساً ، ولا نكتم على من غشّ المسلمين ، وعلى ألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا في طرق المسلمين ، ولا نخرج باعُوثاً[3] ولا شعانين[4] ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر

(١) فوق اللفظة ضبة ، لعل الصواب : صاحب دمشق الرجال .

(٢) في اللسان : « قلى » « القَلِيَّة كالصومعة ، قال ابن الأثير : واسمها عند النصارى قلاّية : تعريب كلاذة ، وهي من بيوت عباداتهم » .

(٣) في كتب اللغة القديمة أن الباعوث ـ وقيل الباغوت ـ للنصارى كالاستسقاء للمسلمين ، وهو اسم سرياني . وقد تطورت اللفظة بعد ذلك من صلاة الاستسقاء إلى الدعاء في أثناء الطواف في الأعياد . انظر النهاية ، واللسان : « بعث ، بغت » ، ومجلة المجمع العلمي ٢٦ / ٣٢٧

(٤) سعانين أو شعانين . في كتب اللغة القديمة ـ أنه عيد للنصارى ، وهو سرياني معرب ، وفي الألفاظ السريانية : في المعاجم العربية أنها لفظة عبرانية مدلولها التسابيح ، أخذها السريان ومنهم أخذها العرب . انظر النهاية ، واللسان « سعن » ، ومجلة المجمع العلمي ٢٤ / ١٢

النيران معهم في أسواق المسلمين ، ولا نجاورهم بالخنازير ، ولا نبيع الخمور ، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين ، ولا نرغّب مسلماً في ديننا ، ولا ندعو إليه أحداً ، وعلى ألا نتخذ شيئاً من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين ، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام ، وأن نلزم ديننا حيث ملكنا ، ولا نتشبّه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم ، وأن نجُزّ مقادم رؤوسنا ، ونفرق نواصينا ، ونشدّ الزنانير على أوساطنا ، ولا ننقُش في خواتيمنا بالعربية ، ولا نركب السروج ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نجعله في بيوتنا ، ولا نتقلد السيوف ، وأن نوقّر المسلمين في مجالسهم ، ونرشدهم للطريق ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوا المجالس ، ولا نطّلع عليهم في منازلهم ، ولا نعلّم أولادنا القرآن ، ولا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة ، وأن نضيف كل [٧٩ / أ] مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد ، ونطعمه فيها ثلاثة أيام ، وعلى ألاّ نشتم مسلماً ، ومن ضرب منا مسلماً فقد خلع عهده . ضمنّا ذلك لك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكننا ، وإن نحن غيّرنا أو خالفنا عما اشترطنا على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا ، وقد حلّ لك منا ما يحلّ من أهل المعاندة والشقاق . على ذلك أُعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا ، وأقرّونا في بلادكم التي أورثكم الله عزّ وجلّ عليها . شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا ، وكفى به شهيداً .

وقيل :

إن يزيد بن أبي سفيان دخل دمشق هو ومن معه من باب الصغير قسراً . فكان يقتل هو والمسلمون ويسبون . فلما رأى ذلك الروم دلّوا أسقفهم من باب الشرقي في قفّة إلى خالد بن الوليد فأخذ لهم الأمان من خالد فأعطاهم وفتحوا له باب الشرقي فدخل خالد ومن معه حتى انتهوا إلى المقسلاط . وأجاز أبو عبيدة أمان خالد وأمضاه .

قالوا :

وكان صالح أهل دمشق على شيء مسمىّ لا يزداد عليهم إن استغنَوا ، ولا يُحطّ عنهم إن افتقروا ، فكان صالح أهل دمشق على دينارين دينارين وشيء من طعام ، وبعضهم على الطاقة ، إن زاد المال زاد عليهم ، وإن نقص ترك ذلك عنهم ، وكان اشترط على أهل الذمة بأرض الشام أنّ عليهم إرشاد الضال ، وأن يبنوا قناطر أبناء السبيل من أموالهم ، وأن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام ، ولا يشتموا مسلماً ولا يضربوه ، ولا يرفعوا في

نادي أهل الإسلام صليباً ، ولا يُخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين ، ولا يمروا بالخمر في ناديهم ، وأن توقد النيران للغزاة في سبيل الله عز وجلّ ، ولا يدُلّوا للمسلمين على عورة ، وألا يحدثوا بناء كنيسة ، ولا يضربوا بناقوسهم قبل أذان المسلمين [٧٩ / ب] وألا يُخرجوا الرايات في عيدهم ، وألا يلبسوا السلاح في عيدهم ، وألا ينحَروا في بيوتهم ، فإن فعلوا شيئاً من ذلك عوقبوا ، وأُخذ منهم فحُسب لهم في جزيتهم .

ومنهم من قال :

وقد كان أبو بكر توفي قبل فتح دمشق وكتب عمر إلى أبي عبيدة بالولاية على الجماعة وعَزل خالد ، فكتم أبو عبيدة الكتاب من خالد وغيرِه حتى انقضت الحرب . فكتب خالد الأمان لأهل دمشق وأبو عبيدة الأمير وهم لا يدرون . قال : فكان كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بنعي أبي بكر واستعماله أبا عبيدة وعزله خالدا :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق والآمر بالقسط والآخذ بالعرف ، اللين السير ، الوادع ، السهل القريب الحليم ، ونحتسب بمصيبتنا فيه ومصيبتكم ومصيبة المسلمين عامة عند الله ، وأرغب إلى الله في العصمة والتقى برحمته والعمل بطاعته ما أحيانا ، والحلول في جنته إذا توفانا ، فإنه على كل شيء قدير . وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق وقد ولّيتك جماعة الناس ، فأثبت سراياك في نواحي أرض حمص ودمشق ، وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حَضَرك من المسلمين ، ولا يحملنّك قولي هذا على أن تُعري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيّره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه .

قالوا :

فدفع ذلك الكتاب إلى خالد بن الوليد بعد فتح دمشق بنحو من عشرين [٨٠ / أ] ليلة فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال : يغفرُ الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني ، وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟! فقال له أبو عبيدة : وأنت

يغفر الله لك ، ما كنتَ لأُعلمك ذلك حتى تَعلَمه من غيري . وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أُعلمك إن شاء الله . وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وأنّ ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان وقوّام بأمر الله عزّ وجلّ ، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه . بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعها في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله ، وقليلٌ ما هم . ودفع أبو عبيدة عند ذلك إلى خالد بن الوليد الكتاب .

قال أبو حذيفة :

وولي أبو عبيدة حصار دمشق وولي خالد بن الوليد القتال على باب الشرقي وولاه الخيل إذا كان يوم يجتمع فيه المسلمون للقتال ، فحاصروا دمشق بعد هلاك أبي بكر حولاً كاملاً وأياماً . وساق الحديث .

وكان أهل دمشق قد بعثوا إلى قيصر وهو بأنطاكية رسلاً أنّ العرب قد حاصرونا وليست لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مراراً فعجِزنا عنهم فإن كان لك فينا وفي السلطان علينا حاجةٌ فأمددنا وأعنّا ، وإلا فإنا في ضيق وجهد ، فاعذرنا ، وقد أعطانا القوم الأمان ورضوا منا بالجزية اليسيرة ، فسرّح إليهم أن تمسكوا بحصنكم وقاتلوا عدوكم على دينكم ، فإنكم إن صالحتموهم وفتحتم حصنكم لهم لم يفوا لكم وجبروكم على دينهم واقتسموكم بينهم ، وأنا مسرّح إليكم الجيش في إثر رسولي هذا ، فانتظروا جيشه فأبطأ عليهم . وكتب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بالمناهضة .

وذكر سيف بن عمر :

إن فتح دمشق كان بعد وقعة اليرموك .

وقيل في حديث آخر :

[٨٠ / ب] فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأيسوا ، وازداد المسلمون طمعا فيهم ، وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك ، إذا هجم البرد قفل الناس ، وسقط النجم والقوم مقيمون . فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق . وولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فصنع عليه ، فأكل القوم وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد . فإنه كان لا ينام ولا ينيم

ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معنيّ بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا[1] .

فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنوده الذين قدم بهم عليهم ، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول نومة ، وقال : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقُوا البناء ، وانهدوا إلى الباب . فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشُرف ، وعلى ظهورهم القِرَب التي قطعوا بها خندقهم ، فلما ثبت لهم وهقانِ تسلّق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها ، والأوهاقَ بالشرف ، وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشدّه مدخلاً ، وتوافَوا لذلك فلم يبق بمن قدم معه أحد إلا رقي أو دنا من الباب حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه ، وانحدر معهم ، وخلّفَ من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي ، وأمرهم بالتكبير ، فكبّرَ الذين على رأس السور فنهد المسلمون إلى الباب ، ومال إلى الحبال بشرٌ كثير فوثبوا فيها ، وانتهى خالد إلى أول من يليه فأقامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة وفزع سائر الناس ، فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن [٨١ / أ] وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، فقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف ، وفتحوا للمسلمين ، فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مُقاتل إلا أُنيم . ولما شدّ خالد على مَن يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة وأرَزَ مَن أُفلتَ إلى أهل الأبواب التي تلي غيره ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا ، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب ، وقال : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل [كل][2] باب بصلحٍ مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عَنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً ، وهؤلاء صلحاً وتسكيناً ، فأجرَوا ناحية خالد مجراهم وقالوا : قد فرّوا إلينا ودخلوا معنا ، فأجاز لهم ذلك عمر رضي الله عنه ، فأجرى النصف الذي أُخذ عنوة مجرى الصلح فصار صلحاً . وكان صلح دمشق على المقاسمة ، الدينار والعقار ودينار عن كل رأس ، واقتسموا الأسلاب ، فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد ، وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جَريب

---

(١) الأوهاق ج وَهَق - بالتحريك وقد يسكّن - وهو حبل تشد به الإبل والخيل لئلا تندّ . النهاية (وهق) .

(٢) استدركت اللفظة من تاريخ ابن عساكر ١ / ٥١٧

من كل جَريب أرض ، ووقف ما كان للملوك ومن صوّب معهم فيئاً وبعثوا بالبشارة إلى عمر ، وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر بأن اصرف جند العراق إلى العراق وامرهم بالحث إلى سعد بن مالك ، فأمّر على جند العراق هاشم بن عُتبة ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى مُجَنِّبَتَيْه عمرو بن مالك الزهري وربعي بن عامر ، فصُرفوا بعد دمشق نحو سَعد ، فخرج هاشم نحو العراق في جند أهل العراق . وخرج علقمة ومسروق إلى إيلياء فنزلا على طريقها وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد ، وبعث يزيد بن أبي سفيان دحية بن خليفة الكلبي في خيل بعد فتح دمشق إلى تدمر [٨١ / ب] وأبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران فصالحوهما على صلح دمشق ، ووليا القيام على فتح ما بُعثا إليه . وكان أخو أبي الزهراء قد أصيبت رجله بدمشق يوم دمشق .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام :

مدينة دمشق افتتحها خالد بن الوليد صلحاً ، وعلى هذا مدن الشام كانت كلها صلحاً دون أرَضيها على يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة بن الجراح .

وبينما المسلمون على حصار مدينة دمشق إذ أقبلت خيل عظيمة مخمرة بالحرير هابطة من ثنيّة السَلِمة فرآهم المسلمون وهم منحدرون منها ، فخرج إليهم جماعة من المسلمين فيما بين بيتَ لهيا والثنيّة التي هبطوا منها ، فهزمهم الله وطلبهم المسلمون ، يترحل هؤلاء وينزل هؤلاء حتى وقفوا على باب حمص ، فظن أهلها أنهم لم يأتوا حمص إلا وقد صالحوا أهلها ، فقالوا : نحن على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا .

وعن عقبة بن عامر الجهني أنه قال :

بعثني بعض أمراء الشام إلى عمر بن الخطاب فقدمت عليه في يوم الجمعة ، وعليّ خفان فقال : متى أولجت خفيّك ؟ قال : قلت له : يوم الجمعة الخالية ، قال : ثم لم تنزعهمابعد ؟ قال : قلت : ثم لم أنزعها بعد . قال : أصبت .

قال ليث :

وذلك رأينا .

وفي رواية أخرى :

فقال عمر : أصبت السُنة .

وعن عبد الرحمن بن جبير :

أن المسلمين لما افتتحوا مدينة دمشق بعثوا أبا عبيدة بن الجراح وافداً إلى أبي بكر ومبشراً بالفتح ، فقدم المدينة فوجد أبا بكر قد توفي رحمة الله عليه واستخلف عمر بن الخطاب ، فأعظم أن يأتمر أحد من أصحابه عليه ، فولاه جماعة الناس ، فقدم عليهم فقالوا : مرحباً بمن بعثناه بريداً فقدم علينا أميراً .

وقال مكحول :

إن الذي أبرد بفتح دمشق رجل من الصحابة ليس بأبي عبيدةبل هو عقبة بن عامر . وهو أصح وعليه الناس .

قال : وفي حديث عبد الرحمن [٨٢ / أ] بن جبير خطأ في مواضع ثلاثة : أحدها قوله : إن دمشق فتحت في خلافة أبي بكر ، وإنما حوصرت في حياته ، ولم تفتح إلا بعد وفاته . والثاني قوله : إن عمر ولى أبا عبيدة بالمدينة . وإنما ولاه وهو مقيم بالشام . فبعث إليه بكتاب توليته وهم محاصرو دمشق ، فكتمه أبو عبيدة خالداً حتى تم الفتح . والثالث قوله : إن أبا عبيدة كان البريدَ بفتح البلد ، وإنما كان البريدَ عقبةُ بن عامر . ويدل عليه أيضاً إجماع أهل التواريخ على أن فتح دمشق كان سنة أربعَ عشرةَ ، وبلا خلافٍ إن أبا بكر توفي سنة ثلاث عشرة في جمادى الآخرة . والله أعلم .

وعن المغيرة قال :

افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلَّها عَنوة ما خلا طبرية ، فإن أهلها صالحوه وذلك بأمر أبي عبيدة . وبعث أبو عبيدة خالد بن الوليد فغلب على أرض البقاع ، وصالحه أهل بعلبك وكتب لهم كتاباً .

وقال المغيرة :

صالحهم على أنصاف منازلهم وكنائسهم ووضع الخراج .

وقال ابن إسحاق وغيره :

في سنة أربع عشرة فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي العقدة .

قال شباب :

ويقال في سنة خمس عشرة .

ذكر تاريخ وقعة اليرموك ومن قُتل بها

تواردت الروايات أن وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة .

وقال ابن الكلبي :

كانت يوم الاثنين لخمس مضين من رجب .

وهذه الأقوال هي المحفوظة في تاريخ اليرموك .

وقال سيف بن عمر :

إنها كانت قبل فتح دمشق ، في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة . ولم يتابع على ذلك .

وشهد اليرموك ألف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ . منهم نحو من مئة من أهل بدر .

وقال سعيد بن عبد العزيز :

إن المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفاً . وعليهم أبو عبيدة بن الجراح . والروم عشرون ومئة ألف ، عليهم باهان وسقلان يوم اليرموك .

[٨٢ / ب] وعن كعب قال :

إن لله عزّ وجلّ في اليمن كنزين جاء بأحدهما يوم اليرموك ، قال : وكانت الأردن يومئذ ثلث الناس . ويجيء بالآخر يوم الملحمة الكبرى سبعون ألفاً ، حمائلُ سيوفهم المسد .

قال محمد بن إسحاق :

مات المثنى بن حارثة فتزوج سعد امرأته سلمى بنة حفص في سنة أربع عشرة . وأقامَ تلك الحجّة للناس عمر بن الخطاب . ودخل أبو عبيدة في تلك السنة دمشق فشتا بها . فلما ضاقت الروم سار هرقل في الروم حتى نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبَلْقَين

وبَلِيّ وعاملة ، وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير ، معه من أهل أرمينية مثل ذلك بشر كثير . فلما نزلها أقام بها . وبعث الصقلانَ ، خصياً له ، فسار في مئة ألف مقاتل ، معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفاً عليهم جرجة ، ومعهم من المستعربة من غسان وتلك القبائل اثنا عشر ألفاً ، عليهم جبلة بن الأيهم الغساني ، وسائرهم من الروم وعلى جملة الناس الصقلانُ ، خصيُّ هرقل . وسار المسلمون إليهم وهم أربعة وعشرون ألفاً ، عليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة خمس عشرة ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى دخل عسكر المسلمين وقاتل نساء من قريش بالسيوف حتى دخل العسكر ، منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام حتى سايفن[1] الرجال .

وعن عبد الرحمن بن جبير

أن أمراء الأجناد اجتمعوا في خباء يزيد بن أبي سفيان وهم بالجابية يسمعون خبر عَيْن لهم من قضاعة يخبرهم بكثرة القوم ومنزلهم على نهر الرقاد ومرج الجولان إذ طاف بهم أبو سفيان فقال : ما كنت أظن أني أبقى حتى أرى غَلَمة من قريش يذكرون أمر حربهم ويكيدون عدوّهم بحضرتي لا يُحضرونيه ، فقالوا : هل لكم إلى رأي شيخكم ؟ فقالوا : ادخل أبا سفيان ، فدخل فقال : ما عندكم ؟ فأخبروه بخبر [٨٣ / أ] القضاعي فقال : إن معسكركم هذا ليس بمعسكر إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولوا بينكم وبين مددكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف ظهوركم ، يأتيكم المدد والخبر ، فقبلوا ذلك من رأيه . فقال : إذ قبلتم هذا من رأيي فأمّروا خالد بن الوليد على الخيول ومُروه بالوقوف بها مما يلي الرقاد وأمّروا رجلاً على المرامية ، وأخرجوا إليه كل نابض بوَتَر ومُروه بالوقوف فيما بين العسكرين وبين الخيول ، فإنه سيكون لرحيل العسكر من السَّحَر أصوات عالية تحدث لعدوكم فيكم طمعاً ، فإن أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفتها . وإن كانت للخيول جولة وَزَعت عنها المرامية ، فقبلوا ذلك من رأيه . ونادَوا من السحر بالرحيل ، فتنادت الروم إن العرب قد هربت ، فأقبلت فلقيتها الخيول وكفتها حتى سار العسكر وتبعتها المرامية وساقتها الخيول حتى نزلوا خلف اليرموك ، وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم ، ونزلت الروم فيما بين دير أيوب إلى ما يليها من نهر اليرموك ، بينهم النهر ، فعسكروا هنالك أياماً ، فبعث باهان صاحبُهم إلى خالد بن الوليد

---

(١) سايفوا واستافوا : تضاربوا بالسيوف . القاموس : « سيف »

إن رأيتَ أن تخرج إليّ في فوارس وأخرج إليك في مثلهم أذاكرك أمراً لنا ولكم فيه صلاح وخير ، ففعل خالد بن الوليد فوافقه ملياً فكان فيما عرض عليه أن قال : قد علمت أن الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السعر وضيق الأمر بكم وإني قد رأيتُ أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة ، تحمل حملها من الطعام والكسوة والأُدْم ، فترجعون بها إلى بلادكم ، وتعيّشون بها أهاليكم سَنَتكم هذه ، فإذا كان قابل بعثتم إلينا فبعثنا إليكم بمثله ، فإنا قد جئناكم من الجيوش والعدد بما لا قبل لكم به . فقال خالد : ما أخرجنا من بلادنا الجوع ولا ضيق الأمور [٨٣ / ب] ولكنا ـ معشر العرب ـ نشرب الدماء ، فحُدثنا ألا دماء أحلى من دماء الروم ، فأقبلنا نُهريق دماءكم ونشربها . قال : فنظر أصحابه بعضهم إلى بعض فقالوا : هذا ما كنا نُحدَّث به عن العرب من شربها الدماء .

قالوا :

ثم زحف يعني باهان إلى المسلمين ، فخرج بهم أبو عبيدة وقد جعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته قباثة بن أسامة[1] الكناني ، وعلى الرجّالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وعلى الخيل خالد بن الوليد . وكان الأمراء عمرو بن العاص على ربع ، ويزيد بن أبي سفيان على ربع ، وشرحبيل بن حسنة على ربع ، وكان أبو عبيدة على ربع . وخرج الناس على راياتهم فيها أشراف رجال من العرب ، فيها الأزد وهم ثلث الناس ، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم ، وفيها كنانة وقضاعة ولخم وجذام وكندة وحضرموت ، وليس فيها أسد ولا تميم ولا ربيعة ، ولم تكن دارهم ، إنما كانت دارهم عراقية . فقاتلوا أهل فارس بالعراق . فلما برزوا لهم وسار أبو عبيدة بالمسلمين وهو يقول : عباد الله ، انصروا الله ينصركم ، وُيثبّت أقدامكم ، يا معشر المسلمين ، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار . ولا تبرموا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدؤوهم بالقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدَّرَق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله عزّ وجلّ في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله .

---

(١) كذا في الأصل ، وفي الإصابة ٣ / ٢٢١ والاستيعاب ج٣ : « قَبَاث بن أُشْيَم بن عامر بن الملوّح الكناني . وقَباث بفتح القاف موافق لما في اللسان والقاموس : « قبث » . قال الأخير : « قَباث ، كسحاب ، ابن أُشْيَم صحابي » . وهو في الإكمال ٧ / ٩٢ « بقاف مضمومة » وانظر حاشيتي الإكمال ١ ، ٢ من الصفحة نفسها .

قالوا :

وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول : يا أهل القرآن ، ومستحفظي الكتاب ، وأنصار الهدى والحق ، إن رحمة الله لا تنال وجنّته لا تدخل بالأماني ، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا للصادق والمصدّق ألم تسمعوا لقول الله عزّ وجلّ ﴿ وَعَدَ اللهُ الّذين آمَنُوا منْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾[1] إلى آخر الآية . فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم [٨٤ / أ] فُرَّاراً عن عدوكم وأنتم في قبضته ، وليس لكم مُلتحدٌ من دونه ، ولا عزّ بغيره . يمشي في الصفوف ويذكرهم ، حتى إذا بلغ من ذلك ما أحَبّ ورأى من الناس الذي سرّه بهم ، ثم حرّضهم ، وانصرف إلى موقفه رحمه الله .

وسار في الناس عمرو بن العاص وهو أحد الأمراء كسير أخيه معاذ بن جبل ، فجعل يحرضهم ويقول : يا أيها المسلمون ، غضوا الأبصار واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثِبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحساناً لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْراً كفراً ، وقصراً قصراً ، فلا يَهُولَنّكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدّ تطايروا تطاير أولاد الحجل . قالوا : ثم رجع فوقف في موقفه معهم أيضاً .

قالوا :

ثم رجع أبو سفيان بن حرب وهو متطوع يومئذ ، إنما استأذن أمير المؤمنين عمر أن يخرج متطوعاً مدداً للمسلمين متطوعين ، فجعل الله في مخرجه بركة ، فسار في صف المسلمين وهو يقول : يا معشر المسلمين ، أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوّ كثير عدده ، شديد عليكم حَنَقه ، وقد وَتَرتُموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، ألا إنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ليس لأحد فيها معقل ولا معقول إلا الصبر ورجاءً ما وعد الله فهو خير معقول ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا بها ولتكن هي الحصون .

---

(١) سورة النور ٢٤ / ٥٥

قالوا :

ثم رجع أبو سفيان إلى النساء اللواتي مع المسلمين ، وكان كثير من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع [٨٤ / ب] أزواجهن وأبنائهن فأجلسهنّ خلف صفوف المسلمين وأمر بالحجارة فأُلقيت بين أيديهن ، ثم قال لهن : لا يرجع إليكُنّ أحد من المسلمين إلا رميتُنّه بهذه الحجارة وقلتُن : من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله الله .

قال : ثم رجع أبو سفيان فنادى المسلمين فقال : يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون ، فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم ثم وقف موقفه .

قالوا : وزحفت الروم مكانها إلى المسلمين يدفّون دفيفاً معهم الصلبان وأقبلوا بالأساقفة ، والقسيسين والرهبان والبطارقة ، لهم زجل كزجل الرعد وقد تبايع عظماؤهم على الموت ، ودخل منهم ثلاثون ألفاً ، كل عشرة في سلسلة لئلا يفرّوا .

قالوا :

فلما نظر إليهم خالد مقبلين أقبل يركض حتى قطع صف المسلمين إلى نساء المسلمين وهنّ على تل مرتفع من العسكر حيث وضعهن أبو سفيان فقال : يا نساء المسلمين ، أيّما رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه . ثم انصرف . فأتى أبا عبيدة فقال : إنّ هؤلاء قد أقبلوا بعدة زجل وفرح ، وإن لهم عدّة لا يردها شيء وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم ورجالهم أبداً . وخيله يومئذ أمام صفوف المسلمين ثلاثة . فقال خالد : قد رأيت أن أفرق خيلي فأكون في إحدى الخيلين ، وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حُمل على الناس ثبت الله أقدامهم . وإن كانت الأخرى حملنا خيولنا عليهم وهي جامّة[1] . وهم قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم فأرجو عندها أن يُظفر الله بهم ويجعل الدائرة عليهم . وقد رأيت أن يجلس سعيد بن زيد مجلسك هذا وتقف من ورائه بحذائه في مئتين أو ثلاث مئة يكون للناس ردءاً .

قالوا :

فقبل أبو عبيدة [٨٥ / أ] مشورته وقال : افعل ما أراك الله ، وأنا فاعل ما أردتَ . فأجلس أبو عبيدة سعيدَ بن زيد مكانه وفعل ما أمره به خالد ، فركب فرسَه وأقبل

(١) جامة : مستريحة . اللسان والنهاية « جمم » .

يسير في النـاس ويحرضهم ويوصيهم بتقوى الله والصبر ، ثم انصرف ، فوقف من خلف النـاس ردءاً لهم .

قيل :

إن رجلاً من المسلمين أقبل يومئذ عند وصاة أبي عبيدة هذه . فقال له : إني قـد أردت أن أقضي شأني فهل لك إلى رسول الله ﷺ حـاجـة ؟ فقـال لـه أبو عبيـدة نعم : تقرئـه مني السلام وتخبره أنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . ثم تقدم الرجل فكان أولَ من استشهد رحمة الله عليه .

قال :

وأقبلت الروم إليهم كأنها سحـابـة منقضـة إلى المسلمين حتى دنـا طرفُهم من ميمنـة المسلمين . قال : فبرز معاذ بن جبل فنـادى المسلمين : يـا معشر أهل الإسلام إنهم قـد تهيّؤوا للشدة ، ولا والله لا يردهم إلا الصدق عند اللقاء والصبر عند القراع .

قالوا :

ثم نزل عن فرسه فقال : من يريـد فرسـاً يركبـه ويقـاتل عليـه ؟ قـال : فوثب ابنـه عبد الرحمن وهو غلام حين احتلم فأخذه ، فقال : يا أبه إني لأرجو أن لا يكون فارساً أعظم غناء في المسلمين مني فارسٌ ، وأنت يا أبه راجل أعظم غناء منك فـارس . الرجّـالـة هم عظم المسلمين ، فإذا رأوك حافظاً مترجّلاً صبروا إن شاء الله وحافظوا . قـال : فقـال أبوه : وفقني الله وإياك يا بني . قال : ثم إن الروم تداعوا وتحاضّوا وذكّرهم الأساقفة والرهبـان . قـال : فجعـل معـاذ إذا سمـع كـلامهم يقـول : اللهم زلـزل أقـدامهم وأرعب قلـوبهم ، وأنـزل علينـا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وحبِّب إلينا اللقاء ورضّنا بالقضاء .

قال :

وخرج باهان صاحب الروم فجـال فيهم حتى وقف وأمرهم بـالصبر والقتـال دون ذراريهم وأمـوالهم وسلطـانهم . ثم بعث إلى صـاحب الميسرة أن احمـل وهـو الـدرنيجـان [٨٥ / ب] وكان عدو الله متنسّكاً . فقال للبطارقة والرؤوس الـذين معـه : قـد أمركم أميركم أن تحملوا . قال : فتهيأت البطارقة فشدت على الميمنة وفيها الأزد ومـذحج وحضرموت وحمير وخولان ، فثبتوا حتى صدقوا أعداء الله فقاتلوهم قتـالاً شـديـداً طويلاً . ثم إنـه ركبهم من الروم أمثـال

الجبال . فزال المسلمون من الميمنة إلى ناحية القلب وانكشف طائفة من النـاس إلى العسكر ، وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم ، وانكشفت زَبيد يومئذ وهي في الميمنة ، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث ، فتنادوا فترادّوا واجتمعوا جميعاً . واجتمعوا وهم خمس مئة رجل فشدوا شدة نهنهوا مَن قِبلهم من الروم وشغلوهم عن اتباع من انكشف من الميمنة ، وترادّ أيضاً جماعة من الميمنة المتحيزة ، فشدت حمير وحضرموت وخولان بعد ما زالوا حتى وقفوا مواقفهم في الصف ، واستقبل النساء سُرعان من انهزم من المسلمين ، معهن عمد البيوت وأخذن يضربن وجوههن ويرمين بالحجارة ، فترادّ الناس وثبت النساء على مواقفهن ، واستحرّ القتال في الأزد فأصيب منهم ما لم يقتل من القبائل ، وقتل يومئذ عَمرو بن الطفيل الدَّوسي ، وحقق الله رؤيا والده الطفيل رحمه الله ، فإنه رأى يوم مسيلمة أن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخله ، وطلبه ابنه هذا وحبس عنه . فقال : أولت رؤياي أن أقتل ، وإن المرأة التي أدخلتني في فرجها الأرضُ ، وإن ابني ستصيبه جراحه ويوشك أن يلحقني . فقتل هذا يوم اليرموك وهو يقول : يا معشر الأزد ، لا يؤتَيَن المسلمون مِن قبلكم . فقاتل حتى قتل . وثبت جندب بن عمرو بن حُممة ، وقاتل حتى قتل .

وبرز أبو هريرة إلى الأزد يعاونها ، وهو أحد الرؤوس من الأزد ، وأطافت به الأزد ، ثم اضطربوا حتى صارت الروم تجول في مجال واحد ، كما تدور الرحى .

[٨٦ / أ] قالوا :

ولقلّما رأى يوماً أكثر قحفاً ساقطاً ومعصماً نادراً ، وكفاً طائرة من ذلك الموطن . والناس يضطربون تحت القسطل . قالوا : وجل القبائل في الميمنة حتى القلب . قالوا : والقلب في نحو مافيه الميمنة .

قالوا :

وحمل عليهم خالد بن الوليد على الميسرة التي دخلت العسكر واضطرت ميمنة المسلمين إلى القلب ، فصارت الميمنة والقلب شيئاً واحداً ، فقَتَل هو وخيله نحواً من ستة آلاف . ودخل سائرهم بيوت المسلمين في العسكر مجرّحين . وخرج خالد بن الوليد في خيله يطرد مَن كان من الروم قريباً من العسكر حتى إذا أرادوا أن يكروا به نادى عند ذلك : يا أهل الإسلام ، لم يبق عند القوم من الجلد والقتال إلا ما رأيتم ، الشدّة الشدّة ، فوالذي نفسي

بيده ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم . قالوا : فاعترض صفوف الروم وإنّ في جانبه الذي يستقبل لمئةَ ألفٍ من الروم ، فحمل عليهم ، وما هو إلا في نحوٍ من ألف فارس . قالوا : فوالله ما بلغتهم الحملة حتى فضّ الله جمعهم ، وشدّ المسلمون على مَن يليهم من رجالهم فانكشفوا وأتبعهم المسلمون ما يمتنعون من قتل ميمنتهم ولا ميسرتهم . ثم إن خالداً انتهى في تلك الحملة إلى الدرنيجان ، وقد قال لأصحابه : لفّوني في الثياب ، فلُفّ في الثياب وقال : وددت أنّ الله كان عافاني من حرب هؤلاء القوم فلم أرهم ولم يروني ، ولم أُنصر عليهم ولم يُنصروا علي . وهذا يوم شَرٌّ . ولم يقاتل حتى غشيه القوم فقتلوه . قالوا : وقال : أيضاً قُباطر وهو في ميمنة الروم لجرجين صاحب أرمينية : احمل ، فقال له : أنت تأمرني أن أحمل ، وأنا أمير مثلك ؟ فقال له قُباطر : أنت أمير وأنا أمير ، وأنا فوقك ، وقد أُمرتَ بطاعتي ، فاختلفا ، ثم إن قُباطر حمل حملةً شديدةً على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان ، وهم فيما بين ميسرة المسلمين [٨٦ / ب] إلى القلب ، فكَشفوا المسلمين وزالت الميسرة عن مصافّها ، وثبت أهل الرايات ، وأهل الحفائظ فقاتلوا ، وركبت الروم أكتاف مَنِ انهزم حتى دخلوا معهم العسكر ، فاستقبلهم نساء المسلمين بعمد الفساطيط يضربن بها وجوههم ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عزُّ الإسلام والأمهات والأزواج . قال : فتعطّف هؤلاء الذين انهزموا إلى المسلمين ، وتنادى الناس بالحفائظ والصبر وشد قباثة بن أسامة فقاتل قتالاً شديداً وكسر في القوم ثلاثة أرماح يومئذ وقطع سيفين ، وأخذ يقول كلما قطع سيفاً أو كسر رمحاً : مَنْ يُعير سيفاً أو رمحاً في سبيل الله رجلاً قد حبس نفسه مع أولياء الله ، قد عاهد الله ألا يفرّ ولا يبرح حتى يقاتل المشركين حتى يظهر المسلمون أو يموت ؟ فكان من أحسن الناس بلاء في ذلك اليوم .

ونزل أيضاً أبو الأعور السلمي فحرّض على القتال ، ثم إن الناس حيزوا إلى القلب . وفي القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل حيث وضعه أبو عبيدة بن الجراح . فلما نظر سعيد إلى الروم وخافهم اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيه حتى إذا دنوا منه طعن برايته أول رجل من القوم ثم ثار في وجوههم كأنه الليث فأخذ يقاتل ويعطف الناس إليه .

قالوا :

وكان يزيد بن أبي سفيان يومئذ من أعظم الناس غَناء . وكان مما يلي القلب . وشدّ

طرف من الروم على عمرو بن العاص . فانكشف هو وأصحابه حتى دخلوا أول العسكر وهم في ذلك يقاتلون ويشدون ولم ينهزموا هزيمة ولوّا فيها الظهر .

قال :

فنزلتِ النساء من التلّ بعمدهن يضربن وجوه الرجال ونادت الناسَ ابنةُ العاص وقالت : قَبّح الله رجلاً يفرّ عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفرّ عن كريمته ، قالوا : وسُمِع نسوة من نساء المسلمين يقلن : ولستم بعولتنا إن [٨٧ / أ] لم تمنعونا .

قال :

فَتَرَادَّ المسلمون وزحف عمرو وأصحابه حتى عادوا إلى قريب من موقفهم . وقاتل أيضاً شرحبيل بن حسنة في ربعه الذي كان فيه . وكان وسطاً من الناس إلى جنب سعيد بن زيد ، وانكشف عنه أصحابه فثبت وهو يقول : ﴿ إنَّ اللّهَ اشترى من المؤمنين أنفُسَهُم وأموالَهُمْ بأنّ لَهُمُ الجنة ﴾[1] . أين الشارو أنفسهم لله ابتغاء مرضاة ربهم ، وأين المشتاقون إلى جوار الله في داره ؟ قالوا : فرجع إليه ناس كثير وبقي القلب لم ينكشف أهله للمكان الذي كان فيه سعيد بن زيد . وكان أبو عبيدة من وراء ظهره ردءاً له وللمسلمين .

قالوا :

فلما رأى قيس بن هبيرة خيل المسلمين وراء صفّهم مما يلي ميسرة المسلمين ، وأن المسلمين قد دخلت ميسرتهم العسكر وأن الروم قد صمدت لهم ، اعترض الرومَ بخيله تلك ينتظر خيل خالد بن الوليد ، فتعطّف بعضهم إلى بعض ورجع المسلمون في آثارهم فقاتلوهم ، وحمل على من يليه من الروم ، وهو في ميمنة المسلمين حتى اضطروهم إلى صفوفهم . فلما رأى خالد بن الوليد أن قيس بن هبيرة قد كشف من يليه وأن المسلمين قد رجعت راجعتُهم إلى المسلمين حمل على من يليه من الروم فتعطّف بعضهم على بعض ، وزحف المسلمون إليهم رويداً حتى إذا دنَوا منهم إذا هم ينتقضون ، فبعث أبو عبيدة عند ذلك إلى سعيد بن زيد أن شُد عليهم . وشَدّ المسلمون بأجمعهم شدّة واحدة وأظهروا التكبير ، ثم صكوهم صكة واحدة فطعنوا بالرماح وضربوا بالسيوف ، وأنزل الله تعالى نصره . وما وعد

---

(١) سورة التوبة ٩ / ١١١

نبيـه ﷺ ، فضرب الله وجوه أعـدائـه ومنح أكتـافهم ، وأنزل الله تعـالى مـلائكـة يضربـون وجوههم حتى ولّوا المسلمين أكتافهم .

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه أنه قال :

لما جلنـا هـذه الجولـة سمعنـا صوتـاً قـد كاد يملأ العسكر يقول : يـا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات يا معشر المسلمين ، فتعطّفنـا عليـه فـإذا هو أبو سفيـان بن حرب تحت رايـة ابنه ، [٨٧ / ب] وشدّ خالد في سُرعان الناس معه يقتلون كل قتلة ، وركب بعضهم بعضاً حتى انتهَوا إلى مكان مشرف على أُهْوِيَّة فـأخـذوا يتسـاقطون فيهـا ، وهم لا يبصرون ، وهو يـومٌ ذو ضبـاب . وقيـلَ : كان ذلـك في الليـل . فـأخـذ آخرهم لا يعلم مـا يلقى أولُهم ، يتساقطون فيها حتى سقط فيها نحو من ثمانين ألفاً فما أحصوا إلا بالقصب .

وبعث أبو عبيدة شداد بن أوس ابن أخي حسـان بن ثـابت بعـدهم ، بعـد ذلـك اليوم بيوم واحد ، فوجد مَن سقط في تلك الأهوية حتى عدّهم بالقصب ثمانين ألفاً ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً ، وسُمّيت تلك الأهوية الواقوصة من يومئذ حتى اليوم لأنهم وقصوا فيهـا ، وأخـذوا وجهـاً آخر ، وقتل المسلمون في المعركـة بعـدمـا أدبروا مـا لا يحصى . وغلبهم الليـل فبات المسلمون . فلما أصبحوا نظروا فإذا هم لا يرون في الوادي شيئـاً ، فقـالوا : كَمَن أعـداءُ الله لنا ، فلما بعثوا الخيول في الوادي تنظر هل لهم من كمين أونزلوا بوطاء من الأرض ، فـإذا الرعاة يخبرونهم أنهم قد سقطوا في الواقوصة . فسألوا عن عُظم الروم فقالوا : قـد ترحل منهم البارحة نحو من أربعين ألفاً . ثم اتبعهم خالـد بن الوليـد على الخيل فقتلهم حتى مرّ بـدمشق فخرج إليه رجال من أهل دمشق فاستقبلوه ، فقالوا : نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم فقـال لهم : نعم أنتم على عهـدكم ، ثم اتبعهم فقتلهم في القرى وفي كل وجـه ، حتى قـدم دمشق فخرج إليه أهلها فسألوه التمام على ما كان بينهم ففعل ، ومضى خالد يطلب عُظم الناس حتى أدركهم بثنية العُقاب وهو يهبط الهابـط المغرّب منهـا إلى غوطـة ، يـدرك عظم النـاس حتى أدركهم بغوطة دمشق . فلما انتهَوا إلى تلك الجماعة من الروم ، وأقبلوا يرمونهم بـالحجـارة من فوقهم فتقدم إليهم الأشتر وهو في رجـال من المسلمين [٨٨ / أ] فـإذا أمـامهم رجلٌ من الروم جسيمٌ عظيم ، فمضى إليه حتى وثب عليه فاستوى هو والرومي على صخرة مستوية فاضطربـا بسيفهما فـأطنّ الأشترُ كفَّ الرومي ، وضرب الرومي الأشتر بسيفـه فلم يضره ، واعتنـق كل واحد منهما صاحبه فوقعا على الصخرة ثم انحدرا وأخذ الأشتر يقول وهو في ذلك ملازم العلج

لا يتركه : ﴿ قُلْ إنّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالَمين ، لا شريك لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وأنا مِنَ المُسْلِمين ﴾[1] . فلم يزل يقول ذلك حتى انتهى إلى مستوّى في الجبل وقرار . فلما استقرّ وثب على الرومي فقتله وصاح في الناس أن جوزوا .

قال :

فلما رأت الروم أن صاحبهم قد قُتل خلّوا الثنيّة وانهزموا . وكان الأشتر ذا بلاء حسن في اليرموك . قالوا : لقد قتل ثلاثة عشر . فركب خالد والمسلمون الثنيّة ، ثم انحطوا مشرّقين وأنكوا في سائر البلاد يطلبون أعداء الله في القرى والجبال ، حتى وصلوا إلى حمص فخرج إليهم أهل حمص يسألونهم التمام على عهدهم وعقدهم وحريتهم ، ففعل بهم خالد ما فعل بأهل دمشق ، وأقام بها ينتظر رأي أبي عبيدة ، ولما سار خالد بن الوليد من اليرموك في إثر من انهزم وقع أبو عبيدة في دفن المسلمين حتى غيّبهم وكفاه دفن الكفار بالواقوصة التي وقعوا فيها ، وقد كان مما يعملون أن يدفنوا الكفار بعد ما يدفنون المسلمين فكفاه الله الكفار بالواقوصة التي وقعوا فيها . فكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يصف له أمرهم .

وكان أبو بكر قد سمّى لكل أمير من أمراء الشام كورة ، فسمى لأبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مجزز فلسطين ، فإذا فرغا منها ترك علقمة وسار إلى مصر . فلما شارفوا الشام دهم كلَّ أمير منهم قوم كثير ، وأجمع رأيهم أن يجتمعوا بمكان واحد [٨٨ / ب] وأن يلقوا جمع المشركين بجمع المسلمين .

قالوا :

ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يُحرجوها ، فذهبت فتفرقت في البلاد ، وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجْل يفضّهم ، فكأنما هدم بهم حائطاً فاقتحموا في خندقهم ، واقتحموا عليهم فعمدوا إلى الواقوصة حتى هَووا فيها ، المقترنون وغيرهم ، فمن صبر للقتال هوى به من جشعت نفسه فيهوي الواحد بالعشرة ولا يطيقونه ، وكلما هوى اثنان كان البقية عنهم أضعف ، وكان المقترنون أعشاراً فتهافَتَ في الواقوصة عشرون ومئة ألف ، ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق ، سوى مَن قُتل في المعركة ،

---

(١) سورة الأنعام ٦ / ١٦٢

من الخيل والرَّجْل ، فكان سهم الفارس يومئـذ ألفاً وخمس مئـة وتجلل القيقـاز وأشراف من أشراف الروم برانسهم ، وجلسوا وقـالوا : لا نحبّ أن نرى يـوم السـوء إذا لم نستطـع أن نرى يوم السرور ، وإذا لم نستطع أن نمنع النصرانية فأصيبوا في تزمّلهم .

قـالوا : وكان الكافرون أربعين ومئتي ألف ، منهم ثمـانون ألف مقيّـد ، وأربعـون ألف مُـسلسَل للموت ، وأربعون ألف مربوط بالعمائم ، وثمانون ألف فـارس ، وثمـانون ألف راجل . والمسلمون سبعـة وعشرون ألفاً ممن كان مقيماً . إلى أن قـدم عليهم خـالـد في التـسعـة آلاف ، فصـاروا سـتـة وثلاثين ألفـاً ، وفتح الله على المسلمين آخر الليـل ، وقتلـوهم حتى الصبـاح ، ثم أصبحوا فاقتسموا الغنائم ، ودفنوا قتلى المسلمين ، وبلغوا ثلاثة آلاف ، وصلى كل أمير قوم على قتلاهم .

ذكر تاريخ قدوم عمر الجابية

قال يزيد بن عبيدة :

فُتحت بيت المقدس سنة ست عشرة . وفيها قدم عمر بن الخطاب [٨٩ / أ] الجابية .

وقال الوليد بن مسلم :

ثم عاد في العام المقبل ، يعني سنة ثمان عشرة ، حتى أتى الجابية ، يعني بعد عوده من سَرْغ سنة سبع عشرة ، فاجتمع إليه المسلمون ، فدفع إليه أمراء الأجناد ما اجتمع عندهم من الأموال ، فجند ومصّر الأمصار ثم فرض الأعطية والأرزاق ثم قفل إلى المدينة .

وقال عبد الله بن صالح في حديثه :

إن عمر قدم الجابية سنة ثمان عشرة . قال : وهذا يدل على أن عمر قدم الجابية مرتين .

وعن عبد العزيز بن مروان أنه قال لكريب بن أبرهة :

أحَضرْتَ عمر بن الخطاب بالجابية ؟ قال : لا . قال : فمن يحدّثنا عنها ؟ قال كريب : إن بعثت إلى سفيان بن وهب الخولاني حدّثك عنها ، فأرسل إليه فقال : حدثني عن خطبة عمر بن الخطاب يوم الجابية قال سفيان : إنه لما اجتمع الفيء أرسل أمراء الأجناد إلى عمر بن الخطاب أن يقدم بنفسه فقدم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد . فإن هذا المال نقسمه على من أفاء الله بالعدل إلا هذين الحيين من لخم وجذام فلا حق لهم فيه ، فقام إليه أبو حُديدة الأجذمي[1] فقال : ننشدك الله يا عمر في العدل . فقال عمر : العدل أريد . أنا أجعل أقواماً أنفقوا في الظهر وشدوا العرض ، وساحوا في البلاد مثل قوم مقيمين في بلادهم ؟ ! ولو أن الهجرة كانت بصنعاء أو بعدن ما هاجر إليها من لخم

(١) في الأصل : « جَديرة » في الموضعين، وانظر الإصابة ٤ / ٤٧

ولا جذام أحد . فقام أبو حُديدة فقال : إن الله وضعنا من بلاده حيث شاء ، وساق إلينا الهجرة في بلادنا فقبلناها ونصرناها ، أفتلك تقطع حقنا يا عمر ؟ ! ثم قال : لكم حقكم مع المسلمين ثم قسم . فكان للرجل نصف دينار . فإذا كانت معه امرأته أعطاه ديناراً . ثم دعا ابن قاطورا صاحب الأرض فقال : أخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم فأتى بالمُدْي[1] والقِسْط فقال : يكفيه هذان المُدْيان في الشهر وقِسْط زيت وقسط خلّ . [٨٩ / ب] فأمر عمر بمُدْيَيْن من قمح فطُحنا ثم عجنا ثم أدمها بقِسْطين زيتاً ثم أجلس عليهما ثلاثين رجلاً فكان كفافَ شبعهم ، ثم أخذ عمر المُدْيَيْن بيمينه والقسط بيساره ثم قال : اللهم لا أُحَلّي لأحد أن يَنقصها بعدي . اللهم فمن ينقصها فأنقص من عمره .

قال الهيثم بن عمر : إني سمعت جدي يقول :

لما وليّ عمر بن الخطاب زار أهل الشام فنزل الجابية ، وكانت دمشق تشتعل طاعوناً ، فهمّ أن يدخلها فقال له أصحابه : أما علمت أن النبي ﷺ قال : إذا حلّ بكم الطاعون فلا تهرُبوا منه ولا تأتوه حيث هو ، وقد علمت أن أصحاب النبي ﷺ الذين معك قرحانون[2] لم يصبهم طاعون قط ، فأرسل عند ذلك رجلاً من جديلة - ولم يدخلها هو - إلى بيت المقدس فافتتحها صلحاً . ثم أتاها عمر ومعه كعب . فقال : أبا إسحاق ، الصخرة ، أتعرف موضعها ؟ قال : إذْرعْ من الحائط الذي يلي وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً وهي مَزْبلة ثم احفر فإنك ستجدها ، فحفروا فظهرت لهم . فقال عمر لكعب : أين ترى أن نجعل المسجد قال : اجعله خلف الصخرة فتجمع القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد ﷺ ، فقال : ضاهيت اليهودية والله يا أبا إسحاق ، خير المساجد مقدّمها ، فبناه في مقدم المسجد .

فبلغ أهل العراق أنه زار أهل الشام فكتبوا إليه يسألونه أن يزورهم كما زار أهل الشام ، فهمّ أن يفعل فقال له كعب : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تدخلها . قال : ولم ؟ قال : فيها عصاة الجن وهاروت وماروت يعلّمان الناس السحر . وفيها تسعة أعشار الشر وكل داء مُعضل . فقال عمر : قد فهمت كلّ ما ذكرته غيرَ الداء المعضل ، فما هو ؟ قال : كثرة الأموال هو الذي ليس له شفاء . فلم يأتها عمر .

---

(١) المُدْي : مكيال لأهل الشام ومصر يسع خمسة عشر مَكّوكاً ، والمكوك : صاع ونصف ، والقسط : نصف صاع . انظر النهاية والقاموس : « مدي » .

(٢) في الأصل « قرحانين » . والمراد أنهم لم يكن أصابهم قبل ذلك داء . انظر النهاية : « قرح » .

ونزل المسلمون الجابية وهم أربعة وعشرون ألفاً فوقع الطاعون فيهم ، فذهب منهم عشرون ألفاً ، وبقي أربعة آلاف فقالوا : هذا [٩٠ / أ] طوفان وهذا رِجْز فبلغ ذلك معاذاً فبعث فوارس يجمعون الناس ، وقال : اشهدوا المدراس اليوم عند معاذ . فلما اجتمعوا قام فيهم فقال : أيها الناس ، والله لو أعلم أني أقوم فيكم بعد مقامي هذا ما تكلفت اليوم القيام لكم . وقد بلغني أنكم تقولون هذا الذي وقع فيكم طوفان ورِجْز ، والله ما هو طوفان ولا رِجز وإنما الطوفان والرِجز كان عَذَّب الله به الأمم ، ولكنها شهادة أهداها الله لكم واستجاب فيكم دعوة نبيكم ﷺ . ألا فمن أدرك خمساً فاستطاع أن يموت فليمت : أن يكفرَ الرجل بعد إيمانه ، وأن يسفك الدم بغير حقه ، وأن يعطى مال الله بأن يكذب أو يفجر ، وأن يظهر التلاعن بينكم ، أو يقول الرجل حين يصبح : والله إن حييت أو مت ما أدري ما أنا عليه .

وقوع هذا الطاعون والوباء مصداق ماروي عن معاذ بن جبل قال : ينزل المسلمون أرضاً يقال لها الجابية أو الجويْبية فتكثر به أموالهم ودوابّهم ، فيُبعث عليهم جرب كالدّمل تزكو فيه أموالهم وتُستشهد فيه أبدانهم .

وفي رواية : يصيبكم فيه داء مثل غدّة الجمل ، فيستشهد الله به أنفسكم وخياركم فيزكي أبدانكم .

ذكر ما اشترط عند فتح الشام على الذِّمة

عن عبد الرحمن بن غَنْمْ قال :

كتبتُ لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألاّ نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قِلّيَّةً ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي ما كان منها من خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا [٩٠ / ب] أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقّر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السرج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وأن نجزّ مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زيّنا حيثما كنّا ، وأن نشدّ زنانير على أوساطنا . وألا نظهر الصليب على كنائسنا ، ولا نظهر كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيّاً ، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الطريق ماجرى عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع عليهم في منازلهم .

فلما أتيتُ عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا لكم ذلك على

أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفْنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمنّاه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحلّ من أهل المعاندة في الشقاق .

وفي طريق آخر :

ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع أمواتنا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم .

وروى عبد الله بن المغيرة عن أبيه قال :

صالحهم أبو عبيدة على أنصاف كنائسهم ومنازلهم وعلى رؤوسهم ، وألاّ يُمنَعوا من أعيادهم ، ولا يهدمون شيئاً من كنائسهم . صالح على ذلك أهل المدينة وأخذ سائرَ الأرض عَنوة .

وقيل : صالحوهم [٩١ / أ] على من فيها من جماعة أهلها على جزية دنانير مُسمّاة ، لا تزاد عليهم إن كثروا ، ولا تنقص منهم إن قلّوا . وأن للمسلمين فضول الدور والمساكن عنهم ، وأسواقها .

وقال ابن سراقة :

كان في كتاب صلح دمشق : هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق أني أمنتكم على دمائكم وأموالكم ومساكنكم وكنائسكم أن تهدم أو تسكن ما لم تحدثوا حدثاً ، أو تؤووا محدثا مغيلة .

وعن مَسْلَمة بن عبد الله الجهني عن عمه قال :

لما قدم عمر بن الخطاب الشام كان في شرطه على النصارى أن يشاطرهم منازلهم فيسكن فيها المسلمون ، وأن يأخذ الحيز القبلي من كنائسهم لمساجد المسلمين .

وعن سالم عن أبيه

أن عمر بن الخطاب أمر أن تهدم كلّ كنيسة لم تكن قبل الإسلام ، ومنع أن تُحدَث كنيسة ، وأمر ألا يظهر صليب خارجاً من كنيسة إلا كُسر على رأس صاحبه .

وعن أسلم مولى عمر

أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء أهل الجزية ألا يضعوا الجزية إلا على من جرت أو

مرّت عليه المَواسِي[1] وجزيتهم أربعون درهماً على أهل الورق منهم ، وأربعة دنانير على أهل الذهب . وعليهم أرزاق المسلمين من الحنطة مُدْيَين وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر مَن كان من أهل الشام وأهل الجزيرة ، ومَن كان من أهل مصر إردبّ لكل إنسان كل شهر . ومن الوَدَك[2] والعسل شيء لم نحفظه ، وعليهم من البزّ التي كان يكسوها أمير المؤمنين شيء لم نحفظه ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام ، وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعاً لكل إنسان . وكان عمر لا يضرب الجزية على النساء ، وكان يختم في أعناق رجال أهل الجزية .

[2] وفي حديث آخر :

فلما قدم عمر الشام شكَوا إليه وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنهم يكلفونا ما لا نطيق ، يكلفونا الدجاج والشاء . فقال : لا تطعموهم إلا مما تأكلون مما يحل لهم من طعامكم[3] .

وعن عكرمة

أن ابن عباس سئل : هل للعجم أن يحدثوا في أمصار العرب بنياناً أو شيئاً ، فقال : أيما مصر مصّرته العرب فليس للعجم أن يبنوا فيه كنيسة ، أو قال : بِيعة . ولا يضربوا فيه ناقوساً ، ولا يشربوا فيه خمراً ، ولا يدخلوه خنزيراً ، وأيّما مصر مصّره العجم [٩١ / ب] ففتحه الله على العرب ، فللعجم ما في عهدهم ، وعلى العرب أن يفَوا لهم بعهدهم .

وعن عبد الله بن عمر

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى على أهل الذمة بضيافة ثلاثة أيام للمسلمين ما يصلحهم من طعام وعلف دوابّهم .

قال الأوزاعي :

كتب عمر بن الخطاب في أهل الذمة أنّ مَن لم يُطق منهم فخفّفوا عنه ، ومَن عجز فأَعِينوه ، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين .

---

(١) أراد من بلغ الحُلُم من الكفار . وانظر اللسان : « وسي »

(٢) الوَدَك : اسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه . النهاية واللسان : « ودك » .

(٢ ـ ٣) ما بين الرقمين في هامش الأصل .

وعن ضَمْرة بن جندب قال :

قال عمر بن الخطاب في أهل الذمة : سَمّوهم ولا تكنوهم ، وأذِلّوهم ولا تَظلِموهم ، وإذا جمعتكم وإياهم طريقٌ فألجئوهم إلى أضيقها .

وعن عبد الملك بن عمير

أنّ عمر بن الخطاب اشترط على أنباط الشام للمسلمين أن يُصيبوا من ثمارهم وتينهم ولا يحملوا .

وعن الأحنف بن قيس

أن عمر بن الخطاب اشترط على أهل الذمة إصلاح القناطر ، والضيافة يوم وليلة ، وإن قُتل رجل من المسلمين في أرضكم فعليكم ديته .

وعن ابن أبي نجيح قال :

سألت مجاهداً : لِمَ وضع عمر على أهل الشام الجزية أكثر مما وضع على أهل اليمن ؟ فقال : لليسار .

وعن الحكم بن عمر الرُّعَيني قال :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمصار الشام : لا يمشينّ نصراني إلا مفروق الناصية ، ولا يلبسنّ قَباء ، ولا يمشينّ إلا بزنار من جلد ، ولا يلبسن طيلساناً ، ولا يلبسنّ سراويلا ذات خَدَمة[1] ، ولا يلبسَنّ نعلاً ذات عَذَبة[2] ، ولا يركبَنّ على سرج ، ولا يوجد في بيته سلاح إلا انتُهب .

---

(١) أراد سراويل ذات ساقين . وانظر اللسان والنهاية : « خدم » .

(٢) عَذَبة شراك النعل : المرسلة من الشراك . اللسان : « عذب » .

ذكر حكم الأرضين وما جاء فيه

قال : لا خلاف بين الأئمة أنّ كل بلد صولح أهلهُ على الخراج المعلوم أنـه لا يجوز تغيير ما استقر عليـه . وقـد صح أنّ عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه أمضى لأهل مـديـنـة دمشـق الصلح ، لكنه لما أشكل عليه الحال في الفتح وهل سبق مَن دخلها عَنوة أو مَن دخلها بالصلح أمضاها كلها صلحاً [٩٢ / أ] لأهلها ، وقَبل منهم شروطـاً بـذَلوهـا ، فـأمّـا مـا ظهر عليـه المسلمون عَنوة من أعمالها ونواحيها ، وحوَوْه بـالقهر والغلبـة من أرضيهـا فقـد اختُلف فيـه : فـذهب عمر وعلي ومعـاذ بن جبل إلى أنهـا وَقْف على المسلمين ، لا تقسم بين مَنْ غلب عليهـا من الغانمين ، وتجرى غلّتها عليهم وعلى مَنْ بعدهم . وذهب الزبير بن العوّام وبلال بن ربـاح إلى أنها ملك للغانمين ، فتقسّم بينهم على ما يراه الإمام . وذهب أبو حنيفـة وسفيـان الثوري إلى أن الإمام في ذلك بالخيار ، إن شاء وقفها ، وإن شاء قسّمها ووزّعهـا على مـا يراه بين مَنْ غَنِمها . وذهب مالك إلى أنها تصير وقفاً بنفس الاغتنـام . ولا يكون فيهـا اختيـار للإمـام . وذهب الشافعي إلى أنه ليس للإمام أن يقِفهـا بل يلزمـه أن يقـسمهـا إلا أن يتفق على وقفهـا المسلمون ، فيرضى بذلك مَن غنمها .

(١) فأما ما روي عن عمر(١) ـ وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال :

لولا آخر المسلمين ما فتحتُ عليهم قرية إلا قسمتها كما قسّم رسول الله ﷺ خيبر .

وعنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول :

أما والذي نفسي بيده ، لولا أن أترك آخر النـاس ببّـانـاً ليس لهم شيء مـا فُتحت عليَّ قريةٌ إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، ولكن أتركها لهم جِراثة .

ومعنى (ببّاناً) أي بَاجاً واحداً وشيئاً واحداً .

وعن يزيد بن أبي حبيب قال :

كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق : أما بعد . فقد بلغني كتابك ، تذكر أنّ الناس

(١ ـ ١) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل .

سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عزّ وجلّ عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به عليك إلى العسكر من كُراع أو مال فاقسمه بين مَن حضر من المسلمين . واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين مَن حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء .

وعن إبراهيم السلمي قال :

لما افتتح [٩٢ / ب] المسلمون السواد قالوا لعمر : اقسمه بيننا فإنا فتحناه عَنوة . فأبى وقال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه . قال : فأقر أهل السواد في أرضيهم ، وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضيهم الطُسْق .

قال أبو عبيدة :

يعني بالطسْق : الخراج .

وعن عتبة بن فرقد قال :

اشتريت عشرة أجربة من أرض السواد على شاطئ الفرات لقَضْب[1] لدوابيّ فذكرت ذلك لعمر فقال لي : اشتريتها من أصحابها ؟ قلت : نعم . قال : رُحْ إليّ فرُحتُ إليه فقال: يا هؤلاء ، أبعتموه شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : ابتغ مالك حيث وضعته .

[2] وأما ما روي عن علي رضي الله عنه[2] ـ وعن حارثة بن مضرّب عن عمر

أنه أراد أن يقسم السواد بين المسلمين فأمر أن يُحصوا ، فوجد الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين ، فشاور في ذلك فقال له علي بن أبي طالب : دعهم يكونوا مادةً للمسلمين فتركهم . وبعث عليهم عثمان بن حُنَيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثني عشر ، وبهذا كان يأخذ سفيان بن سعيد وهو معروف من قوله إلا أنه كان يقول : الخيار في أرض العَنوة إلى الإمام إن شاء جعلها غنيمة فخمّس وقسّم ، وإن شاء جعلها فيئاً عاماً للمسلمين ولم يخمّس ولم يقسم .

قال أبو عبيد :

وليس الأمر عندي إلا على ما قال سفيان إن الإمام مُخير في العَنوة بالنظر للمسلمين والحيطة عليهم بين أن يجعلها غنيمة أو فيئاً .

---

(١) شجر ترعاه الإبل . انظر اللسان : « قضب »

(٢ ـ ٢) مابين الرقمين في هامش الأصل وبجانبه « صح »

[1] **وأما ما روي عن معاذ**[1]

ولما قدم عمر الجابية أراد قسم الأرضين فقال له معاذ : والله إذن ليكونَن ما تكره ، إنك إن قسمتها اليوم كان الريع العظيم في أيدي القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتي مِن بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً . فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم . فصار عمر إلى قول معاذ .

[1] **وأما ما روي عن الزبير**[1] **قال سفيان بن وهب الخولاني :**

لما افتتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال : يا عمرو بن العاص ، [٩٣ / أ] اقسمها ، فقال عمرو : لا أقسمها ، فقال الزبير : والله لتقسمَنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، قال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين ، فكتب إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن أقرّها حتى يغزو منها حَبَلُ الحَبَلة[2] .

[3] **وأما ما روي عن بلال**[3] **ـ وعن نافع مولى ابن عمر قال :**

أصاب الناس فتح الشام فيهم بلال ، قال : وأظنه ذكر معاذ بن جبل فكتبوا إلى عمر بن الخطاب : إن هذا الفيء الذي أصبنا ، لك خمسه ، ولنا ما بقي ، ليس لأحد منه شيء ، كما صنع النبي ﷺ بخيبر ، فكتب عمر : ليس عليّ ما قلتم ، ولكني أقِفها للمسلمين ، فراجعوه الكتاب وراجعهم ، يأبَون ويأبى ، فلما أبَوا قام عمر فدعا عليهم فقال : اللهم ، اكفني بلالاً وأصحاب بلال . قال : فما حال الحول عليهم حتى ماتوا جميعاً .

قال البيهقي :

قوله إنه « ليس عليّ ما قلتم » ليس يريد إنكار ما احتجوا به من قسمة خيبر ، ويشبه أن يريد به : ليست المصلحة فيما قلتم ، وإنما المصلحة في أن أقِفها للمسلمين ، وجعل يأبى قسمتها لما كان يرجو مِن تطييبهم ذلك له ، وجعلوا يأبَوْن لما كان لهم من الحقّ ، فلما أبَوْا لم يبرم عليهم الحكم بإخراجها من أيديهم ، ووقفها ، ولكن دعا عليهم حيث خالفوه فيما رأى من المصلحة ، وهم لو وافقوه وافقه أفناء الناس وأتباعهم .

(١ ـ ١) مابين الرقمين في هامش الأصل وبجانبه « صح » .

(٢) « يريد : حتى يغزو منها أولاد الأولاد ويكون عاماً في الناس ... » انظر اللسان : « حبل » .

(٣ ـ ٣) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل

وفي رواية أن بلالاً قال :

لتقسمَنها أو لنضاربنّ عليها بالسيف ، فقال عمر : لولا أني أترك الناس بيّاناً ، لا شيء لهم ما فتحت قرية إلا قسمتها سُهاناً كما قسم رسول الله ﷺ خيبر .

زاد البيهقي والخشنامي إلى آخر الحديث :

ولكن أتركها لمن بعدهم جِزيةً يقتسمونها .

قال البيهقي :

وفي أحاديث عمر التي لم يَر فيها القسمة دلالةٌ على أن عمر كان يرى من المصلحة إقرار الأراضي ، وكان يطلب استطابة قلوب الغانمين ، وإذا لم يرضَوا بتركها فالحجة في قسمه قائمة بما ثبت عن رسول الله ﷺ في قسمة خيبر [٩٣ / ب] وقد خالف الزبير بن العوام وبلال وأصحابه ، ومعاذ ، على شكٍ من الراوي ، عُمرَ فيما رأى . والله أعلم .

حدث أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال :

حضرتُ عند أبي الحسن أحمد بن محمد بن مدبّر ، أُحضَر ذلك المجلسَ هشامَ بن عمار ودحيماً ومحمود بن خالد وعبد الله بن ذكوان وأحضرني فيمن أحضر فقال : إنكم لا تُتّهمون على الفيء ، وإنما يُتّهم عليه أهل البدع ، لأنكم تعلمون أنه ينفق في بيضة الإسلام وفي حج البيت ومجاهدة العدو وأمن السبل ، فتكلم يومئذ أحمد بن محمد بن مدبر في ذلك فأبلغ ، وقال : أخبروني عن مدائن الساحل : هل ترَون في مستغِلّها حقاً للفيء ؟ فقال : لا حق للفيء في مستغِلّها . وأعلموه أن دمشق فتحت صلحاً ، وأن صلح حصونها بصلحها من أجل أنها الأم ، وإن ساحلها تبع لها .

قال أبو زرعة :

وأعلمته يومئذ أن بعلبك صلح ، وأن الوليد بن مسلم قد أثبت صلحها عن إسماعيل بن عياش . فقال ابن مدبّر للمشيخة : هكذا تقولون ؟ قالوا : نعم ، فقبِل ذلك منهم .

قال أبو زرعة :

وسألني ابن مدبر عن بيع الكلأ فأعلمته أن الأوزاعي يقول : الناس فيه أسوة ، فتظلم إلى ابن مدبر رجل من الرعية على رجل رعى كلأ له ، فلم يُعده . وقال : فقيه أهل الشام لا يرى لك حقاً .

قال أبو زرعة :

ورأيت أحمد بن محمد بن مدبر شديداً في الأرض ، مذهبه فيها مذهب السَلَف في إيقافها :

قال : فحدثته بحديث أرويه عن الهيثم بن عمران قال :

كتب هشام بن عبد الملك إلى كلثوم بن عياض وبلغه أن خالداً القسري اشترى أرضاً من أرض الغوطة بغير إذنه فقال : أتشتري أرضاً بغير إذني ؟ ! فأمر سالماً الكاتب أن يكتب إلى كلثوم بن عياض : عزمت عليك ألاّ تضَع كتابي من يدك حتى تغرّم الوليد بن عبد الرحمن عاملي على الغوطة أربع مئة دينار ، وتبعث بها إليّ إذ اشتُريت أرضٌ بغير إذنه ، وكتب إلى كلثوم أن اضرب وكيلَيْ القسري مئة مئة . وأطِفْ بهما ، ومُرْ من ينادي عليهما : هذا جزاء من اشترى أرضاً بغير إذن [٩٤ / أ] أمير المؤمنين . وذلك أنه وجد فيما وضع عمر بن عبد العزيز حين استُخلف قال : هل نَهتِ الولاةُ قبلي عن شراء الأرض من أهل الذمّة ؟ قالوا : لم يَنْهَوا . قال : فإني قد سلمت لمن اشترى ، ولكن من اليوم أنهى عن بيعها ، إنها أرض المسلمين ، دفعت إلى أهل الذمة على أن يأكلوا منها ويؤدّوا خراجها ، وليس لهم بيعها ، ومن اشترى بعد اليوم ، فيعاقَب البَيّع والمشتري ، وتردّ الارض إلى النبطي ، ويؤخذ الثمن من المسلم ، فيجعل في بيت المال ، لما انتهكوا من المعصية ، ويُدخل المال الذي أخذ النبطي بيت مال المسلمين لما وضع عمر في ذلك الديوان فهي المدة . ما كان قبل المدة ، يعني قبل عمر بن عبد العزيز ، وما كان بعد المدة ، يعني بعد عمر .

قال أبو زرعة :

فاستحسن أحمد بن محمد بن مدبر هذا الحديث ، وأنكر العقوبة ، فقلت له : لا تبتذله رأيه ، وأخبرته بحديث رويته عن إسحاق بن مسلم ، وكان عاملاً لعمر بن عبد العزيز على خراج الأردن ، فكتب إلى عمر : أما بعد . فإني وجدت أرضاً من أرض أهل الذمة بأيدي أناس من المسلمين فما يرى أمير المؤمنين فيها ؟ فكتب إليه أن تلك أرض أوقفها أوّلُ المسلمين على آخرهم ، فامنع ذلك البيع . إن شاء الله والسلام .

وحدثته ما رويته عن القاسم بن زياد وكان عاملاً لعمر بن عبد العزيز على الغوطة ، فكتب إلى عمر : أما بعد . فإنَّ قِبَلنا أرضاً من أرض أهل الذمة بأيدي ناس من المسلمين قد

ابتاعوها منهم ، وهم يؤدّون العشر مما يخرج منها ، أفضل مما كان عليها ، فما يرى أمير المؤمنين ؟ قال : وأنا أريد بَدَا وذوات بدا - أرضاً من أرض الجبل اتخذها عمر ، فكتب إليه عمر أن تلك أرضٌ حبَسها أول المسلمين على آخرهم ، فليس لأحد أن يتموّلها دونهم ، فامنع ذلك البيع إن شاء الله .

قال أبو زرعة :

فحدثت بهذا الحديث عبد الملك بن الأصبغ من أصحاب الوليد بن مسلم فأخبرني أن عمر بن عبد العزيز لم يمت عن ضيعة بقيت في يده غير بَدَا وحزين[1] من أرض بعلبك ، وأنه أورثها عُشراً [٩٤ / ب] وعدلها على ذلك أبو جعفر المنصور فصارت بأيدي ورثة عمر .

قال أبو زرعة :

فقال لي أحمد بن محمد بن مدّبر : قد جاء فيها : من أخذ أرضاً بجزيتها فقد أتى بما يأتي به أهل الكتاب من الذل والصغار .

وأما قول الثوري فقد روي عن سفيان بن سعيد قال :

إذا ظهر على بلاد العدو فالإمام بالخيار إن شاء قسم البلاد والأموال والسبي ، بعد ما يُخْرِج الخُمس من ذلك ، وإن شاء مَنَّ عليهم فترك الأرض والأموال ، وكانوا ذمّةً للمسلمين كما صنع عمر بن الخطاب بأهل السواد ، فإن تركهم صاروا عهداً توارثوا وباعوا أرضهم .

قال يحيى بن آدم ـ أحد رواة هذا الحديث : وسمعت حفص بن غياث يقول : تُباع ويُقضى بها الدَّين ، وتقسم في المواريث[2] .

وأما قول مالك

فإنه ذهب إلى أنّ مَن أسلم مِن أهل الصلح فهو أحق بماله وأرضه ، وأما أهل العنوة الذين أخذوا عنوة فمن أسلم منهم فإن أرضه وماله للمسلمين ، لأن أهل العنوة قد غُلبوا على بلادهم وصارت فيئاً للمسلمين ، وأما أهل الصلح فإنهم قوم مَنَعوا أموالهم وأنفسهم حتى صالحوا عليها ، فليس عليهم إلا ما صالحوا عليه .

---

(١) تحت اللفظة في الأصل إشارة إهمال ، ولعلها جِبْرين : قرية بين دمشق وبعلبك . معجم البلدان .

(٢) انظر كتاب الخراج ص ٤٧

وروى عنه يحيى بن عبد الله بن بُكَير قال : قال مالك :

كل أرضٍ فتحت صلحاً فهي لأهلها ، لأنهم مَنَعُوا بلادهم حتى صالحوا عليها ، وكل بلاد أُخذت عَنوةً فهي فيءٌ للمسلمين[1] .

وقال يحيى بن آدم :

كل أرض كانت لعَبَدة الأوثان من العجم أو لأهل الكتاب من العجم أو العرب ممن يقبل منهم الجزية - فإن أرضهم أرض خراج إن صالحوا على الجزية - على رؤوسهم ، والخراج على أرضيهم ، فإن ذلك يقبل منهم ، وإن ظهر عليهم المسلمون فإن الإمام يقسم جميع ما أجلبوا به في العسكر من كُراع أو سلاح أو مال بعدما يُخمّسه ، وهي الغنيمة التي لا يُوقَف شيء منها ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ ما غَنِمْتُم من شيء فأنّ للهِ خُمُسَهُ ﴾[2] [٩٥ / أ] وأما القرى والمدائن والأرض فهي فيء كما قال الله عز وجل : ﴿ ما أفاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى ﴾[3] فالإمام بالخيار في ذلك : إن شاء وقفه وتركه للمسلمين ، وإن شاء قسمه بين مَن حضره[4] .

قال أبو بكر الخطيب[5] :

اختلف الفقهاء في الأرض التي يغنمها المسلمون فيقهرون العدو عليها ، فذهب بعضهم إلى أن الإمام بالخيار بين أن يقسمها على خمسة أسهم ، فيعزل منها السهم الذي ذكره الله تعالى في آية الغنيمة فقال : ﴿ واعْلَمُوا أنَّ ما غَنِمْتُم مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ﴾ الآية . ويقسم السهام الأربعة الباقية بين الذين افتتحوها ، فإن لم يختر ذلك وقف جميعها ، كما فعل عمر بن الخطاب في أرض السواد .

وممن ذهب إلى هذا القول سفيان بن سعيد الثوري وأبو حنيفة النعمان بن ثابت .

وقال مالك :

تصير الأرض وقفاً بنفس الاغتنام ، ولا خيار فيها للإمام .

---

(١) قارن مع ما ورد في كتاب الأموال ص ٢٢٨ رقم ٤٣٥

(٢) سورة الأنفال ٨ / ٤٠

(٣) سورة الحشر ٥٩ / ٦

(٤) انظر كتاب الخراج ص ٢٧

(٥) انظر تاريخ بغداد ج ١ / ٩

وقال **محمد بن إدريس الشافعي** :

ليس للإمام إيقافها ، وإنما يلزمه قسمتها ، فإن اتفق المسلمون على إيقافها ورضَوا أن لا تقسم جاز ذلك ، واحتجّ مَن ذهب إلى هذا القول بما روي عن عمر بن الخطاب أنه قسم أرض السواد بين غانمها وحائزها ، ثم استنزلهم بعد ذلك عنها ، واسترضاهم منها ، ووقفها .

فأما الأحاديث التي وردت عن عمر أنه لم يقسمها فإنها محمولة على أنه امتنع من إمضاء القسم واستدامته بأن انتزع الأرض من أيديهم ، أو أنه لم يقسم بعضَ السواد وقسم بعضه ، ثم رجع فيه .

قال أبو عبيد[1] :

وجدنا الآثار عن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده قد جاءت في افتتاح الأرضين بثلاثة أحكام : أرض أسلم عليها أهلها فهي لهم ، ملك أيمانهم ، وهي أرض عُشْر ، لا شيء عليهم فيها غيره ، وأرض اُفتُتحت صلحاً على خراج معلوم فهي على ما صولحوا عليه ، لا يلزمهم أكثر منه ، وأرض أخذت عَنوة فهي التي اختلف المسلمون فيها ، فقال بعضهم : سبيلها سبيل الغنيمة تُخمَّس ، وتقسم ، فيكون أربعة أخماسها خِططاً بين الذين افتتحوها خاصة ، ويكون الخمس الباقي [٩٥ / ب] لمن سمّى الله تعالى ، وقال بعضهم : بل حكمها والنظر فيها للإمام : إن رأى أن يجعلها غنيمة فيخمّسها ويقسمها كما فعل رسول الله ﷺ بخيبر ، فتلك له ، وإن رأى أن يجعلها فيئاً فلا يخمّسها ولا يقسمها ، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ، ما بقوا كما صنع عمر بالسواد ، فعل ذلك .

فأما حكم الدور التي هي داخل السور فقد روي عن بنت واثلة قالت : سمعت رجلاً يقول لواثلة : أرأيت هذه المساكن التي أقطعها الناس يوم فتحوا مدينة دمشق أماضِيَة هي لأهلها ؟ قال : نعم . قال : فإنّ ناساً يقولون هي لهم سكنى ، وليس لهم بيعُها ولا إتلافها بوجه من الوجوه ، من صدقة ولا مهر ولا غير ذلك . فقال واثلة : ومن يقول ذلك ! بل هي لهم مُلك ثابت ، يسكنون ، ويمهرون ، ويتصدقون .

وأما القطائع فقد روي عن عامر قال : لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا علي ، وأول من أقطع القطائع عثمان ، وبيعت الأرضون في خلافة عثمان .

---

(١) انظر كتاب الأموال ٧٧

وروي عن أبي عمرو وغيره

أن عمر وأصحاب رسول الله ﷺ أجمع رأيهم على إقرار ما كان بأيديهم من أرضهم يعمُرونها ويؤدّون منها خَراجها إلى المسلمين ، فمن أسلم منهم رفع عن رأسه الخراج ، وصار ما كان في يده من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته ، يؤدّون عنها ما كان يؤدّى من خراجها ، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له في ديوان المسلمين ، وصار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ولا يرَون أنه وإن أسلَم أوْلى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل بيته وقرابته ، لا يجعلونها صافية للمسلمين ، وسمّوا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين ، ويرَون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شِرى ما في أيديهم من الأرض كرهاً ، لما احتجوا به على المسلمين من [أن][1] إمساكهم كان عن [٩٦ / أ] قتالهم وتركهم مظاهَرة عدوّهم من الروم عليهم ، فهاب لذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، وولاة الأمر قسمهم ، وأخذوا ما كان في أيديهم من تلك الأرضين ، وكرهوا للمسلمين أيضا شراءها طوعاً لما كان من ظهور المسلمين على البلاد ، وعلى من كان يقاتلهم عنها ، ولتركهم ، كان ، البعثة إلى المسلمين وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم . قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعاً بما كان من إيقاف عمر وأصحابه الأرض محبوسةً على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لا تُباع ولا تُورَث قوةً على جهادِ مَن لم يظهروا عليه بعدُ من المشركين ، ولما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد [لـ][1] قوله عزّ وجلّ : ﴿ وقاتِلُوهُمْ حتّى لا تكُونَ فِتْنَة ﴾[2] إلى تمام الآية .

قال : فقلت لغير واحدٍ من مشيختنا ممن كان يقول هذه المقالة : فمن أين جاءت هذه القطائع التي بين ظهراني القرى الراخية والمزارع التي بِيَد غيرِ واحد من الناس ؟ فقال : إن بَدْء هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم إذ كانت ظاهرة على الشام كانت هذه القرى التي منها هذه القطائع ، كانت من الأرضين التي كانت بأيدي أنباط القرى ، فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع ، فلحقت بأرض الروم ، ومن قُتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبّلها[3] والي المسلمين كما يقبّل الرجل مزرعته .

(١) عن تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٩٤ ـ ٥٩٦

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٩٣ ، والأنفال ٨ / ٣٩

(٣) قبّلت العامل تقبيلاً ، وتقبّله العامل تقبّلا : تكفّل . اللسان : « قبل » .

قالوا : فمنها أندركَيْسان يعني بدمشق . وقبيس بالبلقاء ، وما على باب حمص من جبعاثا وغيرها .

قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبّلة ، تدخل قِبالتها بيت المال ، فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقوم عليه من وفود الأجناد ورسل [٩٦ / ب] أمرائهم ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، فسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وَصف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً .

قالوا : فلم تزل بِيَد معاوية حتى قتل عثمان ، وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرّها على حالها ، ثم جعلها من بعده حُبُسا على فقراء أهل بيته والمسلمين .

قالوا : ثم إن ناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه إياها ، ففعل ، فمضت لهم أموالاً يبيعون ، ويمهرون ، ويورثون .

فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية قد أقطع منها أحداً شيئاً سأله أشراف الناس القطائع منها ، ففعل .

قالوا : إن عبد الملك سئل القطائع ، وقد مضت تلك المزارع لأهلها ، فلم يبق منها شيء ، فنظر عبد الملك إلى أرضٍ من أرض الخراج قد باد أهلها ، ولم يتركوا عقباً أقطعهم منها ، ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ، ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عُشراً ، ورآه جائزاً له مثل إخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة .

قالوا : فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً . فسأل الناسُ عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من أرض القرى التي بأيدي أهل الذمة ، فأبوا ذلك عليهم ، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شرى الأرضين من أهل الذمة فأذِنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال ، وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعُفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الأرضين ، ووضعوا خراج تلك الأرضين عمن باعها منهم ، وعن أهل قراهم ، وصيّروها لمن اشتراها يؤدي العشر ، يبيعون ويمهرون [٩٧ / أ] ويُورّثون .

قالوا : فلما وليَ عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان ، فلم يردّها عمر على ما كانت عليه صافية ، ولم يجعلها خراجاً ، وأبقاها لأهلها تؤدي العشر .

قال : وأعرض عمر عن تلك الأشرية بالإذن لأهلها فيها ، لاختلاط الأمور فيها ، لما وقع فيها من المواريث ، ومهور النساء ، وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك . قال : وأعرض عن الأشرية التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر ، لما وقع في ذلك من المواريث واختلاط الأمور ، وجعل الأشرية وغير الأشرية سواء ، وأمضاه لأهله ولمن كان في يديه كالقطائع للأرض عشراً ليس عليها ولا على مَن صارت إليه بميراث أو شراء جزيةٌ .

قالوا : وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس في سنة مئة وأعلمهم أنه لا جزية عليها ، وأنها أرض عشر . وكتب أنّ مَن اشترى شيئاً بعد سنة مئة فإن بيعه مردود ، وسمّى سنة مئة المدة ، فسماها المسلمون بعده : المدة . فأمضى ذلك في بقية ولايته ، ثم أمضاه يزيد وهشام ابنا عبد الملك .

قالوا : فتناهى الناس عن شراها بعد سنة مئة بسُنيّات ، ثم اشترَوا أشرية كثيرة كانت بأيدي أهلها ، يؤدون العشر ، ولا جزية عليها .

فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رُفعت إليه تلك الأشرية وأنها تؤدي العُشر ، ولا جزية عليها ، وأن ذلك أضرّ بالخراج وكسره ، فأراد ردّها إلى أهلها . قيل له : قد وقعت في المواريث والمهور واختلط أمرها ، [فـ][1] بعث المعدّلين إلى كُوَر الشام سنة أربعين أو إحدى وأربعين منهم : عبد الله بن يزيد إلى حمص ، وإسماعيل بن عياش إلى بعلبك ، في أشباه لهم ، فعدّلوا تلك الأشرية على مَن هي بيده شرى أو ميراث أو مهر ، فعدّلوا ما بقي بأيدي الأنباط من بقية الأرض على تعديل مُسمّى ، [٩٧ / ب] ولم تعدل الغوطة في تلك السنة ، وكان من كان بيده شيء من تلك الأشرية من أهل الغوطة يؤدي العشر حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، هضاب بن طوق ،

---

(١) عن تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٩٤ ـ ٥٩٦

ومُحرز بين زُريق ، فعدّلوا الأثرية ، وأمرهم ألاّ يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأثرية خراجاً ، وأن يُمضوها لأهلها عشريّة ، ويضعوا الخراج على ما بقي منها بيد الأنباط وعلى الأثرية المحدثة من بعد سنة مئة إلى السنة التي عدّل فيها .

حدث سليان بن عتبة

أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله في مقدمه الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومئة عن سبب الأرضين التي بأيدي أبناء الصحابة ، ويذكرون أنها قطائع لآبائهم قديمة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لمّا أظهر المسلمين على بلاد الشام ، وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص كرهوا أن يدخلوها دون أن يَتمّ ظهورهم وإثخانهم في عدوّ الله عسكروا في مرج بردى ما بين المِزة وبين مرج شِعبان جنبي بردى ، وكانت مروجا مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها ليست لأحد منهم ، فأقاموا بها ، حتى أوطأ الله المشركين ذلاً ، وقهراً ، وأحيا كل قوم مَحلّتهم ، وهيّؤوا فيها بناء ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فأمضاه لهم ، فبنَوْا الدور ، ونصبوا الشجر ، ثم أمضاه عثمان ، ومن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين ، فقال : قد أمضيناه لأهله .

وأمّا الصوافي التي استصفيت عن بني أمية

فقد روي عن همّام بن مُسلم قال :

سئل مالك بن أنس عن دارٍ من دور الصوافي ، أُسكنُها ؟ قال : ما أدري . وسألت ابن أبي ذئب فقال : ما أدري ، وسئل عبّاد بن كَثير فقال : في هذا ما فيه . وسئل سفيان الثّوْري فقال : لا تنزلها ، فقال له الرجل : فإن أبي في صافية ويأبى أن يخرج منها فقال سفيان : فارق أباك ، قيل : فإن كان فيها مسجد ، قال : فلا تصل فيه . قال : فإن كان فيها مريض ؟ قال : فلا تَعُدْه . قلت : فإن كنت أعرف أهلها أشتريها منهم ؟ قال : نعم .

وروي عن سفيان الثوري [٩٨ / أ] قال :

إن كانت ، يعني الصوافي ، لِبَني أمية حلالاً فهي على بني هاشم حرام ، وإن كانت على بني أمية حراماً فهي على بني هاشم أحرم وأحرم .

ذكر بعض ما ورد من الملاحم والفتن

يتعلّق بدمشق

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

مَنعَتِ العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مدها ودينارها[1] ، ومَنعت مصر إردَبّها ودينارها[1] ، وعُدتم من حيث بدأتم . قالها ثلاثا . شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه .

قال أبو عبيد الهروي في هذا[2] الحديث :

قد أخبر النبي ﷺ بما لم يكن ، وهو في علم الله كائن ، فخرج لفظه على لفظ الماضي لأنه ماضٍ في علم الله عزّ وجلّ . وفي إعلامه بهذا قبل وقوعه ما دل على إثبات نبوّته ، ودلّ على رضاه من عمر ما وظّفه على الكفرة من الجِزَى في الأمصار . وفي تفسير المنع وجهان : أحدهما أن النبي ﷺ علم أنهم سيُسلمون فيسقط عنهم ما وُظف عليهم بإسلامهم ، فصاروا مانعين بإسلامهم ما وُظف عليهم . والدليل على ذلك قوله في الحديث : وعُدتم من حيث بدأتم ، لأن بدْ أهم في علم الله ، وفيما قدر . وفيما قضى أنهم سيسلمون ، فَعَادوا من حيث بدؤوا . وقيل في قوله : منعت العراق درهمها : إنهم يرجعون عن الطاعة . قال : وهذا وجه ، والأول أحسن .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

لا تقوم الساعة حتى يغلب أهل المُدْي على مُدْيهم ، وأهل القفيز على قفيزهم ، وأهل الإردبّ على إردبّهم ، وأهل الدينار على دينارهم ، وأهل الدرهم على درهمهم ، ويرجع الناس إلى بلادهم .

(١ ـ ١) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل . وبعده « صح » .

(٢) ورد نص الحديث في كتاب الأموال ص ١٠١ . وسوف يرد تفسير له غير هذا التفسير .

قال أبو[3] عبيد :

فمعناه والله أعلم : إن هذا كائن . وإنه سيمنع بعد في آخر الزمان ، فاسمع قول رسول الله ﷺ في الدرهم والقفيز كما فعل عمر بأهل السواد ، فهو عندي الثبت . وفي تأويل فعل عمر أيضا حين وضع الخراج ، ووَظّفه على أهله من العلم أنه جعَله شاملاً عاماً على كل من لزمته المساحة [٩٨ / ب] وصارت الأرض في يده من رجل أو امرأة أو صبيّ أو مُكاتب أو عبد ، فصاروا متساوين فيها ، لم يُسْتَثن أحد دون أحد . ومما يبين ذلك قول عمر في دِهقانة نهر المَلِك[1] حين أسلمت فقال : دعوها في أرضها ، تؤدي عنها الخراج ، فأوجب عليها ما أوجب على الرجال .

وفي تأويل حديث عمر من العلم إنما جعل الخراج على الأرضين التي تغلّ من ذوات الحبّ والثمار ، والتي تصلح للغلّة من العامر والغامر ، وعطل منها المساكن والدور ، التي هي منازلهم ، فلم يجعل عليهم فيها شيئاً .

وعن أبي نَضْرة قال :

كنا عند جابر بن عبد الله فقال : يوشك أهل العراق ألا يجبى إليهم قفيز ولا درهم ، قلنا : من أين ذلك ؟ قال : من قِبَل العجم يمنعون ذلك . ثم قال : يوشك أهل الشام ألا يُجبى إليهم دينار ولا مُدي ، قلنا : من أين ذلك ؟ قال : من قِبَل الروم يمنعون ذلك ، ثم أسكت[2] هُنيهة ثم قال : قال رسول الله ﷺ : يكون في آخر الزمان خليفة يحثي المال حَثْياً ، لا يعده عداً .

قال الجُريري : فقلت لأبي نَضْرة وأبي العلاء : أترياته عمر بن عبد العزيز ؟ فقالا : لا .

---

(١) انظر كتاب الأموال ص ١٠٢ ، فقول أبي عبيد هنا جاء تفسيرا لحديث أبي هريرة السابق « منعت العراق » . وليس تفسيراً للحديث « لا تقوم الساعة » .

(٢) نهر الملك : كورة واسعة ببغداد . معجم البلدان .

(٣) أي أطرق . اللسان : « سكت » .

وعن عبد الله بن عمرو[1] قال :

تُجيِّش الروم فيُخرجون أهل الشام من منازلهم ، فيستغيثون بكم ، فتغيثونهم ، فلا يتخلف عنهم مؤمن ، فتقتتلون ، فيكون بينكم قتل كثير ثم تهزمونهم فينتهون إلى أسطوانة ، إني لا أعلم مكانها عليهم ، عندها الدنانير ، فيكالونها بالتراس فيلقاهم الصريخ . إن الدّجال يحوش ذراريكم فيلقون ما في أيديهم ، ثم يأتون .

وعن أبي الدرداء أنه قال :

لَيُخرجنّكم الروم من الشام كَفْراً كفراً حتى يوردوكم البلقاء . كذلك الدنيا تبيد وتفنى ، والآخرة تدوم وتبقى .

وعن أبي هريرة قال :

يا أهل الشام ، لَيُخرجنّكم الروم منها كَفراً كَفراً حتى تلحقوا بسُنبُكٍ من الأرض . قيل : وما ذاك السُنبُك ؟ قال : حِسْمى[2] جذام ، ولَتسيرَنّ الروم على كوادنها ، متعلقي جعابها بين بارق[3] [٩٩ / أ] ولعْلَع .

وعن خالد أنه قال :

لا يذهب الليل والنهار حتى يطرُد الروم أهل الشام من الشام ، فيموت منهم ناس كثير من العيال بالفلاة جوعاً وعطشاً .

وعن الضحاك بن مُزاحم قال :

هلاك دمشق نزول السفياني بين أظهرهم ، ثم الروم .

حدث الصُّنابحي أنه سمع كعباً يقول :

سيُعرَك العراق عرك الأديم ، وتُفَتّ مصر فتّ البعر .

ورُوي عن واهب المعافري أنه قال :

وتُشَقّ الشام شقّ الشعرة .

---

(١) هذا الخبر غير موجود في مخطوطة الظاهرية .

(٢) حِسْمى لجذام : جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل . معجم البلدان .

(٣) بارق : ماء بالعراق من أعمال الكوفة . ولَعْلَع : منزل بين البصرة والكوفة ، بينه وبين بارق عشرون ميلاً ، معجم البلدان

قال عمر بن يزيد النصري :

يقتل أُصَيْهب قريش في دمشق ، ومعه سبعون صِدّيقاً .

وكانوا يقولون : أسعد الناس بالرايات السود من أهل الشام أهل حمص ، وأشقى الناس بالرايات السود من أهل الشام أهل دمشق ، وأسعد الناس بالرايات الصفر من أهل الشام أهل دمشق ، وأشقى الناس بالرايات الصُفر من أهل الشام أهل حمص .

قال خالد بن معدان :

يهزم السفياني الجماعة مرتين ثم يهلك . وقال : لا يخرج المهدي حتى يُخسَف بقرية بالغوطة تسمى حَرستا .

ذكر بعض أخبار الدجال

وعن النُّواس بن سَمعان الكِلابي قال :

ذكر رسول الله ﷺ الدجال فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه في طائفة من النخل فقال : غير الدجال أخوَفُني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه شابّ قَطَط ، عينه قائمَة يشبه عبد العزى بن قطن ، فمن رآه منكم فليقرأ فاتحة الكتاب وفاتحة سورة أصحاب الكهف ، ثم قال : إنه يخرج من خَلة ما بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وشمالاً ، يا عباد الله اثبتوا ، قلنا : يا رسول الله ، مالَبثُه في الأرض ؟ قال : أربعين يوماً ، يومٌ كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم [٩٩ / ب] قلنا : يا رسول الله ، أرأيت ذلك اليوم الذي كالسنة يكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له . قلنا : يا رسول الله ، ما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون ، ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتُنْبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت دَراً ، وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر ، ثم يأتي على القوم فيدعوهم ، ويردون عليه قوله ، فينصرف عنهم تتبعه أموالهم ، فيصبحون مُمحلين ليس بأيديهم شيء ، يُمّر بالخَربَة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فينطلق فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف ، ويقطعه جَزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ، يتهلل وجهه يضحك . فبينا هو كذلك إذ بُعث المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين أو مبرودتين ، واضعٌ كفيّه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسَه قطر . وإذا رفعه تحدّر منه كجمان لؤلؤ ، ولا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات . ونَفَسه ينتهي حين ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه عند باب لُدّ ، فيقتله الله . ثم يأتي عيسى بن مريم قوماً قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة . فبينا هو كذلك إذ أوحى الله إليه : يا عيسى ، قد أخرجت

عباداً لا يَدانِ لأحد بقتالهم ، فحوّز عبادي إلى الطور ، فيبعث الله يأجوج ومأجوج من كل حدَب ينسِلون ، فيمرّ أوائلهم على بحيرة الطبريّة فيشربون ما فيها ، فيمرّ آخرهم فيقول : لقد كان في هذه ماءً مرةً ، فيحصر نبي الله عليه السلام حتى يكون رأس الثور خيراً لأحدهم من مئة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله عليهم [١٠٠ / أ] النَغَف[1] في رقابهم ، فيصبحون فَرْسَى[2] كموت نفس واحدة ، فيهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون موضع شبر إلا قد ملأه زَهَمهم ونتنُهم ودماؤهم ، فيرغب نبي الله ﷺ عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ ، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت تحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يرسل الله مطراً لا يكنّ منه بيتُ مدرٍ ولا وبر ، يغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة[3] ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرك وردّي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارَك في الرِّسل[4] حتى إن اللقحة من الابل لتكفي الفئام[5] من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القَبيل ، واللقْحة من الغنم لتكفي الفخذ . فبينا هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة تأخذ تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ، ويبقى شِرار الناس يتهارجون كما تتهارج الحُمر ، فعليهم تقوم الساعة .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال :

إنه لم يكن نبي إلا وقد أنذر الدَّجالَ قومَه ، وإني أنذركموه . إنه أعور ذو حدقة جاحظة ولا تخفى كأنها نخاعة في جنب جدار ، وعينه اليسرى كأنها كوكب درّي ، ومعه مثل الجنة والنار ، فجنّته غبراء ذات دخان ، وناره روضة خضراء ، وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى ، كلما خرجا من قرية دخل أوائلهم فيسلط على رجل ، لا يسلط على غيره فيذبحه ثم يضربه[6] بعصا - وفي رواية :[6] بعصاهُ - ثم يقول : قم فيقوم ، فيقول لأصحابه : كيف ترون ألست بربكم ؟ فيشهدون له بالشرك . فيقول الرجل المذبوح :

---

(١) هي دود تكون في أنوف الابل والغنم ، ج نَغَفة . النهاية : « نغف » .

(٢) أي قتلى ، ج فريس . من فَرَس الذئبُ الشاة وافترسها . اللسان : « فرس » .

(٣) مصانع الماء . وقيل : المرآة ، شبّه الأرض بها لاستوائها ونظافتها . ويقال بالقاف أيضاً . النهاية : « زلف » .

(٤) الرِّسَل : القطيع من كل شيء . اللسان

(٥) الفئام من الناس : الجماعة الكثيرة . وقد تكررت في الحديث . النهاية : « فأم » .

(٦ - ٦) مابين الرقمين مستدرك في هامش الأصل وبجانبه « صح »

يا أيها الناس ، ها إنّ هذا المسيحَ الدجال الذي أنذَرَنا رسولُ الله ﷺ فيَعود أيضاً فيذبحه ثم يضربه بعصاه فيقول له : قم فيَقوم ، فيقول لأصحابه : كيف ترون ألست بربكم ؟ فيشهدون له بالشرك . فيقول المذبوح : يا أيها الناس ، ها إنّ هذا المسيحَ الدجال [١٠٠ / ب] الذي أنذرنا رسول الله ﷺ ما زادني هذا فيكَ إلا بصيرة ، فيعود فيذبحه الثالثة ويضربه بعصاه فيقول : قم فيقوم ، فيقول لأصحابه : كيف ترون ألست بربكم ؟ فيشهدون له بالشرك ، فيقول : يا أيها الناس ، إن هذا المسيح الدجال الذي أنذرنا رسول الله ﷺ ما زادني هذا فيك إلا بصيرة ، ثم يعود فيذبحه الرابعة ، فيضرب الله تعالى على حلقه بصفيحة من نحاس فلا يستطيع ذبحه .

قال أبو سعيد :

فو الله ما درَيْت ما النحاس ، إلا يومئذ . قال : فيغرس الناس بعد ذلك ويزرعون .

قال أبو سعيد :

كنا نرى ذلك الرجل عمر بن الخطاب ، لما نعلم من قوته وجلده .

وعن أبي أمامة الباهلي قال :

خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته ما يحدثنا عن الدجال ويحذرناه ، فكان من قوله : يا أيها الناس ، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض أعظمُ من فتنة الدجال ، إن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال ، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج فيكم وأنا فيكم فأنا حجيج كل مسلم ، وإن يخرج بعدي فكل امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه يخرج من خلة بين الشام والعراق ، فيعيث يميناً ويعيث شمالاً . يا عباد الله ، اثبتوا فإنه يَبتدئ فيقول : أنا نبيّ ، ولا نبيّ بعدي ، ثم يبتدئ فيقول : أنا ربّكم ، ولن ترَوْا ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرأه كل مؤمن ، فمن لقيه منكم فليتفُل في وجهه ، وإنّ من فتنته أنّ معه جنةً وناراً ، فناره جنة ، وجنته نار ، فمن ابتلي بناره فليقرأ فواتح سورة الكهف ، ويستغث بالله تكن عليه برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ﷺ . وإنّ من فتنته أنّ معه شياطين تتمثل على صور الناس ، فيأتي للأعرابي فيقول : أرأيت إن بعثت لك أباك [١٠١ / أ] وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانه على صورة أبيه

وأمه ، فيقولان له : يا بني اتبعه فإنه ربك . وإن من فتنته أن يسلَّط على نَفْس فيقتلَها ثم يحييَها ، وأن يعود بعد ذلك وأن يصنع ذلك بنفسٍ غيرها . يقول : انظروا إلى عبدي هذا ، فإني أبعثه الآن يزعم أنّ له رباً غيري ، فيبعثه فيقول له : مَن ربك ؟ فيقول ربي الله وأنت عدو الله الدجالُ . وإن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك إبلك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانه على صورة إبله . وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت . وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحي فيكذبوه ، فلا يبقى لهم سائمة إلا هلكت ، ويمر بالحيّ فيصدقوه ، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، فتروح عليهم مواشيهم من يومهم ذلك أعظم ما كانت وأسمنه خواصر ، وأدرّه ضروعاً . وإن أيامه أربعون يوماً ، فيومٌ كالسنة ، ويوم دون ذلك ، ويوم كالشهر ، ويوم دون ذلك ، ويوم كالجمعة ويوم دون ذلك ، ويوم كالأيام ، ويوم دون ذلك ، وآخر أيامه كالشرارة في الجريدة ، يضحي الرجل بباب المدينة ، فلا يبلغ بابها الآخر حتى تغرب الشمس . قالوا : يا رسول الله ، فكيف نصلي في تلك الأيام القصار ؟ قال : تقدّرون في هذه الأيام القصار كما تقدّرون في الأيام الطوال ثم تصلّون . وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وغلب عليه إلاّ مكة والمدينة ، فإنه لا يأتيها مِن نَقب من أنقابها إلا لقيه مَلَك مُصلت بالسيف ، فينزل عند الضُريب الأحمر عند منقطع السبخة عند مجتمع السيول ، ثم ترجُف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج ، فتنفي المدينة يومئذ خبثها كما ينفي الكير خَبَث الحديد . يُدعى ذلك اليوم يوم الإخلاص .

فقالت أم شريك :

يا رسول الله ، فأين المسلمون ؟ [١٠١ / ب] قال : ببيت المقدس ، يخرج حتى يحاصرهم ، وإمام المسلمين يومئذ رجل صالح ، فيقال له : صلّ الصبح ، فإذا كبّر ودخل في الصلاة نزل عيسى بن مريم . قال : فإذا رآه ذلك الرجل عرفه ، فيرجع يمشي القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع يده بين كتفيه ثم يقول : صلّ ، فإنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلي عيسى عليه السلام وراءه ، فيقول : افتحوا الباب فيفتحونه . ومع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي كلُّهم ذو سلاح وسيف محلّى ، فإذا نظر إلى عيسى عليه السلام ذاب كما يذوب الرصاص في النار ، وكما يذوب الملح في الماء ، ثم يخرج هارباً فيقول عيسى : إن لي

فيك ضربة لن تفوتني بها ، فيدركه عند باب الشرقي فيقتله ، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلاّ أنطق الله عزّ وجلّ ذلك الشيء لا شجرة ولا حجر ولا دابة إلا قال : يا عبد الله المسلم ، هذا يهودي فاقتله إلا الغَرْقدة فإنها من شجرهم لا تنطق ـ قال الشيخ : شوك يكون بناحية بيت المقدس ـ قال : ويكون عيسى في أمتي حَكَمًا عدلاً وإماماً مقسطاً ، فيقتل الخنزير ، ويدقّ الصليب ، ويضع الجزية ، ولا يسعى على شاة ولا بعير ويرفع الشحناء والبغضاء والتباغض ، فتنزع حُمَة كل ذي دَابة حتى تلقى الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، ويملأ الأرض من الإسلام ، ويُسلب الكفار ملكهم ، فلا يكون ملك إلا الإسلام وتكون الأرض كفاثور[1] الفضة ، ينبُتُ نباتها كما كانت على عهد آدم عليه السلام ، يجتمع النفر على القِطْف[2] . فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة . ويكون الثور بكذا وكذا من المال ، وتكون الفرس بالدُّريهمات .

وعن أبي نَضْرَة قال :

أتينا عثمان بن أبي العاص يوم جمعة لنعرض على مصحفه مصحفاً ، فلما حضرت الجمعة أمر لنا بماء فاغتسلنا ، وطيبنا ثم ، رُحْنا [١٠٢ / أ] إلى الجمعة ، فجلسنا إلى رجل يحدث ، ثم جاء عثمان بن أبي العاص فتحولنا إليه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون للمسلمين ثلاثة أمصار : مصر بملتقى البحرين ، ومصر بالحيرة ، ومصر بالشام . فيفزع الناس ثلاث فزعات فيخرج الدجال في أعراض جيش ، فيهزم من قِبَل المشرق . فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين ، فيصير أهله ثلاث فرق : فرقة تنزل بشامة وتنظر ماهو ، وفرقة تلحق بالأعراب ، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ومعهم سبعون ألفاً عليهم السيجان[3] ، وأكثر تَبَعه اليهود والنساء ، حتى يأتي المصر الذي يليهم فيصير أهله ثلاث فرق : فرقة تقيم تنزل بشامة ، وتنظر ما هو ، وفرقة تلحق بالأعراب ، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ، ثم يأتي الشام فينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق[4] ، فيبعث المسلمون بسَرح لهم فيصاب سرحهم فيشهد عليهم ، وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد ، حتى إنّ أحدهم ليحرق

---

(١) الفاثور : الطست . أو الخوان من رخام أو فضة أو ذهب . القاموس : « فثر » .

(٢) القِطف : العنقود . اللسان والنهاية .

(٣) السيجان ، ج ساج ، وهو الطيلسان الأخضر . اللسان : « سوج » .

(٤) أفيق : بلدة بين حوران والغور ومنه عقبة أفيق . قال الفيروز آباذي : « ولا تقل فيق » . القاموس -

وتر قوسه فيأكله ، فبينا هم كذلك إذ نادى منـادٍ من السحر : أتـاكم الغوث يـا أيها النـاس . فيقول بعضهم لبعض : إن هـذا لصـوت رجـلٍ شبعـان ، فينزل عيسى عليـه السـلام الفجر ، فيقول له أمير الناس : تقدم يا روح الله فصلّ بنـا ، فيقول : إنكم ـ معشرَ هذه الأمـة ـ أمراءُ بعضكم على بعض ، فتقدم أنت فصلّ بنا ، فيتقدم أمير الناس فيُصلي لهم ، فـإذا انصرف أخـذ عيسى عليـه السلام حربتـه ، ثم ذهب نحـو الـدجـال ، فـإذا رآه ذاب كما يـذوب الرصـاص ، ويضع حربتـه بين ثَنْـدُوَتـه[1] فيقتلـه فينهزم أصحـابـه ، فليـس شيء يومئـذٍ يجنّ منهم حتى الشجرة تقول : يا مؤمن ، هذا كافر .

وعن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن ، وهي ابنة عم معاذ بن جبل قالت :

أتاني رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه وذكر الدجال . فقـال رسول الله ﷺ : إنّ قبل خروجـه ثلاث سنين تمسـك السماء [١٠٢ / ب] قـال[2] رسول الله ﷺ حتى إن دوابهم تسمن وتبطر مما تأكل لحومَهُم . أو كما قال .

وعن عبد الله بن مسعود قال :

لما أُسري ليلة أسري بـالنبي ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، فتـذاكروا السـاعة ، فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها ، فلم يكن عنده منهـا علم ، ثم موسى ، فلم يكنْ عنـده منها علم ، فتراجعوا الحديث إلى عيسى فقالَ عيسى : عهد الله إلي فيما دون وجَبْتها يعني : أما وجبتها فلا نعلمها . قال ـ فذكر من خروج الدجال ـ : فأهبط فأقتُلـه ، ويرجع النـاس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حَـدَب ينسلون ، فلا يمرون بمـاء إلا شربوه ولا يمرون بشيء إلا أفسدوه ، فيحارون[3] إلى الله تبارك وتعالى ، فيـدعو الله فيميتهم فتحـار الأرض إلى الله من ريحهم ، ويحـارون إليّ فـأدعـو ، فترسـل السماء بـالمـاء فتحمـل أجسـامَهم فتقذفها في البحر . ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مـدّ الأديم ، فعَهِـدَ الله عزّ وجلّ إليّ إذا كان ذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتمّ ، لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادِها ليلاً أو نهاراً .

---

(١) في القاموس : الثُّندأة لك ، كالثدي لها . وإذا فتحت الكلمة فلا تهمز . هي ثَنْدُوَة .

(٢) ورد الحديث بخلاف في الرواية في ابن عساكر ٢ / ٢ ، ٣

(٣) الحَوْر : الرجوع . القاموس : « حور » .

قال عبد الله :

فوجدت تصديق ذلك في كتـاب الله عز وجلّ : ﴿حتّى إذا فُتِحَتْ يـأجوجُ ومـأجوجُ وهُمْ منْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون واقْتَرَبَ الوَعْدَ الحَقّ ﴾[1] الآية .

قال : وجَمْع الناس من كل مَكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حَدَبٌ .

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ / ٩٦ ـ ٩٧

ذكر شرف جامع دمشق وفضله

قال يزيد بن مَيْسرة :

أربعة أجبل مقدسة بين يـدي الله عزّ وجلّ : طورزيتـا ، وطورسينـا ، وطورتينـا ، وطور تيمانا . قال : فطورزيتـا : بيت المقـدس ، وطورسينـا : طور موسى ، وطورتينـا : مسجد دمشق ، وطور تيمانا : مكة .

وعن قتادة قال :

أقسم الله تعالى بمساجد أربعة : [١٠٣ / أ] قـال : ﴿ والتين ﴾ وهو مسجـد دمشق . ﴿ والزيتون ﴾ وهو مسجـد بيت المقـدس ﴿ وطـور سينين ﴾ وهـو حيث كلّم الله مـوسى ، ﴿ و[هذا] البلد الأمين ﴾ وهو مكة .

قال محمد بن شعيب :

سمعت غير واحد من قـدمـائنـا يـذكرون أن التين مسجـد دمشق ، وأنهم أدركوا منـه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد .

قال عبد الرحمن[1] بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر :

كان خارج باب الساعـات صخرة يوضع عليهـا القربـان ، فـا تُقُبّل منـه جـاءت نـار فأخذته ، وما لم يُتَقَبّل بقي على حاله .

وقد روي أن النبي ﷺ ليلة أُسري به صلى في موضع مسجد دمشق .

وعن القاسم ، أبي عبد الرحمن قال :

أوحى الله تبـارك وتعـالى إلى جبـل قـاسيـون أنْ هَبْ ظلـك وبركتـك لجبـل بيت المقدس ، قال : ففعل . فأوحى الله إليه : أما إذ فعلت فإنني سأبني لي في حضنك بيتـاً ، أي

---

(١) صحح ابن عساكر الاسم في نهاية السند قال : « صوابه يحيى بن إسماعيل » .

في وسَطك . وهو هذا المسجد ، يعني : مسجد دمشق أُعبَد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلَّك وبركتك ، قال : فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع .

وقال كعب الأحبار :

لَيُبْنَيَن في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً

قال عبد الرحمن بن إبراهيم :

حيطان مسجد دمشق الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك .

ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتاب نقش ، فأتوا به الوليد فبعث إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى العبرانيين فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى كل من كان بدمشق من بقية الأشبان فلم يستخرجوه ، فدُلّ على وهب بن منبِّه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه في ذلك [١٠٣/ ب] الحائط ، ويقال : ذلك الحائط بناءُ هود النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، فلما نظر إليه وَهْب حرك رأسه ، فإذا هو : بسم الله الرحمن الرحيم . ابنَ آدمَ ، لو رأيتَ يسير ما بقي من أجَلَك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ، وإنما تلقى ندمك لو قد زلّت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تُدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد ، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة وقبل الحسرة والندامة ، وقبل أن يحلّ بك أجلك ، وتُنزع منك روحك ، فلا ينفعك مالٌ جمعته ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ الثرى ومجاورة المولى ، فاغتنم الحياة قبل الموت . والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ بالكَظَم[1] ، ويُحال بينك وبين العمل . وكتب في زمان سليمان بن داود عليهما السلام .

وعن زيد بن واقد قال :

وكّلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق فوجدنا فيه مغارة ، فعرَّفنا الوليدَ

(١) الكظم : مخرج النَفَس . القاموس : « كظم » .

ذلك . فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ففتح الصندوق فإذا فيه سَفَط ، وفي السَّفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مكتوب عليه : هذا رأس يحيى بن زكريا ، فأمر به الوليد فردّ إلى المكان ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيَّراً من الأعمدة . فجُعل عليه عمود مُسَفَّط الرأس

وعن زيد بن واقد قال :

رأيت رأس يحيى بن زكريا حيث أرادوا بناء مسجد دمشق ، أُخرج من تحت ركن من أركان القبة ، وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وسأل رجل الوليد بن مُسْلم :

يا أبا العباس ، أين بلغك رأس يحيى بن زكريا ؟ قال : بلغني أنه ثَمَّ ، وأشار بيده إلى العمود [١٠٤/ أ] المسَفَّط الرابع من الركن الشرقي .

وعن زيد بن واقد قال :

حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أُخرج من اللِّيطة[١] القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة ، فوضع تحت عمود للسكاسك .

وقد رُوي البلاطة بدل الليطة .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته بمسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة . وصلاته في المسجد الذي يجمّع فيه بخمس مئة ، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسة آلاف ، وصلاته في مسجدي بخمسين ألفاً ، وصلاته في المسجد الحرام بمئة ألف .

وعن أبي زياد الشَّعْباني أو أبي أمية الشَّعْباني قال :

كنا بمكة فإذا رجل في ظل الكعبة ، وإذا هو سفيان الثوري فقال رجل : يا أبا عبد الله ، ما تقول في الصلاة في هذه البلدة ؟ قال : بمئة ألف صلاة . قال : ففي مسجد رسول الله ﷺ ؟ قال : بخمسين ألف . قال : ففي بيت المقدس ؟ قال : أربعين ألف صلاة . قال : ففي مسجد دمشق ؟ قال : ثلاثين ألف صلاة .

---

(١) الليطة : كل شيء له صلابة ومتانة . اللسان « ليط »

وعن معاوية بن قُرّة قال : قال عمر بن الخطاب :

من صلى صلاة مكتوبة في مسجدِ مصرٍ من الأمصار كانت له كحجة مُتقبَّلة ، وإن صلّى تطوّعاً كانت له كعمرة مبرورة .

وعن كعب بمعناه ، وزاد :

فإن أصيب في وجهه ذلك حُرّم لحمه ودمه على النار أن تطعمَه ، وذنبه على من قتله .

وتقدم الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي إلى القوّام فقال : إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد ، فلا تتركوا فيه أحداً حتى أصلي الليلة ، ثم إنه أتى إلى باب الساعات فاستفتح الباب ففُتح له ، فدخل من باب الساعات فإذا برجل قائم بين باب الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة قائما يصلي ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال القوام : ألم آمركم ألا تتركوا أحداً يصلي الليلة في [١٠٤/ ب] المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين ، هذا الخضر عليه السلام يصلي في المسجد كل ليلة .

خرج واثلة بن الأسقع من باب المسجد الذي يلي باب جيرون فلقي كعب الأحبار فقال له : أين تريد ؟ فقال له : واثلة بن الأسقع يريد بيت المقدس ، فقال له : تعال حتى أريك موضعاً في هذا المسجد ، مَن صلى فيه فكأنما صلّى في بيت المقدس قال : فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالي إلى الحَنيّة ، يعني القنطرة الغربية . قال : من صلى فيما بين هذين [فكأنما][1] صلى في بيت المقدس .

قال واثلة :

إنه لمجلسي ومجلس قومي . قال : هو ذاك .

قال أبو زرعة

مسجد دمشق خطَّه أبو عبيدة بن الجراح وكذلك مسجد حمص . وأما مسجد مصر فإنه خطه عمرو بن العاص زمن عُمَر .

قال أبو ثَوْبان :

ما ينبغي أن يكون أحد أشدّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن مسجدها .

---

(١) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ٢٤

لما قدم المهدي يريد بيت المقدس دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبيد الله الأشعري كاتبه ، فقال : يا أبا عبيد الله ، سبقتنا بنو أمية بثلاث . قال : وما هُنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت ، يعني : المسجد ، لا أعلم على ظهر الأرض مثله ، وبنُبل الموالي ، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم ، وبعُمر بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبداً . ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة فقال : يا أبا عُبَيدَ الله وهذه رابعة .

ولما دخل المأمون مسجد دمشق ومعه أبو إسحاق المعتصم ويحيى بن أكثم قال : ما أعجب ما في هذا المسجد ؟ فقال له أبو إسحاق : ذهبه وبقاؤه . فإنا نهيئه في قصورنا فلا تمضي به العشرون سنة حتى يتغير . قال : ماذاك أعجبني منه . فقال له يحيى بن أكثم : تأليف رخامه ، فإني رأيت فيه عُقداً ما رأيت مثلها . قال : ما ذاك أعجبني فقالا له : ما الذي أعجبك ؟ قال : بنيانه على غير مثال متقدم .

قال المأمون لقاسم التمار :

اختر لي اسماً حسناً [١٠٥/ أ] أسمّي به جاريتي هذه . قال : سمّها مسجد دمشق ، فإنه أحسن شيء .

قال الشافعي :

عجائب الدنيا خمسة اشياء : أحدها منارتكم هذه ، يعني منارة ذي القرنين ، والثاني أصحاب الرقيم الذين هم بالروم اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ، والثالث مرآة ببلاد الأندلس معلّقة على باب مدينتها الكبيرة ، فإذا غاب الرجل من بلادهم على مسافة مئة فرسخ في مئة فرسخ فإذا جاء أهله إلى تلك المنارة فقعد تحتها ونظر في المرآة يرى صاحبه بمسافة مئة فرسخ ، والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الإنفاق عليه . والخامس الرخام والفسيفساء ، فإنه لا يُدرى له موضع ، فيقال إن الرخام كلها معجونة . والدليل على ذلك أنها لو وضعت على النار لذابت .

ما ذكر من هدم بقية كنيسة مَرْيحنا

وإدخالها في الجامع

عن كعب

في قول الله عز وجل : ﴿ يـا أَيُّهـا الـذين آمَنُـوا عَلَيْكُم أَنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُم مَنْ ضـلَّ إذا اهْتَدَيْتُم ﴾[1] فقال : إذا هُدمت كنيسة دمشق فَبنيت مسجداً وظهر لُبس القصب ، فحينئـذ تأويل هذه الآية . وهدمها الوليد بن عبد الملك .

وكان معـاويـة أراد أن يبني مسجـد دمشـق فقـال لـه كعب : ذلـك أخنس قريش وما اجتمع أبواه . فلما كان الوليـد بن عبـد الملـك بعث إلى النصـارى وقـال لهم في كنيستهم وسألهم إياها فأبَوْا ، فقال لهم : ائتونا بالعهد فـأُتَوْه بـه فقـال لهم : قـد رضيتم ، فـأنـا أسجل البعض عليكم ، فنظروا فإذا كنيسة كذا ، وكنيسة كذا ، وكنيسة كـذا . ورضَوا بـأن أعطوا الكنيسة وكفّ عن كنائسهم .

قالوا : وكان معاوية بن أبي سفيان يخرج إلى الصلاة في المسجد من الموضع الذي يصلي فيه الغرباء عنـد بـاب جيرون من عنـد الزجـاجـة الخضراء [١٠٥/ ب] فجعلت الزجـاجـة علامةً لمّا سُدّ البابُ من شرق المسجد خارج الباب .

قال يعقوب[2] بن سفيان :

سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد دمشق وهَـدْم الكنيسـة قـال : كان الوليـد قـال للنصارى من أهل دمشق : ما شئتم ، إنا أخذنا كنيسة توما عَنوة وكنيسة الـداخلـة صلحـاً ، فأنا أهدم كنيسة توما . قال هشام : وتلك أكبر من هذه الـداخلـة . قـال : فرضوا أنْ هَـدَم

(١) المائدة ١٠٥/٥

(٢) انظر المعرفة والتاريخ ج ٣٣٥/٢

كنيسة الداخلة ، وأدخلها في المسجد . قال : وكان بابها قبلة المسجد ، اليوم المحراب الذي يصلّى فيه .

قال : وهَدْم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، وكانوا في بنيانه سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتمّ بناؤه ، فأتمه هشام من بعده .

وفي حديث آخر :

لما همّ بهدم الكنيسة ، كنيسة مَرْيُحَنّا[1] ليزيدها في المسجد[1] ، دخل الكنيسة ، ثم صعد منارة ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وفيها راهب يأوي في صومعة له فأحدره من الصومعة ، فأكثر الراهب كلامه ، فلم تزل يد الوليد في قفاه حتى أحدره من المنارة ثم همّ بهدم الكنيسة ، فقال له جماعة من نجّاري النصارى : ما نجسُر على أن نبدأ في هدمها يا أمير المؤمنين ، نخشى أن نَعزّ أو يصيبنا شيء ، فقال الوليد : تحذرون وتخافون ! يا غلام ، هات المعول ، ثم أتى بسلّم فنصبه على محراب المذبح ، وصعِد فضرب بيده المذبح حتى أثّر فيه أثراً كبيراً ، ثم صعد المسلمون فهدموه ، وأعطاهم الوليد مكان الكنيسة التي في المسجد ، الكنيسة التي تعرف بحمام القاسم بحذاء دار أم البنين في الفراديس ، فهي تسمّى مريُحنا مكان هذه التي في المسجد . وحولوا شاهدها فيما يقولون إليها ، إلى تلك الكنيسة .

وكان أراد أن يبني المسجد اسطوانات إلى الكوى ـ يعني الطاقات ـ فدخل بعض البنائين فقال : لا ينبغي أن يبنى كذا ولكن ينبغي [١٠٦/ أ] أن تبنى فيه قناطر ويعقد أركانها بعضها إلى بعض ثم تجعل أساطين ، ويجعل عمد ، ويجعل فوق العمد قناطر تحمل السقف ، ويخفف عن العمد البناء ، ويجعل بين كل عمودين ركن . قال : فبني كذلك .

قالوا : ودخل المغيرة بن عبد الملك يوماً على الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فرآه مغموماً فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما سبيلك ؟ قال : فأعرض عنه ، ثم إنه عاوده فقال : يا أمير المؤمنين ، ما سبيلك ؟ قال : فقال له : يا مغيرة ، إن المسلمين قد كثروا وقد ضاق بهم المسجد ، وقد بعثت إلى هؤلاء النصارى أصحاب هذه الكنيسة لنُدخلها في المسجد فتأبّوا علينا ، وقد أقطعتهم قطائع كثيرة ، وبذلت لهم مالاً فامتنعوا ، فقال له المغيرة : يا أمير المؤمنين ، لا تغتَمّ قد دخل خالد من باب الشرقي بالسيف ، وباب الجابية دخل منه أبو

(١ ـ ١) ما بين الرقين في هامش الأصل

عبيدة بن الجراح في الأمان فاسحهم إلى أي موضع بلغ السيف ، فإن يكن لنا فيه حق أخذناه ، وإن لم يكن لنا فيه حق داريناهم حتى نأخذ باقي الكنيسة فنُدخله في المسجد فقال له : فرّجت عني ، فتولّ أنت هذا . قال : فتولاّه ، فبلغت المسحة إلى سوق الرَّيْحان حتى حاذى من القنطرة الكبيرة أربعة أذرع وكَسْر بالذراع القاسمي ، فإذا باقي الكنيسة قد دخل في المسجد ، فبعث إليهم فقال لهم : هذا حق قد جعله الله عزّ وجلّ لنا ، لم يصَلّ المسلمون في غصب ولا ظلم ، بل نأخذ حقنا الذي جعله الله لنا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أقطعتنا أربع كنائس وبذلت لنا من المال كذا وكذا ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تتفضّل به علينا فافعل ، فامتنع عليهم حتى سألوه وطلبوا إليه . قال : فأعطاهم كنيسة حُميد بن درّة ، وكنيسة أخرى حيث سوق الجبن ، وكنيسة مريم ، وكنيسة المصلّبة . ثم إن الوليد بعث إلى المسلمين حتى اجتمعوا لهدم الكنيسة ، واجتمع النصارى فقال للوليد بعض الأقساء والفأس على كتفه وعليه قَباء سَفرجلي وقد شدّ برَقبة قبائه فقال له : [١٠٦/ ب] إني أخاف عليك من الشاهد يا أمير المؤمنين . قال : ويلك ما أضع فأسي إلا في رأس الشاهد ، ثم إنه صعد ، فأول من وضع فأسه في هدم الكنيسة الوليد . وسارع الناس في هدم الكنيسة ، وكبر الناس ثلاث تكبيرات وزادها في المسجد .

وقيل : إنه قيل للوليد : لا يهدمها أحد إلا جُنّ ، فقام يزيد بن تميم فجمع له وجوه أهل البلد حتى علا الكنيسة ثم التفت إلى يزيد فقال : أين الفأس فأتاه به فقال : إن هؤلاء الكفرة يزعمون أنّ أول من يهدمها يجنّ وأنا أول من يُجنّ في الله ، فأخذ برقبة قبائه فوضعها في منطقته ثم أخذ الفأس فضرب به ضربات ، ثم تناوله القوم وكلٌّ من حضر ، ولم يجدوا من ذلك بدّاً إذ فعله أمير المؤمنين ، وصاح النصارى على الدرج وولولوا ، ثم التفت إلى يزيد بن تميم وهو على خَراجه فقال : ابعث إلى اليهود حتى يأتوا على هدمها . ففعل فجاء اليهود فهدموها .

ما ذكر في بنائه واختيار موضعه

في كتاب أخبار الأوائل أن هذه الدار المعروفة بالخضراء مع الدار المعروفة بـالمَطبق مع دار المعروفة بدار الخيل مع المسجد الجامع أقاموا وقت بنائها يأخذون الطالع لها ثمـان عشرة سنة . وقد حُفر أساس الحيطان ، حتى وافاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبـان اللـذان أرادوا أن المسجد لا يخرب أبداً ولا يخلو من العبادة . وأن هذه الدار إذا بُنيت لاتخلو من أن تكون دار الملك أو السلطنة والضرب والحبس وعذاب الناس والقتل ومأوى الجند والعسـاكر والبلاء والفتنة ، فبني على هذا ، والله أعلمَ . وكانت في ذلك الزمان كلها داراً واحدة .

ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق احتـاج إلى صنـاع كثير ، فكتب إلى الطاغية أن وجّه إليّ بمئتى صانع [١٠٧/ أ] من صنـاع الروم فـإني أريـد أن أبني مسجـداً لم يَبن مَن مضى قبلي ولا يكون بعـدي مثلـه . فـإن أنت لم تفعل غزوتـك بـالجيوش وأخربت الكنائس في بلدي وكنيسة بيت المقدس وكنيسة الرهـا وسـائر آثار الروم في بلـدي ، فـأراد الطاغيـة أن يفضّـه عن بنـائـه ويضعف عزمـه ، فكتب إليـه : « والله لئن كان أبوك فَهِمهـا فأغفل عنها إنها لَوصمة عليه ، ولئن كنتَ فهمتها وغيبت عن أبيك إنهـا لوصمـة عليـك ، وأنـا مُوجّه إليـك مـا سـألت » . فـأراد أن يعمل لـه جواباً فجلس لـه عقلاء الرجـال في حظيرة المسجـد يفكرون في ذلـك ، فـدخل عليهم الفرزدق فقـال : مـا بـال النـاس ! أراهم مجتمعين حلقاً ، فقيل له : السبب كيت وكيت ، فقال : أنا أجيبه من كتاب الله . قـال الله تعـالى : ﴿ فَفَهَّمْناهَا سُلَيْمانَ ، وَكُلاً آتَيْنا حُكْماً وعِلْما ﴾[1] فسُرّيَ عنهم .

وروى أبو حفص

أن هود النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم أسس الحائط الذي قِبلة دمشق .

ولما بنى الوليد بن عبد الملك القبـة ـ يعني : قبـة مسجـد دمشق ـ فلمـا استقلت وتمت وقعت فشَق ذلك عليه ، فأتاه رجل من البنائين فقال له : أنـا أتولى بنيـانهـا على أن تعطيني

(١) سورة الأنبياء ٧٨/٢١

عهد الله ألاّ يدخل معي أحد في بنيانها ففعل ذلك ، فحفر موضع الأركان حتى بلغ الماء ثم بناها ، فلما استقلت على وجه الأرض غطاها بالحصر وهرب عن الوليد ، فأقام يطلبه ولا يقدر عليه . فلما كان بعد سنة لم يعلم الوليد إلا وهو على بابه فقال له : ما دعاك إلى ما صنعت ! قال : تخرج معي حتى أريك ، فخرج الوليد والناس معه حتى كشف الحصر فوجد البنيان قد انحطّ حتى صار مع وجه الأرض فقال : من هذا كنت تؤتى ، ثم بناها بنيانها الذي عليه حتى قامت .

وقيل : لما حفر لأركانها حتى بلغ الحفر إلى الماء ألقى على الماء جران الكرم ، وبني الأساس عليه .

قال إبراهيم بن أبي[1] حوشب النصري [١٠٧/ ب] وكان جده أحد قومة المسجد في بنائه قال :

حُدثت أن الوليد بن عبد الملك بعث إليه يوماً عند فراغه من القبة الكبيرة ، فلم يبق منها إلاّ عقْد رأسها فقال له : إني عزمت أن أعمّدها بالذهب قال : فقال له : يا أمير المؤمنين ، اختلطت ؟! هذا شيء تقدر عليه ؟! قال له : يا ماجنُ تقول لي هذا ؟! فأمر به فشُق عنه وضُرب خمسين سوطاً . قال : ثم قال : اذهب فافعل ما أمرت به قال : فذكر لي أنه عمل لبنة من ذهب فحملها إليه ، فلما نظر إليه وعرف ما فيها وما تحتاج القبة إلى مثلها قال : هذا شيء لا يوجد في الدنيا ، ورضي عنه وأمر له بخمسين ديناراً .

ولما قطع الوليد بن عبد الملك بالرصاص لمسجد دمشق لأهل الكُوَر كانت كورة الأردنّ أكثرهم في ذلك ، فطلبوا الرصاص من النواويس[2] الغادية وانتهَوا إلى قبر حجارة في داخله قبر من رصاص ، فأخرجوا الميت الذي فيه فوضعوه فوق الأرض ، فوقع رأسه في هوّة من الأرض وانقطع عنقه فسال مِن فيه دمٌ ، فهالهم ذلك ، فسألوا عنه فكان فين سألوا عنه عُبادة بن نُسيّ الكندي فقال لهم : هذا القبر قبر طالوت الملك .

وقيل : إنه لما فرغ الوليد بن عبد الملك من بناء المسجد قال له بعض وَلَده : أتعبت الناس في طينه كلّ سنة ويخرُب سريعاً ، فأمر أن يُسقف بالرصاص ، فطلب الرصاص في

---

(١) في الأصل : إبراهيم بن حوشب ، وهو ابراهيم بن أبي حوشب . ترجم له ابن عساكر ترجمة بسيطة في تاريخه قال : « حكى عن جد له حكاية منقطعة في بناء قبة الجامع . حكى عنه يزيد بن أحمد السلمي »

(٢) النواويس ، ج ناووس : مقابر النصارى . اللسان والتاج : « نوس » .

كل بلد وصل إليه ، فبقي عليه موضع لم يجد له رصاصاً ، فكتب إلى عماله يحرّضهم في طلبه ، فكتب إليه بعض عماله أن قد وجدنا عند امرأة منه شيئاً ، وقد أبت أن تبيعه إلا وزناً بوزن ، فكتب إليه : خذه ، وإن أبت إلا وزناً بوزن ، فأخذه منها وزناً بوزن ، فلما وفّاها قالت له : هو هدية مني للمسجد . قال لها : أنت أبيت أن تبيعي إلا وزناً بوزنٍ شُحًّا منك ، فتهدينه للمسجد ؟! فقالت : أنا فعلت ذلك ظننت أن صاحبكم [١٠٨/ أ] يظلم الناس في بنائه ويأخذ رحالهم ، فلما رأيت الوفاء منكم علمت أنه لم يكن يظلم فيه أحداً ثَمَّ ، ويبتاع وزناً بوزن ، فكتب إلى الوليد في ذلك ، فأمر أن يعمل في صفائحه : لله ، ولم يدخله في جملة ما عمله . فهو إلى اليوم مكتوب عليه : لله . طبع بطابع على السقف .

وقيل : إن المرأة كانت يهودية ، وأنه كتب على الرصاص الذي أعطتهم : للإسرائيلية وذكر أنه رؤي منه شيء قبل الحريق عليه : للإسرائيلية .

ولما أراد الوليد بناء المسجد بدمشق كان سليمان بن عبد الملك هو القيم مع الصنّاع .

وكان المشايخ يقولون : ما تمّ مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة . لقد كان يفضل عند الرجل من القوام عليه الفأس ورأس المسمار ، فيجيء فيضعه في الخزانة .

وقيل : إن قبة دمشق الرخام التي فيها فوارة الماء [أقيمت][1] في سنة تسع وستين وثلاث مئة

وقيل : أنشئت الفوارة المنحدرة وسط جيرون في سنة ست عشرة وأربع مئة ، وجرت ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من شهر ربيع الأول من سنة سبع عشرة وأربع مئة ، بما أمر بجرّ القصعة من ظاهر قصر حجاج إلى جيرون وإجراء مائها القاضي فخرُ الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسن بن العباس الحُسَيني . جزاه الله على ذلك خيراً .

وتحته بخط محمد بن أبي نصر الحميدي : وسقطت في صفر من سنة سبع وخمسين وأربع مئة من جِمال تحاكّت بها ، فأنشئت كرة أخرى ، ثم سقطت عمدها وما عليها في حريق اللبادين ورواق دار الحجارة ودار خديجة ، في شوال سنة اثنتين وستين وخمس مئة .

---

(١) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ٣٢

كيفية ترخيمه ومعرفة المال المنفق عليه

قال إبراهيم بن هشام :

مافي مسجد دمشق من الرخام شيء إلا رخامتا المقام ، فإنه يقال إنها من عرش سبأ ، وأما الباقي فكله مرمر .

قيل : هو المقام الغربي .

[١٠٨ / ب] وقيل : هما من عرش بلقيس .

وقيل : كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم .

وعن عَمرو بن مهاجر ، وكان على بيت مال الوليد بن عبد الملك

أنهم حسبوا ما أنفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق فكان سبعين ألف دينار ، وحسبوا ما أنفقوا على مسجد دمشق فكان أربع مئة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار .

قال : وأتاه حَرَسيّه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أهل دمشق يتحدثون أن الوليد أنفق الأموال في غير حقها ، فنادى بالصلاة جامعة وخطب الناس فقال : إنه بلّغني حرسيّ أنكم تقولون إن الوليد أنفق الأموال في غير حقها ، ألا يا عَمرو بن مهاجر ، قم فأحضر ما قِبَلك من الأموال من بيت المال ، قال : فأتت البغال تدخل بالمال وتصبّ في القبة على الأنطاع حتى لم يبصر مَنْ في الشام مَنْ في القبلة ، ولا مَنْ في القبلة من في الشام .

وقال : الموازين ، فوزنت الأموال . وقال لصاحب الديوان : أحضر من قِبَلك من يأخذ رزقنا ، فوجدوا ثلاث مئة ألف ألف في جميع الأمصار ، وحسبوا ما يصيبهم فوجدوا عنده رزقَ ثلاث سنين . ففرح الناس وكبّروا وحمدوا الله عزّ وجلّ وقال : إلى ما تذهب هذه الثلاث السنين أتانا الله بمثله ، وبمثله ، ألا وإني إنما رأيتكم يا أهل دمشق تفخَرون على

الناس بأربع خصال فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس . تفخرون على الناس بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس ، فاحمدوا الله ، فانصرفوا شاكرين داعين .

وقيل : إن الوليد بن عبد الملك اشترى العمودين الأخضرين الكبيرين اللّذيْن تحت النسر من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمس مئة دينار .

قال أبو مُسهر :

عملت المقصورة لسليمان بن عبد الملك حين استُخلف .

[١٠٩ / أ] ذكر ما كان عمر بن عبد العزيز

ردَّه على النصارى عند طلبه

قال علي بن أبي حَمَلَة :

لما ولي عمر بن عبد العزيز قال نصارى دمشق : يا أمير المؤمنين ، قد علمتَ حال كنيستنا . قال : إنها صارت إلى ما تَرَوْن ، فعوّضهم كنيسةً من كنائس دمشق لم تكن في صلحهم يقال لها : كنيسة توما .

وقيل : إن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز ما أخذوا عليه العهد في كنائسهم ، لا تُهدم ولا تسكن ، وجاؤوا بكتابهم إليه فكلمهم عُمر وَرَفع لهم في الثمن حتى بلغ مئة ألف ، فأبَوْا ، فكتب عُمر إلى محمد بن سويد الفهري أن يدفع إليهم كنيستهم ، إلاّ أن يرضيَهم ، فأعظمه ذلك وأعظم الناسَ ، وفيهم يومئذ بقية من أهل الفقه ، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا : هذا أمر عظيم ، ندفع إليهم مسجدنا وقد أذّنّا فيه بالصلاة ، وجمّعنا فيه ، يُهدَم فيعاد كنيسة ؟ ! فقال رجل منهم : ها هنا خصلة : لهم كنائس عظام حول مدينتهم : دير مرّان وباب توما والراهب وغيرها ، إن أحبوا أن نعطيهم كنيستهم ولا يبقى حول مدينة دمشق كنيسة ولا بالغوطة إلا هُدمت ، وإن شاؤوا تركت لهم كل كنيسة بالغوطة ، ونسجل لهم بها سجلاً ، وتركوا ما يطلبون . فدعاهم فعرض ذلك عليهم فقالوا : أنظرونا ننظرْ في أمرنا ، فتركهم ثلاثاً ، فقالوا : نحن نأخذ الذي عرضت علينا ، وتكتب إلى الخليفة تخبره أنّا قد رضينا بذلك ، ويسجل الخليفة من قبله سجلاً منشوراً بأمان على ما بالغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن . قالوا : نعم . فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك ، فسرّه وسجّل لهم في كنائسهم التي خارج مدينة دمشق والغوطة ، أنهم آمنون أن تُخرب أو تسكن ، وأشهد لهم شهوداً .

قال عمرو بن مهاجر : سمعت عمر بن عبد العزيز ، وذكر مسجد دمشق فقال :

رأيت [١٠٩ / ب] أموالاً أنفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك ما أدركتُ منها فرادّه إلى بيت المال ، أعمد إلى ذلك الفُسيفساء والرخام فأقلعه وأطيّنه ، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وأنزع تلك البطائن فأبيع جميع ذلك وأدخله بيت المال ، فبلغ ذلك أهل دمشق فاشتد عليهم ، فخرج إليه أشرافهم فيهم خالد القسري فقال لهم خالد : ائذنوا لي حتى أكون أنا المتكلم ، فأذنوا له . فلما أتوا دير سَمعان استأذنوا على عمر فأذن لهم ، فلما دخلوا سلّموا عليه ، فقال له خالد : يا أمير المؤمنين ، بلَغَنا أنك هممت في مسجدنا بكذا وكذا ، قال نعم ، رأيت أموالاً أُنفقت في غير حقها ، وأنا مستدرك ما أدركت منها فرادّه إلى بيت المال ، فقال له : والله ما ذلك لك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : لمن هو ، لأمك الكافرة ؟ ! وغضب عمر ، وكانت أمه نصرانية ، أم ولد ، رومية ، فقال خالد : إن تك كافرة فقد ولدَت مؤمناً ، فاستحيا عمر ، وقال : صدقت ، فما قولك : فما ذلك لي ؟ قال : إنا كنا ـ معشرَ أهل الشام وإخواننا من أهل مصر وإخواننا من أهل العراق ـ نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرضِ الروم قفيزاً بالصغير من فسيفساء وذراعاً في ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ، ويُستأجر على ما حملوا إلى دمشق ، ويحمل أهل حمص[1] إلى حمص ، ويُستأجر على ما حملوا إلى دمشق ، ويحمل أهل دمشق ، ومَن وراءهم حصتهم إلى دمشق ، فذلك قولي : ما ذلك لك ، فسكت عمر ، ثم جاءه بَريدٌ مِن مصر من واليها يخبره أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم ، عليهم رجل منهم ، يريدون الوفود إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه أن وجّههم إليّ ووجّه معهم عشرة من المسلمين ، عليهم رجل منهم ، كل منهم يحسن [الكلام][2] بالرومية ، ولا يُعلمونهم ذلك [١١٠ / أ] حتى يحملوا إليّ كلامهم ، فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد ، فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم الوالي في دخول المسجد ، فأذن لهم ، فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبة ، فكان أول ما استقبلوا المقام ، ثم رفعوا رؤوسهم إلى القبة فخرّ رئيسهم مغشياً عليه ، فحُمل إلى منزله ، فأقام ما شاء الله أن يقيم ثم أفاق . فقالوا له بالرومية : ما قصتك . عهدنا بك بالرومية ، وما ننكرك ، وصَحِبْتنا في طريقنا هذه فما

---

(١) لفظتا « أهل حمص » مستدركتان في هامش الأصل وبجانبها « صح »

(٢) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ٤٣

أنكرناك ، فما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ ! قال : لأنّا - معشرَ أهل رومية - نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بَنوْا علمت أن لهم مدة سيبلُغونها ، فلذلك أصابني الذي أصابني . فلما قدموا على عُمر أخبروه بما سمعوا منه فقال عمر : ألا أرى مسجد دمشق غيظاً على الكفار . وترك ما كان همّ به من أمره .

وقيل : إن عمر بن عبد العزيز لما استُخلف أراد أن يجرّد ما في قبلة [مسجد][1] دمشق من الذهب وقال : إنه يشغل الناس عن الصلاة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه أنفق عليه عَدُّ فيء المسلمين وأعطياتهم ، وليس يجتمع منه شيء فينتفع به ، فأراد أن يبيّضه بالجص فقيل له : تذهب النفقات فيه ، فأراد أن يستره بالخزف فقيل له : تضاهي الكعبة ، فبينا هو في ذلك إذ ورد عليه وفد الروم فاستأذنوا في دخول المسجد ، فأذن لهم ، وأرسل معهم من يعرف الرومية وقال : لا تعلموهم أنكم تعرفون الرومية ، واحفظوا ما يقولون ، فلما وقفوا تحت القبة قال رئيسهم : كم للإسلام ؟ قالوا : مئة سنة ، قال : فكيف تُصغّرون أمرهم ؟ ما بنى هذا البنيان إلا ملك عظيم . وأتى الرسول عمر فأخبره فقال : أما إذ هو غائظ للعدو فدعه .

---

(١) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ٤٤

ذكر ما في الجامع من القناديل

وما فيه وفي البلد من الطِّلَسمات

[١١٠ / ب] كان مكحول إذا طفئت قناديل المسجد - يعني مسجد دمشق - يسُدُّ أنفه . وقال : يعتري من رائحته المسك .

قال عبد الرحيم الأنصاري : سمعت الأعراب وهم يزورون المسجد يقولون :

لا صلاة بعد القُليلة يعني [الدّرة][1] . قلت له : أرأيت القُليلة ؟ فقال : نعم . كانت تضيء مثل السراج . قلت : من أخذها ؟ قال : أما سمعت المثل : منصور سرق القلة وسليمان شرب المرة .

منصور الأمير ، وسليمان صاحب الشرطة . سليمان هو الأمير وهو ابن المنصور ، ومنصور صاحب شرطته .

وذلك أن الأمين كان يحبّ البلور ، فكتب إلى صاحب شرطة والي دمشق أن ينفذ إليه القليلة فسرقها ليلاً ، فلما قتل المأمونُ الأمينَ رد القليلة إلى دمشق ليشنع بذلك على الأمين . وكانت هذه القليلة في محراب الصحابة ، فلما ذهبت جعل موضعها بَرْنِيّة[2] من زجاج . قال الراوي : رأيتُها . ثم انكسرت بعد فلم يُجْعل في مكانها شيء .

وعن علي بن أبي حملة قال :

كنا نستر مسجد دمشق في الشتاء بلبود - أحسبه قال : في عهد الوليد - فدخلَتْه الريح فهزته ، فثار الناس فحرّقوا اللبود .

---

(١) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ٤٥

(٢) البرنية : إناء من خزف . القاموس .

قال أبو مروان عبد الرحيم وهو ابن عمر المازني :

لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد احتفروا فيه موضعاً ، فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً ، فلم يفتحوه ، وأعلموا به الوليد ، فخرج من داره حتى وقف عليه ، وفُتح بين يديه ، فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة على فرس من حجارة في يد التمثال الواحدة الدرة التي كانت في المحراب ويده الأخرى مقبوضة ، فأمر بها فكُسرت ، فإذا فيها حبّتان ، حبة قمح وحبة شعير ، فسأل عن ذلك فقيل له : لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس في هذه البلدة قمح ولا شعير .

وقيل : إنه لما دخل المسلمون دمشق وقت فتحها ووجدوا على العمود الذي في المقسَلاّط على السّفود الحديد [١١١ / أ] الذي في أعلاه صنماً مادّاً يده بكفّ مطبقة فكسروه ، فإذا في كفه حبة قمح ، فسألوا عن ذلك فقيل لهم : هذه الحبة القمح جعلها حكماء اليونانيين في كف هذا الصنم طِلَّسماً حتى لا يسوّس القمح ، ولو أقام سنين كثيرة .

وإنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه كان عُمل هناك ساعات يُعلم بها كل ساعة تمضي من النهار ، عليها صورة عصافير وحية وغراب . فإذا تمت الساعة خرجتِ الحية ، فصاحت العصافير وصاح الغراب ، وسقطت حصاة في الطست .

قال أبو المفضل يحيى بن علي القاضي

إنه أدرك في الجامع قبل حريقه طِلَّسمات لسائر الحشرات معلقة في السقف فوق البطائن مما يلي السُّبْع ، وإنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق . فلما احترقت الطلسمات وجدت . وكان حريق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربع مئة .

حدث جماعة من شيوخ أهل دمشق قال[1]

العمود الحجر الذي بين سوق الشعير وبين سوق أم حكيم عليه حجر مدوَّر مثل الكرة كبير لعسر بول الخيل . إذا دار الفرس أو الحمار ثلاث مرات انطلق البول منه . عمله حكماء

---

(١) أي راوي الحديث .

الروم من اليونانيين . مجرب . وكان على قنطرة باب سوق أم حكيم الذي بحضرة مسجد الطباخين صنم مكسور على القنطرة للحاجات . إذا دخل إنسان فيه لحاجة لم تقض .

وفي سقف مسجد الجامع طلاسم عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي . فنها طلسم للصنونيات لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي يكون منها ولا يدخله غراب . وطلسم للفأر والحيات والعقارب . ومأبصر الناس فيه من هذا شيئاً إلا الفأر . قال : ويوشك أن يكون تغير طلّسمها ، وطلّسم للعنكبوت لا ينسج في زواياه ، ويركبه الغبار والوسخ .

[١١١ / ب]

ماورد في أمر السُّبْع وابتداء الحضور فيه

قال حسان بن عطية :

الدِّراسة محدثة ، أحدثها هشام بن إسماعيل المخزومي في قَدمته على عبد الملك . فحجبه عبد الملك بعد الصبح في مسجد دمشق ، وعبد الملك في الخضراء ، فأُخبر أن عبد الملك يقرأ بقراءة هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك مَن يليه من أهل المسجد ، فقرؤوا بقراءته .

قال خالد بن دهقان :

أول من أحدث الدِّراسة بدمشق هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وأول من أحدث الدِّراسة في فلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي ، وكان يحضر الدِّراسة جماعة ممن يُعرف بالعلم أو بالرئاسة ، ومن القضاة ومن الفقهاء ومن المحدثين . وروي عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره . ولا وجه لإنكاره .

وسئل عبد الله بن العلاء عن الدِّراسة فقال : كنا ندرس في مجلس يحي بن الحارث في مسجد دمشق في خلافة يزيد بن عبد الملك إذ خرج علينا أميرُنا الضحاكُ بن عبد الرحمن بن عَرْزَب الأشعري من الخضراء ، فأقبل علينا منكراً لما نصنع . فقال : ما هذا ؟! أوْ ما أنتم فيه ؟! فقلنا : ندرس كتاب الله ، فقال : تدرسون كتاب الله عز وجلّ ، إن هذا لشيء ما رأيته ولا سمعت أنه كان قبلُ ، ثم دخل الخضراء . وكان الضحاك بن عبد الرَحمن أميراً على دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز .

ذكر مساجد البلد وحصْرها

عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ :

ستكون دمشق آخر الزمان أكثر المدن أهلاً ، وأكثره أبدالاً وأكثره مساجد ، وأكثره زهاداً ، وأكثره مالاً ورجالاً ، وأقله كفاراً . وهي معقلٌ لأهلها .

وذكر عبيد الله الخولاني

أنه سمع عثمان بن عفان حين بني مسجد [١١٢ / أ] رسول الله ﷺ يقول : إنكم قد أكثرتم إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

من بنى مسجداً ـ قال بُكير ، أحد رواته : حسبت أنه قال : يبتغي به وجه الله عزّ وجلّ ـ بنى الله له مثله في الجنة .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

من بنى بيتاً ليُعبَد اللهُ فيه من حلال ، بنى الله له بيتاً في الجنة من درّ وياقوت .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

من بنى مسجداً ولو قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة . قالت : قلت يا رسول الله ، وتلك المساجد التي في طريق مكة ؟ قال : وتلك .

قال : فغدا الحضّ على المساجد وبنيانها يدل على خَطر محلها وعظم شأنها . وقد عدد مساجد دمشق وذكرها ، وعيَّن أكثر أسمائها وخططها ، وأسماء مَن بناها ووصف أكثرها ، فكانت جملتها أربع مئة وخمسة وعشرين مسجداً على ما فصّله بالتعريف والعدد ، منها ما ذكره فقال : أوله من قبلة السوق وأنت داخل من باب الجابية ، ومساجد الناحية الشامية عن يمنة الداخل من الباب الشرقي ، وفي القلعة مئتان وواحد وأربعون مسجداً .

قال : وأما ما عداها من المساجد التي في أرباضه وظاهره مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة من ناحية القبلة ومن الشام ومن الشرق ومن الغرب مئة مسجد وأربعة وثمانون مسجداً .

قال : وهذا يدل على اهتمام أهلها بالدين وكثرة المصلين فيها والمتعبدين .

وروي عن عثمان بن عطاء عن أبيه قال :

لما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ للجماعة مسجداً ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، فشهدوا الجمعة . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص [١١٢ / ب] وهو على الكوفة بمثل ذلك . وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك . وكتب إلى أمراء أجناد الشام لا يتبدّوا إلى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً . ولا يتخذ القبائل مساجد كما اتخذ أهل الكوفة والبصرة وأهل مصر . وكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده .

وروى محمد بن عطاء عن أبيه قال :

لما قدم عمر الشام أمر ألا يتخذ في المدينة مسجدان . قال : وإنما أراد عمر بذلك المسجد الأعظم الذي تقام فيه الجمع ، وإنما فرّق بين مدائن الشام وبين الكوفة والبصرة في الحكم ، لأن مدائن الشام ممصّرة قبل الإسلام ، فلا تقام في مصر واحدٍ أكثر من جمعة ، فأما الكوفة والبصرة فكل منزل نزلته قبيلة واختطّته فهو بمنزلة مصرٍ مفرد . ولم يرد بذلك النهيَ عن اتخاذ المساجد التي لا تقام فيها الجمعة . فأما مصر فإنها وإن كانت قبل الإسلام فإن المسلمين لما افتتحوها تفرقت القبائل فيها ، واختطت بها خططاً نسبت إليها فأشبه حكمها حكم الكوفة والبصرة . والله أعلم .

ذكر فضل المساجد المقصودة بالزيارة

رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه سُمع يقول :

ما من مسلم يأتي زيارة من الأرض أو مسجداً بني بأحجار فيصلي فيه إلا قالت الأرض : سل الله في أرضه ، وأشهد لك يوم تلقاه .

وقد تقدم ، فيما قلناه ، أن ربوة دمشق هي التي سماها الله في كتابه بالربوة[1] .

قال حسان بن عطية :

إن ملكاً من ملوك بني إسرائيل حضره الموت ، وأوصى بالمُلْك لرجل حتى يُدرك ابنه . فكانوا يؤمّلون أن يدرك ابنه فيملكوه ، ويكون مكان أبيه . فأتي عليه فقبض . قال : فجزعوا عليه . فلما خرجوا بجنازته وفيهم عيسى بن مريم عليه السلام فدنا من أمه فقال : أرأيت إن أنا أحييت [١١٣ / أ] لك ابنك أتؤمنين بي وتَتّبعينني ؟ قالت : نعم ، فدعا اللهَ عزّ وجلّ ، فَجعلت أكفانُه تتحلّل عنه حتى استوى جالساً ، فقالوا : هذا عمل ابن الساحرة ، وطلبوه حتى انتهى إلى شِعب النَّيرب فاعتصم منهم بقلعة على صخرةٍ متعاليةٍ ، فأتاه إبليس لعنه الله ، فقال : جئتُك وما أعتذر إليك من شيء ، هذا أنت لم تنافسهم في دنياهم ولا بشبرٍ من الأرض ، صنعوا بك ما صنعوا ، فلو ألقَيت نفسك من هذا المكان فتلقّاك روح القدس ، فيذهب بك إلى ربك ، فتستريح منهم . فقال عيسى : يا غويّ ، الطويلُ الغواية ، إني أجدُ فيما علّمني ربّي عزّ وجلّ ألا أجرّب ربي حتى أعْلم أراضٍ عني أم ساخط عليّ . قال : وزجره الله عنه . قال : فأقبلت عليهم أم الغلام ، فقالت : يا معشر بني إسرائيل ، كنتم تبكون وتشقّون ثيابكم جزعاً عليه . فلما أحياه الله لكم أردتم قتله . قالوا : فما تأمرينا به ؟ قالت : ائتوه فآمنوا به ، فأتوه ، فقالوا : خصلة بيننا وبينك ، إن أنت فعلتها آمنّا بك واتبعناك ، قال : وما هي ؟ قالوا : تحيي لنا عُزَيْراً ، قال : دلّوني على قبره ، فنزل عيسى معهم حتى انْتَهَوْا إلى قبره ، قال : فتوضأ وصلّى ركعتين ودعا . قال :

---

(١) انظر ص ٨٧ من هذا الجزء .

فجعل قبرُهُ ينفرج عنه التراب فخرج قد ابيضَّ نصفُ رأسه ولحيته ، وهو يقول : هذا فعلُك يابن مريم ، فقال : لم أصنع بك ، هذا فعل قومك ، زعموا أنهم لا يؤمنون بي ولا يتبعوني حتى أُحْيِيك لهم ، وهذا في هُدَى قومك يسيرٌ. قال : فأقبل عليهم يعظهم ، ويأمرهم بالإيمان به واتّباعه . قال : فقال له قومه : عهدناك وأنت أسودُ الرأس واللحية ما لنصف رأسك قد ابيضّ ؟ قال : إني سمعتُ الصيحةَ فظننتُ أنها دعوةُ الداعية ، حتى أدركني مَلَكٌ فقال : إنها هي دعوة ابن مريم فانتهى الشيب إلى ما ترى .

ويروى أن النيرب مصلّى الخضر عليه السلام .

وعن ابن عباس

أنه ولد إبراهيم [١١٣ / ب] بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة ، في جبل يقال له قاسيون .

وعن حسان بن عطية قال :

أغار مَلِكٌ نَبَط هذا الجبل على لوط فسباه وأهلَه ، فبلغ ذلك إبراهيم خليل الله عليه السلام ، فأقبل في طلبه في عدةِ أهلِ بدرٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر ، فالتقى هو وملك الجبل في صحراء يعفور ، فَعَبَّأ إبراهيم ميمنةً وميسرةً وقلباً . وكان أولَ مَنْ عَبَّأ الحرب هكذا ، فاقتتلوا فهزمه إبراهيم ، واستنقذ لوطاً وأهلَه فأتى هذا الموضع الذي في برزةَ الذي ينسب إلى مسجد إبراهيم فصلّى فيه .

وعن الزهري أنه قال :

مسجدُ إبراهيم عليه السلام في قرية يقال لها برزة ، فمن صلّى فيه أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدتْهُ أمُّه ، ويسألُ الله ما شاء فإنّه لا يردّه خائباً .

ومشايخ أهل دمشق يذكرون أن الآثارات التي بدمشق في برزة عند المسجد الذي يقال له مسجد إبراهيم عليه السلام التي في الجبل عند الشّقّ أنّه مكان إبراهيم . وأن الآثارات التي فوق الشق في الجبل هي موضع رَأْيِ إبراهيم الكوكبَ الذي ذكر اللهُ في كتابه : ﴿ فَلَمَّا رَأَى كَوْكَباً قَالَ : هَذا رَبِّي ﴾[1] أنّه كان في الجبل في ذلك الموضع ، وهو معروف ، فمن

---

(١) سورة الأنعام ٦ / ٧٦

قصده وصلّى فيه ودعا أجابه الله في دعائه . وأن ذلك الجبل كان فيه لوط النبيّ وجماعة من الأنبياء . وآثارهم في مواضع من الجبل بالقرب من مسجد إبراهيم .

قال : وأدركتُ الشيوخَ يقصدونَه ويقيمونَ فيه ويصلونَ ويدعون الله . وهو نافعٌ لقسوةِ القلوب وكثرةِ الذنوبِ ، وإنّ بعض الشيوخ جاء من مكةَ فصلّى في الموضع الذي فوق الشقّ ، الموضع الذي يقال إنه رأى إبراهيمُ فيه الكوكبَ . وذكر أنه رأى في نومه إن أحْبَبْتَ أن ترى الموضعَ الذي رأى فيه إبراهيمُ الكوكبَ فاقصد دمشقَ ، واقصد موضعاً يقال له برزة عند مسجد إبراهيم فوق الجبل فصلِّ فيه ركعتين ثم ادعُ بما شئتَ تُجَبْ [١١٤ / أ] فقصدت الموضع .

قال أحمد بن صالح :

أدركتُ الشيوخَ بدمشق قديماً وهم يفضّلون مسجد إبراهيم الذي ببرزةَ ويقصدونه ، ويصلون فيه ويقرؤون ، ويدعون ، ويذكرون أنّ الدعاء فيه مجابٌ . وهو موضع شريف عظيم ، فهم يذكرون عن شيوخهم ومَنْ أدركوا من أهل العلم أنهم يصححونه ويفضّلونه ويقولون : إنّ مسجد إبراهيم عليه السلام ، وإن الشقّ الذي في الجبل خارج باب المسجد هو الموضع الذي اختبأ فيه إبراهيم من النمروذ الذي كان ملك دمشق في وقت إبراهيم ، والدعاء فيه مجاب ، فمن قصد الله في ذلك الموضع ودعا فيه بنيّةٍ خالصةٍ رأى الإجابة .

قال أبو الحسين الرازي :

مسجدا إبراهيم أحدهما في الأشعريين والآخر في برزة .

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : سمعت رسول الله ﷺ وسأله رجل عن دمشق - وقيل : عن الآثارات بدمشق - فقال :

بها جبلٌ يقال له قاسيون فيه قَتَلَ ابنُ آدم أخاه ، وفي أسفله في الغرب وُلد إبراهيم ، وفيه آوى الله عيسى بن مريم وأمّه من اليهود ، وما من عبدٍ أتى مَعقِل روح الله فاغتسل وصلّى ودعا لم يردّه الله خائباً ، فقال رجل : يا رسول الله ، صفه لنا ، قال : هو بالغوطة ، مدينة يقال لها دمشق ، وأزيدكم أنّه جبل كلّمه الله ، وفيه وُلِد أبي إبراهيم ، فمن أتى هذا الموضع فلا يعجز في الدعاء ، فقام رجل قال : يا رسول الله ، أكان ليحيى بن زكريا معقلاً ؟ قال : نعم احترسَ فيه يحيى من هداد - رجلٍ من عاد - في الغار الذي تحت دم ابن آدم المقتول ، وفيه احترس إلياسُ النبيُّ من مَلِكِ قومه ، وفيه صلّى إبراهيم ولوط وموسى

وعيسى وأيوب فلا تعجزوا في الدعاء فيه ، فإن الله أنزل عليّ : ﴿ ادْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] وربُّنا يسمع الدعاء . قالوا : كيف ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فإنّي قَرِيبٌ [١١٤ / ب] أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذا دَعانِ ﴾[2] .

وعن كعب الأحبار أنه قال :

إنه موضع الحاجات والمواهب من الله عزّ وجلّ لا يَرُدّ سائلاً فيه .

وروي عن مكحول

أنّه صعِد مع عمر بن عبد العزيز إلى موضع الدم يسأل الله سقيانا فسقانا .

قال مكحول : وسمعت كعب الأحبار يذكر

أنّه موضعُ الحاجات والمواهب من الله ، وأنّه لا يردُّ سائلاً في ذلك الموضع .

قال هشام : وسمعت الوليد يقول : سمعت سعيد بن عبد العزيز قال :

صعدنا في خلافة هشام إلى موضع قَتْلِ ابنِ آدم أخاه نسأل الله يسقينا ، فأتى مطرٌ فأقمنا في الغار الذي تحت الدّم ثلاثةَ أيامٍ . وفي رواية : فدعونا الله فارتفع عنا وقد رَوِيَتْ الأرض .

قال الوليد بن مسلم : سمعت ابن عباس يقول :

كان أهلُ دمشقَ إذا احتبسَ عليهم القطرُ ، أو غلا بَيْعُهم أو جار عليهم سلطانٌ ، أو كانت لأحدهم حاجةٌ صعدوا موضعَ ابنِ آدم المقتول فيسألون الله ، فيعطيهم ما سألوا .

وروي عن أحمد بن كثير قال :

صعِدتُ إلى موضع دمِ ابن آدم عليهما السلام في جبل قاسيون بدمشق ، فسألت الله عزّ وجلّ الحجَّ فحججتُ ، وسألته الجهادَ فجاهدتُ ، وسألته الزيارةَ والصلاةَ في بيت المقدس وعسقلان وعكا والرباط في جميع السواحل فرزقتُ ذلك كله ، وسألته يغنيني عن الأسواق والبيع فرزقتُ . ولقد رأيت النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهابيل بن آدم عليهما السلام فقلت له : أسألك بحقّ الواحد الصمد وبحقّ أبيك آدم النبي ﷺ هذا دمك ؟ فقال : إيْ والواحدِ الصمدِ ، هذا دمي ، جعله الله آيةً للناس ، وإني دعوت الله عزّ وجلّ

---

(١) سورة المؤمن ٤٠ / ٦٠

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٨٦

فقلت : اللهم ربَّ أبي آدم وأمي حواء وهذا النبي المصطفى الأمي ، اجعل دمي مستغاثاً لكل نبي وصدّيق ، ومن دعا فيه فتجيبه ، وسألك فتعطيه [١١٥ / أ] فاستجاب الله عزّ وجلّ وجعله طاهراً آمناً ، وجعل هذا الجبل آمناً ومعقلاً ومعاشاً ، ثم وكّل الله به مَلَكا يقال له عزرائيل وجعل معه من الملائكة بعدد نجوم السماء ، يحفظونه ومن أتاه لا يريد إلا الصلاة فيه ، فقال رسول الله ﷺ : قد فعل وزاد كرماً وإحساناً . وإني آتيه كلَّ خميس وصاحباي وهابيل نصلّي فيه . فقلت : يا رسول الله ، ادعُ اللهَ أن أكون مستجابَ الدعوة وعلّمني دعاءً لكلِّ مُلِمَّةٍ وحاجةٍ فقال لي : افتح فاك ، قال : ففتحته ، فتَفَل فيه ، ثم قال : رُزِقْتَ فالزمْ ، رُزِقْتَ فالزم .

وعن كعب أنه قال :

إن إلياس اختبأ من مَلِك قومه في الغار الذي تحت الدم عشرَ سنين حتى أهلك اللهُ الملكَ ووليَهم غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلامَ فأسلم ، وأسلم من قومه خلقٌ عظيمٌ غيرَ عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلهم عن آخرهم .

قال وهب بن منبه : سمعت ابن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

اجتمع الكفّارَ يتشاورون في أمري ، فقال النبي ﷺ : يا ليتني بالغوطة بمدينة يقال لها دمشق حتى آتي الموضع مستغاث الأنبياء حيث قَتل ابن آدم أخاه فأسأل الله أن يهلك قومي فإنهم ظالمون ، فأتاه جبريل قال : يا محمد ، ائت بعض جبال مكة فأوِ بعضَ غاراتها فإنها معقلك من قومك . قال : فخرج النبي ﷺ وأبو بكر حتى أتيا الجبل ، فوجدا غاراً كثير الدواب ... فذكر الحديث .

وعن ابن عباس قال :

موضعُ الدَّم في جبل قاسيون موضعٌ شريف كان يحيى بن زكريا وأمه فيه أربعين عاماً ، وصلّى فيه عيسى بن مريم والحواريّون ، فلو كنتُ سألتُ اللهَ أن يغفر لعبده ابن عباس يوم يُحشر البشر ، فمن أتى هذا الموضع فلا يقصّر عن الصلاة والدعاء فيه فإنه موضع الحوائج . ومن أراد أن يرى ﴿ وآوَيْنَاهُمَا إِلَى [١١٥ / ب] رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[1] فليأتِ النيربَ الأعلى بين النهرين وليصعد إلى الغار في جبل قاسيون فيصلِّ فيه ، فإنه بيت

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٥٠

عيسى وأمه وهو كان معقلهم من اليهود . ومن أراد أن ينظر إلى إرم فليأت نهراً في حَفَر[1] دمشق يقال له بَرَدَى ، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريمُ بنت عمران والحواريّون فليأت مقبرة الفراديس .

وقال الزهري :

لو يعلم الناسُ ما في مغارة الدم من الفضل لما هَنَأ بهم طعام ولا شراب إلا فيها .

ذكر أبو الفرج محمد بن عبد الملك بن المُعَلّم

أنه ابتدأ بناء الكهف في سنة سبعين وثلاث مئة قال : رأيت جبريل عليه السلام في المنام ، فقال لي : إن الله سبحانه يأمرك أن تبني مسجداً يُصَلّى فيه له ويُذكَر اسمه ، وهو هذا ، فقلت : وأين هذا الموضع ؟ فسار إلى هذا الموضع الذي سمّيته أنا كهف جبريل . قلت : أنّى لي بذلك ؟ قال : إنّ الله سيوفّق لك من يُعينك عليه .

قال أبو الفرج :

وإنّما سمّيْتُه كهفَ جبريل عليه السلام ومسجد محمد ﷺ لأني رأيتهما في المنام فيه . وموضع يُرى فيه جبريل ومحمد ﷺ من أجلّ بقاع الأرض . قال : وجبل دمشق هذا ما أنبت شجرةً قط ولا ظهر فيه ثمرة ، فلما رأيت جبريل ومحمداً ﷺ أَنْبتَ الله عزّ وجلّ ببركتهما الشجر ، وظهر فيه الثمر ، وأكل الناس ما لم يُؤكل فيه قط ، وصار مسجداً من مساجد الله يذكر فيه اسمه ، فمن كانت له حاجةٌ فليغسلْ جسدَه بالماء ، ويلبسْ ثوباً طاهراً ثم يقصدْ إلى الكهف فيصلّي فيه ركعتين ، يقرأ في كل ركعة بالحمد وسبع مرات قُلْ هو الله أحد . فإذا فرغ من صلاته يقول : اللهم صلّ على جبريل الروح الأمين وعلى محمدٍ خاتم النبيين سبع مرات ، ويسجد فيقول : اللهم إني أتوسل إليك بجبريل الروح الأمين [١١٦ / أ] ومحمد خاتم النبيين إلا قضيتَ حاجتي ويذكرها ، فإنّ الله سبحانه يقضيها له إن شاء الله .

ومما يُرْجى إجابة الدعاء فيه مسجد القدم عند القطيعة[2] ، يقال إن هناك قبر موسى بن عمران ﷺ .

---

(١) الحَفَر : المكان الذي حفر كخندق أو بئر . معجم البلدان ، والقاموس : « حفر » . والمقصود هنا وادي دمشق .

(٢) انظر غوطة دمشق ٢٤٢

ومسجد الباب الشرقي للصحيح عن النبي ﷺ أن فيه ينزل عيسى بن مريم عليه السلام .

ومسجد واثلة بن الأَسْقَع داخل الزلاّقة على النهر وهو مسجد صغير .

ومسجد فضالة بن عُبَيْد في سوق الكبير جائزَ مسجد درب الرَّيْحان ، وهو مسجدٌ سَفَل صغير ، وداره بذلك الموضع ، ويعرف اليوم بدار التارين .

ومسجد أوس بن أوس في درب القلي ، وهو مسجد صغير .

والمسجد الذي على باب زقاق عطّاف ، كان مسجد أَيْمن بن خُرَيم .

ومسجد سوق الرَّيحان مسجد يزيد بن نُبَيْشَة وهو صحابي قرشي من بني عامر بن لؤي .

ودار أبي عُبَيْدة بن الجرّاح في حجر الذهب ، ومسجده بالسّقيفة التي عند بني عبد الصمد .

ودار خالد بن الوليد ، ومسجده عند باب توما .

وروى بسنده عن الشيخ أبي بكر بن سيد حَمْدَوية قال :

لما أراد بناء مسجده المعروف اليوم بأبي صالح وُجِدَ في المحراب لوحٌ من فخّار عليه مكتوب : هذا مسجد الأولياء ، فأصبحنا ولم نره ، وغيّبه الشيخ وقال : هذا شهرة .

ذكر فضل مواضع وجبال

بظاهر دمشق وضواحيها

قال الوضين بن عطاء : قال رسول الله ﷺ لأصحابه :

من تكفّل لي ببيتٍ في الغوطة أتكفلّ له ببيتٍ في الجنة .

قال : وهو حديث منقطع .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

خلق الله عزّ وجلّ جمجمة جبريل عليه السلام على قدر الغوطة .

قال الوليد :

وبلغني أنّ غنم يعقوب عليه السلام كانت ترعى في مرجٍ بالغوطة .

وعن يونس بن ميسرة :

أشرف[1] عيسى بن مريم على الغوطة فقال : يا غوطة ـ وقال الأكفاني : الغوطة ـ إن عجز الغني أن يجمع منك كنزاً لم يعجز المسكين أن يشبع منك خبزاً . ولم يقل ابن الأكفاني : منك ، في الموضعين .

عن أبي مسهر ، سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول :

إنما سُمّيت ثنيّة العقاب براية خالد بن الوليد حين أشرف عليها بالراية العقاب .

وعن إسحاق بن فروة

أن راية رسول الله ﷺ السوداء صارت إلى خالد بن الوليد ، فقاتل بها بني حنيفة

(١) من هذه اللفظة يبدأ خرم في الأصل بمقدار ورقة ، وقد أتممناه من تاريخ ابن عساكر المجلدة الثانية . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ص ١١٦ ـ ١٢٥ ، بعد تهذيب الأسانيد .

ومَسْلَمة . ثم مضى إلى الجزيرة ، ثم أتى الشام فقاتل بها في وقائع الشام .

حدثني ابن أبي الرجال عن محمد بن عمارة بن عامر بن عمرو بن حزم قال :

كانت راية رسول الله ﷺ التي يسير فيها تسمى العقاب ، راية الأنصار فقلت له : ياعبد الملك ، سوداء ؟ قال : لا ، ولكنها خضراء .

ذكر أبو بكر أحمد بن يحيى البلاذري هذا المعنى ثم قال :

وقوم يقولون إنها سُمّيت بعقابٍ من الطير كانت ساقطة عليها . وسمعت من يقول : كان هناك مثل عقاب من حجارة .

والخبر الأول أصح .

قال قتادة : وحدثني رجل عن سعيد بن المسيّب عن عبد الله بن عمرو قال :

أرواح المؤمنين تُجمع بالجانبين ، وأرواح الكفار تجمع ببرهوت وفي سبخة بحضرموت .

قال أبو حاتم :

الجانبين : اليمن . وبرهوت . من ناحية اليمن . ولاأدري تفسير أبي حاتم للجانبين محفوظاً . والله تعالى أعلم .

عن سعيد بن المسيب قال :

أرواح المؤمنين بأرض الجابية ، وأرواح الكفار بسبخة حضرموت .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

خلق الله تعالى آدم من طين الجابية ، وعجنه بماء الجنة .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

خلق الله تعالى آدم من طين الجنة ، وعجنهُ بماءٍ من ماء الجنة ، وقال : من ماء زمزم .

وحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وغيره

أن جند حمص الجندُ المتقدم ، وإنها كانت يومئذ ثغراً ، وإن الناس كانوا يجتمعون بالجابية لقبض العطاء ، وإقامة البعوث من أرض دمشق ، في زمن عمر وعثمان حتى نقلهم إلى

معسكر دابق[1] معاويةُ بن أبي سفيان لقربه من الثغور . قال : فكان والي الصائفة وإمام العامة في أهل دمشق ، لأن مَن تقدمهم من أهل حمص وأهل قنّسرين وأهل الثغور مقدمة لهم . وإلى أهلها يولون إن كانت لهم جولة من عدوهم .

وعن كثير المزني عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

أربعة أجبل من جبال الجنة ، وأربعة أنهار من أنهار الجنة ، وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة . قيل : فما الأجبل يارسول الله ؟ قال : أُحُد جبل يحبّنا ونحبّه جبل من جبال الجنة ، وطور جبل من جبال الجنة ، ولبنان جبل من جبال الجنة ، وقاسيون جبل من جبال الجنة . والأنهار النيل والفرات وسيحون وجيحون . والملاحم بدر وأحد وخيبر والخندق .

عن ابن عباس

أنه كتب إلى خالد يسأله عن أشياء من البيت فكتب إليه : إن البيت أُسّس على خمسة أحجار : حجر من أحد ، وحجرين من طور سينا ولبنان ، وحجر من ثبير ، وحجر من حراء .

عن مجاهد قال :

بُني البيت من أربعة أجبل : من حراء ، وطور زيتا ، وطور سينا ، ولبنان .

عن قتادة قال :

ذُكر لنا أن قواعد البيت من حراء . وذكر لنا أن البيت بُني من خمسة أجبلٍ : من حراء ولبنان والجودي وطور سينا وطور زيتا .

عن قتادة

وذكر قول الله تبارك وتعالى ﴿ وإذْ بوّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيت ﴾[2] .

قال قتادة :

هذا حرم الله قد طاف به آدم ومَنْ بعدَه ، فلما كان إبراهيم أراه الله تعالى مكان البيت

---

(١) هي قرية شمال حلب . معجم البلدان

(٢) سورة الحج ٢٢ / ٢٦ ـ ٢٧

فأتبع منه أثراً قديماً فبناه من طور زيتا وطور سينا وجبل لبنان ومن أحد وحراء . وجعل قواعده من حراء . ثم قال : ﴿ وأذِّنْ في الناس بالحج[1] ﴾

قال قتادة

في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذْ يرفَعُ إبراهِيمُ القواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْماعِيْلُ ﴾[2] .

قال قتادة :

إنها بنياه على أمر قديم كان قبلها ، فبنياه من خمسة أجبلٍ : من حراء ولبنان ، أو لدبنان ، والجودي وطور سينا وطور زيتا ، وبنيا القواعد من حراء .

عن ابن جريج قال :

بُني أساس الكعبة من خمسة أجبلٍ : من طور سينا ومن طور زيتا ، ومن لبنان ومن الجودي ومن حراء .

عن كعب قال :

أربعة أجبل : جبل الخليل ولبنان والطور والجودي ، يكون كل واحد منهم يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء مابين السماء والأرض ، يرجعن إلى بيت المقدس حتى تُجعل في زواياه ويضع الجبّار جلّ جلاله عليها كرسيّه حتى يقضي بين أهل الجنة والنار ﴿ وتَرى الملائكةَ حافّيْنَ من حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وقُضِي بينَهمْ بالحقّ وقِيلَ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِين ﴾[3] .

عن كعب قال :

جبل لبنان كان عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال كعب :

ولبنان أحد الثانية أجبل تحمل العرش يوم القيامة .

---

(١) سورة الحج ٢٦/٢٢ ـ ٢٧

(٢) سورة البقرة ١٢٧/٢

(٣) سورة الزمر ٧٥/٣٩

عن أبي الزاهرية قال :

أنبئنا ، جبلُ لبنان أحد حملة العرش الثانية يوم القيامة .

عن الوضين بن عطاء أن رسول الله ﷺ قال :

جبل الخليل جبل مقدس ، وإن الفتنة لما ظهرت في بني إسرائيل أوحى الله تعالى إلى أنبيائهم أن يفرّوا بدينهم إلى جبل الخليل .

وحكى بعض أهل العلم قال :

سمعت مشايخ أهل الشام يزعمون أن جبل الخليل إنما سُمي بذلك لأن الله تبارك وتعالى لما أوحى إلى الجبال : إني أريد أن أتجلّى إلى موسى على بعضكِ تطاولتْ وشمختْ غير جبل الخليل فإنه استخزى وتطامن[1] .

[١١٦ / ب] فسمي جبل الخليل .

وعن أبي هريرة وأبي الدرداء

لقي أنسٌ أبا الدرداء وأبا هريرة وابن مسعود مُقْبلين من سلسلة ، وسلسلة حصنٌ يكون في ساحل دمشق فيه منبر . قال : فأقمت بسلسلة ، وذلك أن جبريل عرض على رسول الله ﷺ ذكر سواحل الشام فعرض عليه سلسلة فوجدها مكتوبة في أُسْكُفَّةِ باب عدن وهي جنة المأوى .

قال عبد الله بن مسعود :

أقمت فيها ثلاثاً فقصرت الصلاة ، والمقصّر فيها كمن أتمّ الصلاة سبعين سنة .

قال أبو الدرداء :

فصلَّيتُ فيها أربع ركعات قرأت في الركعة الأولى ﴿ الحَمْدُ وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وفي الثانية ﴿ الحَمْدُ وإذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ وفي الثالثة ﴿ الحَمْدُ وقُلْ يا أَيُّها الكافِرونَ ﴾ وفي الرابعة ﴿ الحَمْدُ وإذا زُلْزِلَتْ ﴾ وسمعت رسول لله ﷺ ذكره وحدث به .

قال إبراهيم اليماني :

قدمت من اليمن فأتيت سفيانَ الثَّوْري فقلت : يا أبا عبد الله ، إني جعلت في نفسي

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في الأصل . وانظر ص٢٨٤ .

أن أنزل جدة فأرابط بها كلَّ سنةٍ وأعتمر في كل شهر عمرةً ، وأحجّ في كل سنة حجةٍ وأقرب من أهلي أحبّ إليك أم آتي الشام فقال لي : يا أخا أهل اليمن ، عليكَ بسواحل الشام ، عليك بسواحل الشام ، فإنّ هذا البيت يحجّه في كل عام مئة ألف ومئتا ألف وثلاث مئة ألف ، وما شاء الله من التضعيف إلى مثل حجتهم وعمرتهم ومناسكهم .

وعن كعب قال :

يا أهل الشام ، يا أهل الشام من أراد منكم الرفق في المعيشة مع العبادة فعليه ببيسان ، ومن أراد منكم السَّعة في الرزق والسلامة في الدين فعليه بِعِرْقَة[1] ، ومن أراد منكم أن يجمع له دينه ودنياه فعليه بصور .

---

(١) بلد من العواصم في شرقي طرابلس وهي آخر عمل دمشق . معجم البلدان .

ذكر كنائس أهل الذمة التي صالحوا عليها

قال عمر بن عبد العزيز :

إنه كان في عهد أهل دمشق خمس عشرة كنيسة .

[١١٧ / أ] قال أبو مسهر :

أقام بعد فتح دمشق من بطارقة الروم بدمشق اثنا عشر بِطريقاً ، فأُقروا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله - يعني كنيسة - فأقاموا بها حيناً ، ثم بدا لهم فهربوا من دمشق وتركوا تلك المنازل ، فأُقْطِعَها قومٌ من أشراف دمشق منهم ابن بَحْدل وابن مُدْلِج العُذْري وغيرهما . فلما ولي عمر بن عبد العزيز أخرج أولادهم منها وردَّها على الأعاجم ، فلما مات عمر رُدَّتْ إلى أولاد الذين أُقطعوها .

وقال رجاء بن أبي سلمة :

خاصم النصارى حسان بن مالكٍ الكلبي إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسته بدمشق فقال له عمر : إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها .

قال علي بن أبي حَمَلَة :

خاصَمَنا العجمُ في كنيسةٍ بدمشق يقال لها كنيسة بني نصر ، كان معاوية أَقْطَعهم إياها ، فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها ودفعها إلى النصارى . فلما ولي يزيد ردّها إلى بني نصر .

قال ابن المُعَلّى :

[١] قرأتُ كتابَ سجل من يحيى بن حمزة لِبُنْك نصارى قصبة دمشق أنهم ذكروا له أنه شجر بينهم وبين رئيسهم في دينهم وجماعتهم من أهل القرى وعَتَاقَة العرب[٢] والغرباء

---

(١) سيرد هذا الخبر في الجزء الثالث من مختصر ابن منظور . انظر ترجمة أحمد بن غير الثقفي .

(٢) هو مولى عَتاقَةٍ ومولًى عتيقٌ . القاموس : « عتق » .

اختلاف وفرقة وأنهم غلبوهم على كنائسهم ، وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وكتابهم الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم ، فدعوتُهم بحجتهم فأُتَوني بكتاب خالد بن الوليد لهم فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهلَ دمشق يوم فتحها ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم لا نَهْدمنَّه ولا نَسْكُنَنَّهُ ، لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ألاّ يعرض لهم أحد إلاّ بخير إذا أعطَوا الذي عليهم من الجزية . شهد هذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غَنْم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومَعْمَر بن عتاب [١١٧ / ب] وشرحبيل بن حَسَنَة وعُمَيْر بن سعد ، ويزيد بن نُبَيْشة وعبد الله بن الحارث وقضاعي بن عامر . وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة .

وقرأت كتابهم فوجدته خاصة لهم ، وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار ، ووجدت ماوراء حيطانها لدفعة الخيل ومركز الرماح . ونظرت في جزيتهم [فوجدتها][1] وظيفة عليهم خاصة دون غيرهم ، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد بنكاً تُلْداً ووجدت مَن نازعهم لفيفاً طرؤوا عليهم ، وذلك لو أنّهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد ومساكن فلهم في آخر الدهر ما في أوله ، وقضيتُ لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حليةٍ أو آنيةٍ أوكسوةٍ أو بناء أو عرصة أضافوا ذلك إليها يُدفع ذلك إليهم بأعيانه إن قُدر عليه أو قيمة عدلٍ يومَ يُنظر فيه . شهد عدد كنائس النصارى التي دخلت في صلحهم بدمشق خمس عشرة كنيسة

---

(١) اللفظة مستدركة من خطط الشام ٦ / ٨

ذكر بعض الدّور التي هي داخل السُّور

لما استُخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء ، وهي دار الإمارة بدمشق ، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن ، فاختار من فلسطين عمواس ، ومن الأردنّ قصر خالد ، ومن دمشق أندركيسان ، ومن حمص دير زَكّى .

ولما بنى معاوية الخضراء بدمشق وهي دار الإمارة بالطوب . فلما فرغ منها قدم عليه رسولُ ملك الروم فنظر إليها فقال له معاوية : كيف ترى هذا البنيان ؟ قال : أمّا أعلاه فللعصافير ، وأما أسفله فللفأر ، قال : فنقضها معاوية وبناها بالحجارة

وعدّد دوراً ليس في تعدادها كبير فائدة .

وأما ما كان من البنيان خارجاً عن السور فقد رُوي [١١٨ / أ] أنَّ كعب الأحبار خرج من دمشق ومعه نفر يشيّعونه ، فخرج من باب الجابية حتى إذا كان عند الثنيّة من دير ابن أوفى[1] وقف ثم نظر إلى خلفه ثم سار حتى جاوز الكسوة ، فلما ودعوه سألوه عن ذلك فقال : أما نظري حين خرجت من باب الجابية ووقوفي على الثنيّة فإن البنيان يتصل إليها حتى يسير السائر في ضوء السراج حتى ينتهي إليها .

وروي عن كعب أنه قال :

يتصل العمران ما بين باب الجابية إلى البُضَيع[2] .

---

(١) كان خارج باب الجابية « غوطة دمشق ٢٦٢ » .

(٢) جبل بالكسوة يسمى اليوم المضيع « غوطة دمشق ١٣ ومعجم البلدان »

وروي عن مطر[1] بن العلاء قال :

إنه كان يعرف من رأس زقاق فذايا[2] إلى قريـة تعرف بواسـط[3] في الغوطـة حوانيت ومنازل . وحكى عن شيوخه أن العمران يتصل بهذا حتى يصير سوق القمح في قرحتا[4] .

وروي أنّه كان على نهر يزيد رواشن مشرفة على النهر ، وكان أكثر ظاهر البلد منـازل القبائل وقرى متصلة وأبنية متقاربة ، فخرب أكثر ذلك في الفتن والحروب والحصارات وبـادَ أهلوه ، وتمادى عليـه الخراب إلى الآن ، وقلَّ موضعٌ حُفر إلا وجـد فيـه أثر العمارة من سـائر نواحي البلد من قبليّه وشرقيّه وشاميّه وغربيّه . والله يحرس ما بقي منها ويحميه .

---

(١) كذا عند ابن منظور وفي نسخة الظاهرية « مصر » وفي المطبوع « مضر »

(٢) من القرى الداثرة في غوطة دمشق كانت جنوبي مقبرة اليهود « غوطة دمشق ٢٣٩ »

(٣) واسط : في جنوبي دمشق بعد قرية فذايا « غوطة دمشق ٢٥٠ »

(٤) قرحتا : على بضعة كيلو مترات من دمشق « غوطة دمشق ٢٤٠ »

ذكر الأنهار المحتفرة للشرب وسقي الزرع

ذكر وَهْب بن مُنَبِّه

أنّ في رَبَض الجنة نهراً من أنهار الجنة ، فهو أصل أنهار الأرض كلها التي أظهرها الله عزّ وجلّ حيثما أراد أن يظهرها ، وأنّ النيل نهر العسل في الجنة ، ودجلة نهر اللبن في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة ، وسَيْحان وجَيْحان نهران بأرض الهند وهما نهرا الماء في الجنة .

وذكر قصة نهر يزيد وأصله ، وفصّل ذلك تفصيلاً تاماً وما تفرّع منه ومن غيره ثم قال : فهذه الأنهار التي يَنتفع بها القاصي والداني ، وينقسم منها الماء إلى البلد في القُنِيّ فينتفع به الناس الانتفاع العام [١١٨ / ب] ويتفرق إلى البِرَك والحمامات ، ويجري في الشوارع والسقايات وذلك من المرافق الهنيّة ، والفضيلة العظيمة التي اعتُدت من فضائل هذه المدينة ، إذ الماء في أكثر البلاد لا ينال إلا بالثمن ، وهو الذي تحصل به حياة النفوس .

وقد ورد في فضل سقي الماء ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

ليس صدقة أعظم أجراً من ماء .

وعن عائشة أنها قالت :

يا رسول الله ، ما لا يحلّ منعه ؟ قال : الماء والملح والنار . يا عائشة ، من سقى الماء حيث يوجد فكأنما أعتق نفساً ، ومن سقى الماء حيث لا يوجد فكأنما أحيا نفساً ، ومن أُخذ من منزله ملحٌ فطُيِّب به طعامٌ كان كمن تصدّقَ بذلك الطعام على أهله ، ومن أُخذت من منزله نارٌ لم ينتفع من تلك النار بشيء إلا كان له صدقة .

وعن أبي موسى قال : سألتُ ابن عباس :

أيّ الصدقة أفضل ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال لي : اسقِ الماء . قال : ثم ؟

قال : ألم تر إلى أهل النار إذا استغاثوا يغاثوا[1] بماء كالمهل قال : ﴿ أفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الماءِ أوْ مِمّا رَزَقَكُمْ اللهُ ﴾[2] .

فهذه الأحاديث تدل على أنّ الصدقة بالماء من القُرَبِ الكبار .

وبدمشق قَنِيٌّ لها أوقافٌ معيَّنة مثبوتة عند متولّي الأوقاف ، وأكثرها ليس لها أوقاف ولكن يجريها المسلمون ، فيحصل بها الانتفاع وتطيب بها الأسقاع . وَعَدَّدها وفَصَّلها بمواضعها وأسمائها . وعددُ جملتِها في داخل البلد مئـةٌ ونيّفٌ وثلاثون قناة . وفي ظاهر البلد تسع عشرة قناة .

فأما الحمامات ففيها وفي ظاهرها سبعة وخمسون حماماً سوى حمامات القرى .

---

(١) كذا في الأصل والمطبوع من تاريخ ابن عساكر ٢ / ١٥٤ وهي تضمين لقوله تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ ، الكهف ١٨ / ٢٩

(٢) سورة الأعراف ٧ / ٤٩

ماورد في مدح دمشق بطيب الهواء والماء

عن وهب بن منبه قال :

لما أُري إبراهيم مَلَكوت السموات والأرض لم يَسأل إلا عن غوطة دمشق وعن جَنَّتَيْ سبأ .

كان الرشيد يقول :

الدنيا [١١٩ / أ] أربعةُ منازل ، قد نزلتُ ثلاثةً منها : أحدها الرقة ، والآخر دمشق ، والآخر الري في وسط نهر وعلى جنبتيه أشجار ملتفة متصلة وفيما بينها سوق ، والمنزل الرابع سمرقند ، وهو الذي بقي عليّ لم أنزله ، وأرجو ألا يحول الحول في هذا الوقت حتى أحلّ به .

فما كان بين هذا وبين أن توفي إلا أربعة أشهر فقط .

قال أحمد بن الخير الوراق الدمشقي :

لم تزل ملوكُ بني العباس تخفّ إلى دمشق طلباً للصحّة وحسن المنظر ، منهم المأمون فإنه أقام بها ، وأجرى إليها قناةً من نهر مَنِين في سفح جبلها إلى معسكر بدير مرّان[1] وبنى القبة التي بأعلى دير مرّان وصيّرها مرقباً يوقد في أعلاها النار لكي ينظر إلى مافي معسكره إذا جنّ عليه الليل ، وكان ضوؤها وضياؤها يبلغ إلى ثنية العقاب[2] وإلى جبل الثلج[3] .

وعن الفضل بن مروان

أنّ المأمون صار إلى دمشق وهو رقيق فغلظ وأخذ بعض اللحم ، وكان أكْلُه قبل ذلك

---

(١) دير مرّان : يشرف على الربوة غربي دمشق « غوطة دمشق » ٢٦٧ ـ ٢٦٩ »

(٢) الجبل المطل على الغوطة والمرج وتسمى اليوم الثنايا « غوطة دمشق ١٨٠ »

(٣) هو جبل الشيخ « غوطة دمشق ١٨٠ »

في كل يوم ثمان عشرة لقمة ، فلما أقام بدمشق صار أكله في كل يوم أربعاً وعشرين لقمة بزيادة الثلث .

ويقال :

إن المأمون نظر يوماً من بناءٍ كان فيه إلى أشجار الغوطة وبهائها فحلف بالله إنها خير مغنى على وجه الأرض .

قال يحيى بن أكثم القاضي :

كنت بدمشق مع المأمون وحضرت طعامه ، فقُدم إليه طعام كثير من الفراريج ، فجعل المأمون يأكل من تلك الفراريج ويتطّق[1] ويتلمظ[2] ويتبسّم ، وأنا لا أدري ما مقصده بتلمّظه ، فلما استحكم له طعم الفراريج وبلغ نهاية الاستتمام إلى غايته في ذوقه نظر إلى الطبّاخ فقال : بأيّ شيء سمّنتَ هذه الفراريج ؟ وبم طيّبْتَها ؟ فقال الطباخُ : هذه أرعية دمشق ، لم تُسمَّن ولم تطيَّب ، فقال لي : ما طعمٌ من طعام الطير ولا ريح من الروائح العذبة إلا وقد خيّل لي أنه في هذه الفراريج ، وهذا والله أرخس[3] لحماً وأطيب طعماً وريحاً من مسمّن كَسْكَر[4] . ثم قال : أو ما علمت أنّ فراريج كَسْكَر فيها ثقل [١١٩ / ب] كَسْكَر وروائح آجامها وكأنها من طير الماء فيها الطعم فإن لم تُعالج بالأبازير وتُطيَّب بالأفواه[5] وتروّى بالزيت المغسول لم يمكن النظر إليه فضلاً عن أكله ، وهي إذا عوينت بما وصفت وعولجت ففيها بقايا سَنَخها ولئن رجعت إلى العراق لا ذقتُ منها شيئاً البتة .

قال ابن أبي دُوَاد : قال المعتصم بالله :

ما شبّهت ساكن دمشق إلا بالصائم في شدة الكَلَف على الطعام فإنه جائع أبداً ، قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، فنِعْمَتِ النعمةُ هذه . قال : نعم ، خير بقاع الأرض إلا إنه يورث الشدة .

---

(١) التطّق : التذوق والتصويت باللسان والغار الأعلى . اللسان : « مطق » .

(٢) تلمظ : تتبع بلسانه بقية الطعام في الفم وأخرج لسانه فمسح شفتيه أو تتبع الطعم وتذوّق . القاموس : « لمظ » .

(٣) فوق اللفظة في الأصل ضبة . وفي الهامش كتب حرف « ط » . لعله يريد « أرخص » . وفي القاموس : « رخس » : « وأرخس السعر : أرخصه » .

(٤) كسكر : كورة واسعة قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة « معجم البلدان »

(٥) الأفواه : التوابل جمع أفاويه . القاموس : « فوه » .

قال الأصمعي :

أحسن الدنيا ثلاثة : نهر الأُبُلَّة ، وغوطة دمشق ، وسمرقند .

وقال : حشوش الدنيا ثلاثة : عمان وأردبيل[1] وهيت .

وعن الأصمعي قال :

جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ونهر سمرقند ونهر الأُبُلَّة .

وقال غيره :

في الدنيا ثلاث جنان : مرو من خراسان ، ودمشق من الشام ، وصنعاء من اليمن ، وجنة هذه الجنان صنعاء .

وذكر بعض المغاربة قال : قال قوم من المشرقيين :

إن الله أسكنه ـ يعني آدم ـ بناحية كيكدر من كورة الصين . قال : فهي التي تعرف في زماننا بمدينة لغبور . ويقولون : الصين أطيب البلاد . وأما الذي عليه العامة في الشق الغربي أن أطيب البلاد صنعاء من اليمن ، ودمشق من الشام ، والري من خراسان ، ونجران من الحجاز .

---

(١) من أشهر مدن أذربيجان . معجم البلدان

ذكر تسمية أبوابها ونسبتها

١ ـ الباب القبلي المعروف بـالبـاب الصغير ، سمي بـذلـك لأنـه كان أصغر أبوابهـا حين بنيت .

٢ ـ البـاب الـذي يليـه من القبلـة بشرق : بـاب كيسـان ، ينسب إلى كيسـان مـولى معـاويـة ، وقيل : نسبتـه إلى كيسـان مـولى بشر بن عمـارة بن حسـان بن جبـار بن قرط الكلبي . وهو الآن مسدود .

٣ ـ الباب الشرقي ، سمي بـذلـك لأنـه شرقي البلـد ، وكان ثلاثـة أبواب بـاب كبير في الوسط وبابان صغيران من جانبيـه [١٢٠ / أ] سُـدّ منهـا الكبير والبـاب الصغير الـذي من قبلته وبقي الصغير الشامي .

٤ ـ باب توما من شامي البلد ، ينسب إلى عظيم من عظماء الروم واسمه توما ، وكانت له على بابه كنيسة جعلت بعدُ مسجداً .

٥ ـ باب الجينيق من الشام أيضاً منسوباً إلى محلة الجينيق ، وهو الآن مسدود .

٦ ـ باب السلامة من شام البلد أيضاً ، سمي بذلك تفاؤلاً ، لأنـه لا يتهيـأ القتـال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار .

٧ ـ بـاب الفراديس من شـآمـه أيضـاً . منسـوب إلى محلـة كانت خـارج البلـد تسمى الفراديس هي الآن خراب ، وكان للفراديس باب آخر عند باب السلامة فسـدّ ، والفراديس بلغة الروم : البسـاتين .

٨ ـ باب الفرج من شآمه أيضاً ، مُحْدَثٌ ، أحدثه الملك العـادل نور الـدين وسماه بهـذا الاسم تفاؤلاً لما وجد من التفريج بفتحه ، وكان بقربـه بـاب يسمى بـاب العمارة ، فُتح عنـد عمارة القلعة ثم سُدّ بعد ، وأثره باقٍ في السور .

٩ ـ باب الحديد من شآمه أيضاً ، وهو الآن خاص للقلعة التي أُحدثت غربي البلد في دولة الأتراك ، وسمي بذلك لأنه كله حديد فقيل الباب الحديد ، ثم تركت الألف واللام تخفيفاً .

١٠ ـ باب الجِنان في غربي البلد ، سمي بذلك لما يليه من الجنان وهي البساتين ، وقد كان مسدوداً ثم فتح .

١١ ـ باب الجابية من غربي البلد ، منسوب إلى قرية الجابية ، لأن الخارج إليها يخرج منه لكونه مما يليها ، وكان ثلاثة أبواب : الأوسط منها كبير ومن جانبيه بابان صغيران على مثال ما كان الباب الشرقي ، وكان من الثلاثة أبواب ثلاثة أسواق ممتدة من باب الجابية إلى الباب الشرقي ، كان الأوسط من الأسواق للناس ، وأحد السوقين لمن يشرّق بدابته ، والآخر لمن يغرّب بدابته ، حتى إنه كان لا يلتقي فيها راكبان ، فسد الباب الكبير والشامي منها ، وبقي القبلي إلى الآن .

وفي السور أبواب صغار [١٢٠ / ب] غير ما ذكرنا ، تُفتح عند وجود الحاجة إليها . منها :

١ ـ باب في حارة الحاطب يعرف بباب ابن إسماعيل .

٢ ـ وباب في المدبغة .

فضل مقابر أهل دمشق

ومن بها من الأنبياء وغيرهم

كان كعب الأحبار يقول :

في مقبرة بـاب الفراديس : يُبعث منهـا سبعـون ألف شهيـد يُشَفَّعـون في سبعين ، كل إنسان في سبعين .

وعن كعب قال :

بطرسوس من قبور الأنبياء عشرة ، وبالَمصّيصَة[1] خمسة ، وهي التي يغزوهـا الروم في آخر الزمان فيمرّون بها فيقولون : إذا رجعنا من بلاد الشـام أخـذنـا هؤلاء أخـذاً ، فيرجعون وقد تحلّقت بين السماء والأرض .

قال كعب :

وبالثغور وأنطاكيـة قبر حبيب النجـار ، وبحمص ثلاثون قبراً ، وبـدمشق خمس مئـة قبر ، وببلاد الأردن مثل ذلك .

وفي رواية أخرى مثله وزاد فيه :

وبـالثغور وبسواحل الشـام من قبور الأنبيـاء ألف قبر ، وقـال بعـد : وببـلاد الأردن مثل ذلك ، وبفلسطين مثل ذلك ، وببيت المقدس ألف قبر ، وبـالعريش عشرة وقبر موسى بدمشق .

وعن عبد الله بن سلام قال :

بالشـام من قبور الأنبيـاء ألفـا قبر وسبع مئـة قبر ، وقبر موسى بـدمشق ، وإن دمشق مَعقِل الناس في آخر الزمان من الملاحم .

---

(١) المصّيصة : من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس « معجم البلدان » .

وعن ابن عباس قال :

من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِيْن ﴾[1] فليأت النَّيْرب الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليصعد الغار في جبل قاسيون فيصلّ فيه ، فإنّه بيتُ عيسى وأمّه ، وهو كان معقلهم من اليهود . ومن أراد أن ينظر إلى إرم فليأت نهراً في حَفَرِ دمشق يقال له بَرَدى . ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس .

وفي مقبرة دمشق قبور من الصحابة الأخيار . وقد جاء في فضل [١٢١ / أ] المقابر التي يدفنون بها :

ما روي عن أوس وهو ابن عبد الله بن بُرَيْدة عن أخيه أظنّه عن أبيه قال :

مات أبي بمرو وقبره بحُصَيْن .

قال : وقال لي أبي : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

من مات من أصحابي بأرض فهو قائدهم يوم القيامة .

وعن بُرَيْدة قال : قال رسول الله ﷺ :

أيما رجل من أصحابي مات ببلدة فهو إمامهم يوم القيامة .

وفي رواية أخرى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

ما أحدٌ من أصحابي يموت بأرضٍ إلا كان قائداً ونوراً لهم يوم القيامة .

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ :

إنّها ستُبعثُ بُعوثٌ فكُنْ في بعث خراسان ، ثم اسكن مدينة مرو ، فإنّه بناها ذو القرنين ، ودعا لها بالبركة ، ولا يصيب أهلها سوءٌ أبداً .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ :

من مات من أصحابي بأرضٍ فهو شفيعٌ لأهل تلك الأرض .

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٥١

وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ :

لا يموت أحدٌ من أصحابي ببلد من البلدان إلا كان لهم نوراً ، وبعثه الله يوم القيامة سيّد أهل تلك البلد .

قال الراوي :

ثم قال لي موسى بن عبد الله : هذه فضيلة لكم يا أهل الكوفة ، قد مات أمير المؤمنين ببلدكم .

وأول مقبرة دفن المسلمون فيها بدمشق ماروي أن المسلمين يومئذ نشّبوا القتال من تلك الناحية ، يعني من ناحية الباب الشرقي ، يوم نزولهم على دمشق ، فقتل ناس من المسلمين فدفنوا في مقبرة باب توما ، فهي أول مقبرة بدمشق للمسلمين .

قال : وأهل العلم يذكرون أنّ بمقبرة دمشق من أصحاب رسول الله ﷺ : بلال مولى أبي بكر ، وسهل بن الحَنْظَلِيّة ، وأبو الدَّرْداء .

حدث الحافظ أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الكتاني قال :

لم يتَّفِق المسلمون على معرفة عَيْنِ قبرِ نبيٍّ وصحابيٍّ غير قبر نبيّنا محمد ﷺ ، وقبر صاحِبَيْه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

[١٢١ / ب] قال ابن الأكفاني :

أراني الشيخ أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الكتاني قبور الصحابة الذين بظاهر دمشق بباب الصغير :

معاوية بن أبي سفيان ، وفضالة بن عُبَيْد ، وواثلة بن الأسقع ، وسهل بن الحَنْظَلِيّة ، وأوس بن أوس وهم داخل الحظيرة مما يلي القبلة . وأبو الدرداء خارج الحظيرة ، وأم الدرداء خلف الحظيرة ، وعبد الله بن أم حرام ويعرف بابن امرأة عبادة بن الصامت محاذ طريق الجادّة ، وجماعة يقولون إنه قبر أُبيّ بن كعب . قال : وليس بصحيح ، وأم حبيب بنة أبي سفيان ، أخت معاوية ، زوجة رسول الله ﷺ على قبرها بلاطة مكتوب عليها اسمها رضي

الله عنها في جنب حظيرة [الصحابة][1] وأختها على قبرها أيضا بلاطة مكتوب عليها .
وبلال بن رباح مؤذّن رسول الله ﷺ على قبره بلاطة مكتوب عليها اسمه .

قال : وأراني قبر الوليد بن عبد الملك ، وأخيه مَسْلَمة خلف الحظيرة التي فيها قبور الصحابة مقابل مقبرة أمير الجيوش ، على الجادّة .

قال : وأراني قبر بُرَيْهة بنة الحسن بن علي بن أبي طالب في قبة ، وقبر سُكَيْنَة بنة الحسين بن علي بن أبي طالب في قبة .

وفي رواية أخرى :
ووَابِصَةُ بن مَعْبَد ، وخُرَيمَ بن فاتِك ، ومَعْبَدُ بن فاتِك ، وسَبْرةُ بن فاتِك .

وكان بلال بن رباح نزل داريا ، فتزوج بها ، ومات بداريا ، وحمل حتى دفن هاهنا مع أصحاب رسول الله ﷺ .

ومُدْرِك بن زياد الفزاري قبره بقرية راوية من غوطة دمشق ، وهو أول صحابي توفي بظاهر دمشق .

وسعد بن عُبادة الأنصاري سيد الخَزْرَج ، قبره بقرية المَنِيحة من غوطة دمشق . وقد اختلف في قبر معاوية : فيقال إنّه قُبِر خلف حائط المسجد الجامع موضع دراسة السُّبْع اليوم . قال : والأصح أنّ قبره خارج باب الصغير .

وأما قبر أمّ حبيبة فيمكن أن يكون [١٢٢ / أ] قبرها هاهنا ، لأنها قدمت الشام على أخيها معاوية ، وذكرها أبو زرعة في طبقاته قال : والأصح أن قبرها بالمدينة .

وأما بلال فقيل قبره بباب الصغير ، وهو أصحّ الأقاويل ، وقيل بباب كيسان ، وقيل بداريا ، وقيل إنّه بحلب وهو قول ضعيف .

وأما بُرَيْهة فلا أرَى القولَ في نسبها يصحّ لأنّ أصحاب النسب لم يذكروا في ولد الحسن ابنة اسمها بُريهة .

---

(١) اللفظة مستدركة من تاريخ ابن عساكر ٢ / ١٩٦

وأما سُكَيْنة بنت الحسين فإنها تزوجت بالأَصْبَغ بن عبد العزيز بن مروان الـذي كان بمصر ، ورحلت إليـه ، فـات قبل أن تصل إليـه ، فيُحتمل أنهـا قـدمت دمشق ومـاتت بهـا . قال : والصحيح أنها ماتت بـالمـدينـة وأمرهم الوالي ألاّ يـدفنوهـا حتى يحضرهـا ، وركب إلى بعض أحواله بنواحي المدينة وكان اليوم حـاراً ، فتغيّرت رائحتهـا ، واشتُريَ لهـا طيب كثير ليغلب الرائحة فلم يغلب ، ثم بعث إليهم أن ادفنوها فإنّي مشغول ، فدفنت ولم يحضر .

وسعد بن عُبادة مات بحَوْران ، فيُحتمل أنه حمل ودفن في المَنيحة .

مراجع تحقيق الجزء الأول

أخبار الزمان ومن أباده الحدثان للمسعودي - ط ٣ - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٨ م .

أساس البلاغة للزمخشري .

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر - تحقيق علي محمد البجاوي - مطبعة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير - تصحيح مصطفى وهبي - المطبعة الوهبية ١٢٨٠ هـ .

الاشتقاق لابن دريد - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - منشورات مكتبة المثنى - بغداد - العراق .

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - مطبعة دار السعادة - مصر ١٣٢٨ هـ .

الأعلام للزركلي - ط دار العلم للملايين .

الاكال لابن ماكولا - الهند - حيدر آباد الدكن - طبعة ثانية - نشر محمد أمين دمج - بيروت - لبنان .

الأموال لأبي عبيد - تحقيق محمد خليل هراس - القاهرة ١٩٦٩ م .

الأنساب للسمعاني - ليدن ١٩١٢ م .

البداية والنهاية لابن الأثير - مطبعة السعادة - مصر - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .

تاج العروس للزَّبيدي - الطبعة الكويتية .

تاج اللغة وصحاح العربية .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي - القاهرة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م .

تاريخ دمشق لابن عساكر - الجلدة الأولى والثانية (القسم الأول) - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - مطبوعات مجمع اللغة العربية .

تاريخ الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ١٣٨٧ هـ /١٩٦٧ م .
التـاريـخ الكبير للبخـاري ـ تحقيـق عبـد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ورفـاقـه ـ الهند ١٣٨٠ هـ .
تبصير المنتبه لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
تهذيب تاريخ ابن عساكر لعبد القادر بدران (١ ـ ٥) ـ دمشق ١٣٢٩ هـ ، والجزء السادس والسابع ـ تحقيق الأستاذ أحمد عبيد .
تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف ـ الهند ـ حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ هـ .
الجرح والتعديل لابن حاتم الرازي ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ الهند ١٣٢٣ هـ .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ـ تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة رابعة ـ دائرة المعارف ـ القاهرة .
حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ـ مطبعة دار السعادة ـ مصر ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
الخراج ليحيى بن آدم ـ تحقيق محمد أحمد شاكر ـ القاهرة ١٣٤٧ هـ .
خطط الشام لمحمد كرد علي ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ م .
ديوان الأعشى الكبير ـ تحقيق الدكتور محمد حسين ـ مكتبة دار الآداب بالجماميز ـ مصر ١٩٥٠ م .
الطبقات الكبرى لابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ـ لمحمد بن أحمد الحسني المكي ـ مطبعة السُّنّة المحمدية ـ القاهرة ١٣٧٩ ـ ١٣٨٨ هـ / ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩ م .
غوطة دمشق لمحمد كرد علي ـ ط١ ١٩٤٩ م ، ط٢ ١٩٥٣ م .
القاموس الفقهي تأليف سعدي أبو جيب ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
قرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥١ م .
لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت .
اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٣٦٩ هـ .

مجلة المجمع العلمي مج ٢٤ ، ٢٦ .
مسند الإمام أحمد ـ مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية في مصر ١٣١٣ هـ .
المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ـ ليدن ١٨٦٣ م .
المشترك وصفاً والمختلف صقعاً لياقوت الحموي .
المصاحف تأليف أبي بكر بن داود السجستاني ـ تحقيق آرثر جفري ـ مصر ـ المطبعة الرحمانية ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .
معجم البلدان لياقوت الحموي ـ ليبزيغ ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م .
معجم البلدان لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .
معجم قبائل العرب تأليف عمر رضا كحالة .
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري ـ حققه مصطفى السقا ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .
المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان الفسوي ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ط٢ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
المغازي للواقدي ـ تحقيق ماردسن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت .
مقاييس اللغة لابن فارس ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ .
النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .
نهج البلاغة ـ شرح الشيخ محمد عبده ـ أشرف على تحقيقه وطبعه عبد العزيز سيد الأهل ـ دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت .
الوزراء والكتاب للجهشياري ـ تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه ـ مطبعة مصطفى بابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

فهرس موضوعات الجزء الأول